مَارسيْل بروسْت

غَرَامُ سوَانْ



روائع الروايات العالمية


mohamed khatab

غرام سوان



النص كاملاً



ماريان

روائع الروايات العالمية

مارسيل بروست

غرام سوان

تعريب

روبير غانم



عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

ص.ب. ٦٢٨ - تلفاكس ٣٠٥٩٦١ ١ ٠٠٩٦١ - تلفون ٦١٦٠٣٣ ٣ ٠٠٩٦١

E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978 9953-28

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

غرام سوان

لتكوّن جزءاً من « النـواة الصغيرة » ، من « الجمـاعة الصغيرة » ، من « العشيرة الصغيرة » لآل «فردوران» ،شرط واحد كان كافياً ولكنّه ضروري : كان يجب أن تتبنى بصورة ضمنية قانون إيمانهم حيث يعلن أحد بنوده أنَّ عازف البيانو الشاب ، الذي كانت ترعاه السيدة « فردوران » ، هذه السنة بالذات ، والتي كانت تقول عنه : « لا يجوز السماح لأحد بمعرفة عزف موسيقى « فاغنر » مثلما يعزف هو بالذات ! » ، وهو كان « يتفوّق » ، في آن واحد ، على « بلانتيه » « وروبنشتاين » ، كما أنَّ الدكتور « كوتار » كان بارعاً في تشخيص المرض أكثر من « بوتان » . وكلّ « منتسب جديد » لا يستطيع آل « فردوران » إقناعه بأنَّ سهرات الجماعات التي لا يأتي أفرادها إلى منزلهم ، كانت رتيبةً كالمطر ، قد يجد نفسه محذوفاً على الفور . وبما أنّ النساء كنَّ متمسّكات جداً بعدم التنازل في هذا المجال عن حشريتهن الاجتماعية ولا يتخلين عن الرغبة في التأكّد بأنفسهنّ من مباهج الصالونات الأخرى ، وبالمقابل آل « فردوران » كانوا يشعرون بأن تلك الحشرية والخفّة بإمكانها ، من خلال العدوى ، أن يقضيا على سلامة المبادىء الصلبة لكينستهم الصغيرة ، توصلوا أن يحذفوا على التوالي . جميع « المؤمنات » من النساء .

خارج زوجة الدكتور الشابّة ، كانوا مخفّضين هذه السنة بالذات (بالرغم من أنَّ السيدة « ڤردوران » كانت فاضلة ومن عائلة بورجوازية محترمة ، ثريّة جداً وغير معروفة أبداً ، وقد قطعت تدريجياً بإرادتها كلّ صلة مع عائلتها) إلى شخص من المجتمع الوسط ، السيدة « دوكريسي » ، حيث كانت السيدة « ڤردوران » تناديها باسمها الأوّل ، « أوديت » ، وتقول عنها إنّها « حبّوبة » ، وإلى عمّة عازف البيانو المميزة بخفتّها ، الإثنتان كانتا تجهلان أصول المجتمع وبسيطتين لدرجة أنّه كان باستطاعة أي كان أن يجعلهما تصدّقان بسهولة أنَّ « أميرة دوساغان » و « دوقة دوغرمينتاس » كانتا مضطرتين على أن تدفعا مالاً لبعض المساكين لتوجدا ضيوفاً إلى مائدتيهما ، وإذا دعي إلى منزل هاتين السيدتين الكبيرتين الحارسة القديمة للبناية بالإضافة إلى إحدى النساء الغانيات كانتا ترفضان الدعوة بازدراء .

« آل ڤردوران » ، ما كانوا يوجّهون دعوات إلى تناول العشاء : « مكانكَ إلى المائدة كان موجوداً » . لم يكن هنالك برنامج معيّن للسهرة . العازف الشاب كان يعزف ، إذا « راق له ذلك » ، لأن أحداً لم يكن مجبراً على فعل شيء ، ومثلما كان يقول السيد « ڤردوران » : «كلّ شيء للأصدقاء ، يعيش الرفاق ! » إذا أراد العازف أن يعزف مقطوعة « جولة على الحصان الوَلكيري » أو مدخل تريستان» ، كانت السيّدة «فردوران» تعترض ، ليس لأنّ هذه المعزوفة لا تعجبها ، بل بالعكس لأنّها كانت تؤثّر عليها كثيرا . « هل تريدون حقاً أن يصيبني الصداع ؟ أنتم تعلمون جيداً أنَّ

هذا الشيء يحصل في كلّ مرّة يقوم العازف الشاب بعزف ذلك . أعرف ماذا ينتظرني ! غداً عندما أريد أن أستيقظ ، طابت ليلتكم ، لا يوجد أحد ! » إذا لم يعزف الشاب ، كانوا يتحدّثون ، وأحد الأصدقاء ، وكان رسّامهم المفضّل في تلك الفترة ، « كان يطلق » ، مثلما كان يقول السيد « ڤردوران » ، « نكتة كبيرة يقهقه لها الجميع » ، السيدة « ڤردوران » بنوع خاص التي ـ بحكم عادتها أن تأخذ جدّياً ما كانت تتصوّره وتشعره ـ (الدكتور « كوتار » وكان مبتدئاً في ذلك الوقت) اضطرّ يوماً أن يعيد لها وجبتها التي كانت قد سقطت من شدّة الضحك .

اللباس الأسود كان ممنوعاً ، لأنّ الجميع «زملاء» ولكي لا يشبهون الناس « المملّين » الذين كانوا يتجانبونهم كمرض الطاعون حيث لا يدعونهم إلاّ في السهرات الكبيرة ، التي كانوا نادراً ما يحيونها وذلك فقط إذا كان ذلك يمتّع الرسّام أو يزيد في شهرة العازف . بقية الوقت كانوا يمضونها في فكّ الحزازير ، وفي تناول العشاء باللباس الرسمي بين بعضهم البعض ، دون أن يُدخلوا أيّ عنصر غريب إلى « النواة » الصغيرة .

ولكن ، شيئاًفشيئاً ، كلّما كان«الرفاق» يحتلّون مكاناً أوسع في حياة السيّدة « ڤردوران » ، المزعجون ، المنبوذون ، هؤلاء كانوا يحجزون الأصدقاء عنها ، ولا يتركونهم أحراراً بعض المرّات . والدة أحد « الرفاق » مثلاً ، مهنة الآخر ، المنزل الريفي أو الصحة السيّئة لثالث . وإذا كان الدكتور « كوتار » يفكّر بأنّ واجبه أن يذهب فوراً ، بعد تناول الطعام ، ليعود مريضاً بحالة

الخطر : « من يعلم ، كانت السيدة « فردوران » تقول له ، قد يجوز أنّه من الأفضل للمريض إذا لم تزعجه هذا المساء ، فقد يمضي ليلة جيّدة بدونك ، غداً صباحاً تذهب باكراً وستجده قد شفي » . في بداية كانون الأول ، كانت السيّدة « فردوران » تمرض عندما تفكّر بأنَّ أصدقاءها الأوفياء «سيهجرونها» نهار عيد الميلاد وفي رأس السنة . عمّة عازف البيانو كانت تصرّ على أن يتناول العشاء في هذا اليوم بالذات مع العائلة عند والدتها :

ـ هل تعتقد بأنّها ستموت ، والدتك ، صرخت السيدة « فردوران » بقساوة ، إذا لم تتناول طعام العشاء معها ليلة رأس السنة ، مثلما يحدث في القرية !

هواجس السيّدة « فردوران » كانت تحيا مجدداً خلال أسبوع الآلام :

ـ أنت يا دكتور ، عالِمْ ، عقل مضيء ، ستأتي بالتأكيد يوم الجمعة العظيمة كما في أي يوم آخر ؟ قالت السيّدة « فردوران » لـ« كوتار » ، بلهجة واثقة كما لو أنَّ بإمكانها عدم الشكّ بالجواب . ولكنّها كانت مضطربة بانتظار الجواب ، لأن الدكتور ، إذا لم يأتِ ، كانت تخشى أن تجد نفسها وحيدة .

ـ سآتي يوم الجمعة العظيمة . . . لأودّعكِ ، لأنّنا سنمضي عيد الفصح في « أوفرني » .

ـ في «أوفرني» ؟ لتأكلك البراغيث والحشرات . فليكن الله معك !

وبعد صمت :

ـ لو قلت لنا على الأقلّ ، كنّا قد ذهبنا معاً ضمن شروط

أكثر ملاءمة .
كما لو كان أحد « المؤمنين » لديه صديق ، أو « شخص يتردّد عليه » ، أو حبيب ، حيث بإمكانه أن يجعل « المؤمن » يهجر بعض المرّات ال «فردوران» ، الذين ماكانوا يخشون من امرأة ما لديها عشيق ، شرط أن يتواجدهذاالعشيق ، عندهم ، بحيث تعشقه المرأة ، من خلالهم ، ودون أن تفضّله عليهم ، قال آل «فردوران» : « فليكن ليأتِ صديقكَ » . كانوا يختبرونه ، ليروا إذا كان بإمكانه أن لا يخفي سراً على السيّدة « فردوران » ، وإذا كان باستطاعته أيضاً أن ينضم إلى «العشيرةالصغيرة» . وإذا لم يكن كلّ ذلك متوفراً ، كانوا ينفردون بـ«المؤمن» الذي أتى به إلى منزلهم ، ويؤدّون له « خدمة » تقضي بأن يفسد علاقته بصديقه أو بعشيقته . أمّا إذا كان « الجديد » عكس ذلك ، فانّه يتحوّل بدوره إلى مؤمن مثل غيره . من خلال ذلك ، فقد أخبرت سيّدة المجتمع الوسط السيّد « فردوران » أنّها قد تعرّفت على رجل لطيف ، هو السيد « سوان » ، وأوحت له بأنّه سيكون سعيداً إذا استقبلوه في منزلهم . وقد حوّل السيّد « فردوران » ، على الفور ، الطلب إلى زوجته . (لم يكن له أي رأيٍ على الإطلاق إلاّ بعد رأي زوجته ، التي كان دورها الأهم أن تحقّق جميع الرغبات ، وأيضاً رغبات المؤمنين ، بشكل مبتكر) .
ـ ها هي السيدة « دوكريسي » ، لديها شيء تطلبه منكِ . إنّها ترغب بأن تقدّم إليكِ أحد أصدقائها ، السيّد « سوان » . ماذا تقولين ؟
ـ هل تشكّ بذلك ؟ هل بإمكان أحد أن يرفض شيئاً ما

لشخص رائع ؟ . . . أصمتي ، إنّنا لم نطلب رأيك ، أقول لك إنّك رائعة .

ـ فليكن ، أجابت «أوديت» بلهجة خفيفة ، وتابعت : تعرفون أنّني لم أبحث أبداً عن أي ثناء .

ـ فليكن ! أحضري صديقك ، إذا كان لطيفاً .

أكيداً ، لم تكن لـ« النواة الصغيرة » أية صلة بالمجتمع الذي كان يعاشره « سوان » . شخصيات إجتماعية بارزة كانت قد وجدت أنّه ليس ضرورياًأن تشغل مركزاًاستثنائياًكمركزه في هذا المجتمع لتدخل بدورهامجتمع آل«فردوران» . ولكن«سوان»كان يحبّ النساء لدرجة أنّه منذ اليوم الذي كان قد تعرّف تقريباً على كل نساء الوَسَط الأرستقراطي ، لم يبق أي شيء يعلّمنه إيّاه ، ولم يكن بحاجة إلى الأوراق التي تشير إلى هويته ، وهي من نوع أوراق الإعتماد في مجتمعه الراقي ، اكتسبها من خلال سُكناه في « فوبور سان جرمان » ، وهو قد يحتاجها فقط كنوع من أوراق الاعتماد ولكن دون أية قيمة بحدّ ذاتها . كانت تسمح له مثلاً بأن يجد مركزاً في أية قرية صغيرة أو في أي مجتمع مجهول في باريس ، حيث توجد إحدى فتيات من طبقة النبلاء الصغار أو إبنة كاتب محكمة أوْحَتَا به بأنهما حلوتان . لأنَّ الشهوة أو الحبّ كانا يعكسان عليه شعوراً من الغرور كان يفتقده بفعل تجاربه في الحياة (بالرغم من أنَّ هذا الغرور ، دون شك ، كان في السابق السبب الذي قاده باتجاه ممارسته الإجتماعية إيّاها ، حيث بدّد مواهبه الفكرية في الملذّات التافهة ، مستخدماً كفاءاته لتوجيه سيّدات المجتمع ،

فنياً ، لشراء بعض اللوحات ولتأثيث منازلهم الفخمة) . شعور الغرور هذا ، وقد كان يغريه بالبروز ، بنظر مجهولة ما كان قد أعجب بها ، متألقة ليس من خلال إسم « سوان » فقط ، بلى من خلال نفسها . رغبته بالبروز أيضاً ، كان يريدها ، بنوع خاص ، إذا كانت المجهولة تلك من مستوى بسيط . بالمقارنة ، ليس بنظر رجل ذكي آخر أنَّ رجلاً ذكياً قد يخاف أن يظهر غبيّاً ، ليس بنظر سيّد كبير ، بل بنظر رجل فظّ أنَّ رجلاً أنيقاً يخشى أن يشهد أناقته منتقصة . بالمثل ، ثلاثة أرباع الجهد ، والكذب الناشىء عن الغرور ، اللذين بُذلا منذ بداية العالم من قِبَل الناس الذين يحقرهم هذا الشيء ، قد برزا بسبب وجود هذه الطبقة الحقيرة من الناس . «سوان» ، الذي كان بسيطاًومهملاً مع إحدى الدوقات ، كان يخشى أن يُحتقر ، فيلجأ إلى افتعال الحركات أمام وصيفة أوخادمة مثلاً .

لم يكن مثل الكثيرين ، الذين ، بسبب البلادةأوبسبب شعور الاستسلام للواجب ، حيث يولّده لهم مركزهم الاجتماعي ، عليهم أن يظلّوامرتبطين بنمط معين من الحياةحيث يتنازلون عن تحقيق الملذّات التي يعرضهالهم الواقع خارج وضعهم الاجتماعي ، الذي يحجزهم حتى موتهم ، متوصّلين إلى تسمية ملذّات ، بسبب عجزهم عن تحقيق شيء أفضل ، وبعد أن يعتادوا عليها ، لهواً تافهاً أو مللاً معقولاً تضمّه . لم يكن « سوان » يبحث عن جمال النساء اللواتي كان يمضي وقته معهنّ ، كان همّه أن يمضي وقته مع النساء اللواتي كان يجدهن جميلات من قبل . وغالباً ما كان جمال هذا النوع من النساء شعبيا . لأنَّ الصفات الخارجية التي كان يبحث عنها ، دون

أن يدري ، كانت متناقضة كلياً مع الصفات التي تجعله يُعجب بالنساء المنحوتات أو المرسومات بأيدي معلّمي النحت والرسم الكبار المفضّلين لديه . العمق ، التعبير الكئيب ، كانا يجمّدان إحساساته ، التي ، بالعكس ، كان يكفي ليفجّرها جَسَد مكتنز بلون الزهر .

خلال سَفَره ، إذا كان يصادف عائلة ، من الأفضل له أن لا يسعى إلى معرفتها ، ولكن إذا تمايلت ، في هذه العائلة ، امرأة أمام عينيه ، تسوّرها جاذبية لم تمسّه من قبل ، يبقى « على تحفّظه » ، مضلّلاً المتعة التي تولّدها تلك المرأة فيه ، مستبدلاً إيّاها بأخرى قد يجدها معها ، مراسلاً عشيقة قديمة يدعوها لتأتي لمقابلته ، كأنّه يبدي لذاته استسلاماً ظاهراً تجاه الحياة ، وزهداً سخيفاً بسعادة جديدة مُحتملة ، كأنّه ، عوضاً عن أن يزور البلد ، يبقى قابعاً في غرفته متأملاً مناظر من باريس . إنّه لا ينغلق على تشابك علاقاته ، ولكنّه يبنيها على أسس جديدة ، في كل مرة تعجبه امرأة جديدة ، كأنّ هذا البناء خيمة تتفكك يحملها الرحّالة معهم أينما ذهبوا . إذا لم يكن باستطاعتك أن تنقل أو تستبدل شيئاً ما في هذا البناء بمتعة جديدة ، كان يتنازل عنه دون مقابل ، حتى إذا انعكس هذا الشيء عليه حَسَداً من الآخرين . كم من المرّات ، كان رصيده أمام إحدى الدوقات ، والمكوّن من إرادة الدوقة التي كانت تتكاثر داخل ذاتها منذ سنوات ، بحيث كانت تودّ أن تبدي إعجابها به دون أن تجد المناسبة لذلك . لقد تخلّى عن هذا الرصيد ، دفعة واحدة ، بطلبه من الدوقة بواسطة برقية صريحة ،

وساطة لتعرفه فوراً على أحد المسؤولين لديها ، حيث كان قد أعجب بابنته في القرية ، كما يفعل جائع : يستبدل قطعة الالماس بأخرى من الخبز ! وحتى بعد أن يفعل هذا الشيء ، كان يشعر بمتعة ، لأنه يحمل داخل نفسه نوعاً من الفظاظة يعوّضها ، نادراً ، بشيء من الرقّة . لأنّه ، كان من نوعية الرجال الأذكياء المحترفي البطالة ، يبحث عن عزاء وربّما عن عذر بفكرة أنّ هذه البطالةتقدّم لذكائهم أشياءتستحق الاهتمام، بقدر ما هو مهم الفنّ أو الدراسة ، وأن « الحياة » تحوي حالات أكثر اهمّية ، أكثر رومنسية من كلّ الروايات . كان يؤكّد هذا الشيء مقنعاً ، من خلاله ، على الأقلّ ، أرقّ أصدقائه في المجتمع وأنبلهم ، بالأخصّ ، كان يؤكدهله البارون شارل » الذي كان يمتعه بسرد مغامراته اللاذعة التي كان يمر بها كمقابلته مثلاً لامرأة في القطارأتى بها إلى منزله في ما بعد ،.حيث اكتشف بأنّها شقيقة لملك كان يمسك بيديه ، في ذلك الوقت بالذات ، بجميع الخيوط المتشابكة للسياسة الأوروبية كلّها . وهكذا كان يتعرّف على السياسة تلك بهذه الصورة المغرية ، أو كما إذا كان انتخاب البابا يتوقف على مقدرته ، هو بالذات ، في أن يصبح أو لا يصبح عشيقاً للطاهية !

على كلّ حال ، لم تكن فقط الكتيبة اللامعة المكوّنة من سيّدات المجتمع النبيل ، الفاضلات والمتقدّمات في السنّ ، والجنرالات ، والأكاديميين ، الذي كان بصورة خاصة على علاقة بهم ، والذي كان « سوان » يجبرهم بوقاحة ساخرة على أن يتحوّلوا إلى وسطاء وسماسرة . فجميع أصدقائه كانوا معتادين أن

يتلقوا ، من وقت إلى آخر ، رسائل منه ، يطلب عبرها توصية أو علاقة ما بشخص معيّن ، بأسلوب ديبلوماسي حاذق ، يستمرّ من خلال المغامرات المتتابعة والأسباب المختلفة ، والذي كان استمرار هذا الأسلوب يفضحه أكثر ممّا تفضحه عدم اللباقة ، أو طبع ثابت أو أهداف متشابهة . مرّات كثيرة ، كنتُ أطلب أن يخبروني ، بعد مرور عدّة سنوات ، عندما بدأت أهتم بطبعه بسبب الشَبَه بينه وبين طبعي ، وذلك من خلال اتجاهات عديدة ، أنّه عندما كان يراسل جدّي (الذي لم يكن قد أصبح جدّي بعد ، لأنّ زمن مولدي ، تقريباً ، بدأت علاقة « سوان » الكبيرة . وكانت الممارسات التي ذكرناها قد توقفت لفترة طويلة) . وهو ، عندما كان يكتشف خطّ صديقه على الظرف ، كان يصرخ : « ها هو « سوان » الذي سيطلب شيئاً : إحذروا ! » من خلال الحَذَر ، أو من خلال الشعور الباطني الشيطاني الذي يدفعنا أن لا نقدّم شيئاً إلاّ للناس الذين ، هم أساساً ، لا يرغبونه ، كان جدّاي يعارضان ، بصورة مطلقة ، الطلبات الأكثر سهولة التي كان يوجّهها إليهم . كأن يعرّفاه مثلاً على فتاة تتناول طعام العشاء في منزلها كلّ أيّام الآحاد . وكانا يضطّران ، كلّما فاتحهما مجدّداً بهذا الموضوع ، أن يظهرا بمظهر من لا علم له في الأمر ، في وقت كنّا نفكّر جميعنا بمن سندعو معها ، وفي أكثر الأوقات لم نكن نجد أحداً ، رغم أنّه كانت تكفي إشارة واحدة للشخص بالذات الذي سيكون سعيداً جداً بالدعوة .

بعض المرّات ، زوجان صديقان لجدّاي ، واللذان كانا ،

حتى الآن ، يشكوان من عدم رؤيتهما « سوان » ، كانا يخبران جدّاي ببهجة ، ونوعاً ما ، ليثيرا رغبتهما ، أنّه قد أصبح الأكثر لطفاً بالنسبة إليهما ، وأنّه ، منذ الآن ، لن يغادرهما أبدا . جدّي لم يكن يريد أن يعكّر سرورهما ولكنّه كان ينظر إلى جدّتي مدندناً :

ما هو هذا السّر ؟

لم أستطع أن أفهم شيئاً .

أو :

صورة عابرة . . .

أو :

بهذه الأشياء .

ـ الأفضل أن لا يرى أحد شيئا .

بعد عدّة أشهر ، إذا كان جدّي يسأل صديق « سوان » الجديد : « و « سوان » ، هل ما زلت تراه باستمرار ؟ » وجه المخاطب يستطيل : « لا تتلّفظ باسمه أبداً أمامي ! ـ ولكن كنت أعتقد بأنّكما مرتبطان ببعضكما البعض كثيرا . . . » كان هذا في وقت لايتجاوز الأشهر العدّة، الذي كان خلاله «سوان» صديقاً لأبناءعم جدّتي ويتناول طعام العشاءيومياًعندهم. فجأة، توقّف عن المجيء دون سابق إنذار . لقد ظنّوه مريضاً ، وابنة عمّة جدّتي كانت تطمئن عليه ، عندما عثرت على رسالة منه في غرفة الخادمة ، منسية سهواً ، في دفتر حسابات الطاهية . يقول في الرسالة أنّه سيغادر باريس ، ولن يستطيع أن يأتي ليقابلها . كانت عشيقته ، وفي الوقت الذي كان سيقطع أية علاقة بها ، رأى أنه

من الضروري أن يعلمها وحدها بالأمر .

بالعكس ، عندما تكون عشيقته الحالية من الوَسَط الإجتماعي ، أو على الأقلّ ، شخصاً ذا أصل وضيع جداً أو بوضع غير شرعي ، لم يكن ذلك ليمنعه من إدخالها في المجتمع ، وكان يعود من أجلها إلى المجتمع ، ولكن فقط من خلال إطار خاص تكون فيه ، أو من خلال الإطار الذي يكون قد وضعها داخله . « لا أمل في الاتكّال على « سوان » لهذا المساء ، كانوا يقولون . تعلمون جيداً أن هذا اليوم هو يوم الأوبرا لصديقته الأميركية » . كان يجعلها تُدعى إلى الصالونات الحميمة حيث مكان عاداته ، عشاءاته الأسبوعية ، وسهرات القمار ، كل مساء ، بعد أن ينفّش شعره القصير الأصهب ، ويخفّف ، بقليل من النعومة ، حيوية عينيه الخضراوين ، ينصرف إلى اختيار زهرة لعروته ويخفّ لمقابلة عشيقته ليتناولا العشاء عند هذه أو تلك النساء من جماعته ؛ وحينئذٍ ، مفكّراً بإعجاب وبصداقة الناس العصريين الذين كان يفعل من أجلهم كلّ ما يروقه ، وحيث سيجتمع بهم هنا ، وسيمنحونه إعجابهم أمام المرأة التي قد يحبّها . وكان ، باستمرار ، يجد لذّة في هذه الحياة الإجتماعية التي كان قد ملّها ، ولكن مادتّها ، منبثقة وملّونة بحرارة من شعلة خفيّة تحييها ، وتوحي له بأنّها ثمينة وجميلة منذ أن أدخل إليها حبّاً جديدا . ولكن ، في وقت أنّ كل واحدة من علاقاته ، أو من مغازلاته ، كانت تحقّق نوعاً ما ، بصورة كلية ، حلماً قد ولد من رؤ ية وجه أو جَسَد قد وجدهما « سوان » ، جذّابين ، بصورة مفاجئة ، بدون أدنى عناء . من

جهة أخرى ، في يوم مضى ، عرّفه أحد أصدقائه القدامى ، على « أوديت دوكريسي » في أحد المسارح ، وقد وصفها أمامه بأنّها سيّدة رائعة ، وربما توصّل معها إلى تحقيق شيء ما .وإذ يظهرها له بأنّها أصعب ممّا هي عليه في الواقع ، ذلك لكي يظهر ، في الوقت نفسه ، أنّه قدّم شيئاً مهماً إليه ، من خلال معرفتها له .

وكانت « أوديت » قد تراءت لـ « سوان » ، ليس بالتأكيد دون جمال ، ولكن على نوع من الجمال الذي كان « سوان » لا يكترث به ، ولا يوحي له أيضاً بأية شهوة ، بل بالعكس كان يشعر تجاهه بنوع من الرفض الجسدي . هذا النوع من النساء متوافر لدى كل الناس ، وهو يختلف بالنسبة لكل إنسان ، وهو بعكس النوع الذي يتطلّبه إحساسنا . بنظره ، كانت تكاوين وجهها الجانبية مرسومة بدقّة مبالغ فيها : جلدتها ناعمة جداً ، وجنتاها نافرتان ، تقاطيع وجهها مشدودة كثيراً . عيناها كانتا جميلتين ولكنهما كانتا كبيرتين لدرجة أنهما كانتا تتقوّصان من شدة ثقلهما ، يتعبان ما تبقى من وجهها ويُظهرانها كأنّها في حالة تعب مستمرّ أو كأن مزاجها مضطرب بشكل دائم . بعد مدة قصيرة من تعرفها عليه في المسرح ، كتبت له طالبة منه أن تتفرج على مجموعته التي تهمها كثيراً ، « هي الجاهلة التي تتذوّق الأشياء الجميلة »، قائلة انها قد تعرفه بصورة أفضل عندما ستراه في « منزله » حيث كانت تتخيّله « مرتاحاً جداً وسط كتبه وكوب من الشاي » ، بالرغم من أنّها لم تكن تخفي عليه استغرابها لسُكناه ذاك الحي الذي يتهيأ لها بأنه غارق في الحزن و « الذي كان على نسبة ضئيلة من الترف لا تليق

بشخص يتمتع بأناقة طاغية مثل « سوان » » . وبعد أن تركها تأتي إليه ، وخلال لحظة مغادرتها ، عبرت عن أسفها لمكوثها مدة قصيرة في هذا المنزل حيث كانت سعيدة جداً لدخولها إليه . كانت تتحدّث عن « سوان » كأنه كان بالنسبة إليها أكثر أهمية من جميع الآخرين الذين تعرفهم ، وكأنها تريد أن توجد بين شخصيهما نوعاً من الخطّ الرومنسي الذي يوحّدهما ، وقد رسمت تخيلاتها تلك ابتسامة على وجهها . ولكن في العمر الخالي من جميع الأوهام ، الذي كان قد توصّل إليه « سوان » ، وحيث نكتفي بأن نعشق للذّة فقط دون أن نتطلب مبادلة بالمثل . تَقَرُّب القلوب هذا ، إذا لم يكن مثلما كان في بداية صبانا الهدف الذي يتجه إليه الحب بالضرورة ، عوضاً عن ذلك يكون قد التصق به بسبب تآلف الأفكار الذي قد يجوز أن يسبّب ، هو بالذات ، تقارب القلوب ، إذا انوجد قبله . فيما مضى ، كنّا نحلم بامتلاك قلب المرأة التي كنا نحبّها ، في ما بعد ، الاحساس فقط بأنّك تملك قلب امرأة ما يكفي أن يجعلك قد تعشقها . هكذا في العمر الذي يتهيأ لك ، حيث تبحث بالأخص في الحب عن لذّة خاصة ، وحيث الجزء الأكثر أهمية هو أن تتذوّق جمال المرأة . الحب قد يولد ـ الحب الجسدي جداً ـ دون أن يكون قد حدث بالفعل ، بأساسه ، شهوة مسبقة . في هذه المرحلة من الحياة ، نكون قد واجهنا الحبّ مرات عديدة ؛ لا يعود الحبّ يتطوّر من تلقاء نفسه ملتزماً فقط قوانينه الخاصة المجهولة والقدرية ، أمام قلبنا المستغرب وغير المبالي . نساعده ، ونخدعه قليلاً من خلال ذكرياتنا ، ومن خلال

تصوّراتنا . عندما نتعرّف على إحدى دلائله ، نتذكّر أن نحيي الآخرين مجدداً. كماأننانمتلك أغنيته، محفورة فينابكاملها، ولسنا بحاجةأن تعلن لنا امرأةماعن بدايةالأغنية ـ ممتلئين بالاعجاب الذي يوحيه لنا الجمال ـ لنجد البقية . وإذا بدأت الأغنية من نصفها ـ حيث القلوب تتقارب ،وحيث نتحدث عن أنّه لا وجود لنا خارج بعضنا ـ معتادين كفاية على هذه الموسيقى لننضم فوراً إلى رفيقنا في المقطع الذي تنتظر خلاله الموسيقى .

«أوديت دوكريسي » عادت لزيارة « سوان » ، وقرّبت موعد زياراتها ، ودون شك ، كلّ زيارة كانت بالنسبة لِـ « سوان » تجدّد خيبته التي كان يشعرها حيث يجد ذاته أمام هذا الوجه الذي قد نسي قليلاً بعض خصائصه بين مسافات الزيارات ، والذي لم يكن ليتذكّره غير معبّرٍ لهذه الدرجة ، وليس ، بالرغم من صباها ، ذابلاً إلى هذا الحدّ . كان يتحسّر ، عندما كان يتحدّث معها ، على أنّ جمالها الأخّاذ لم يكن من نوع جمال النساء اللواتي كان يفضلهنّ على الفور . يجب الاقرار ، على كلّ حال ،بأنّ وجه « أوديت » كان يظهر أكثر نحولاً وأكثر نتوءاً لأنّ الجبين وأعالي الخدّين ، هذه المساحة الموحّدة والمسطّحة ، كانت مغطّاة بكثافة الشعر الذي كان شائعاً أن يكون طويلاً من « الأمام » ، و« منفّشاً »في أعالي الرأس ، وموزّعاً إلى خصلات ، بشكل عشوائي فوق الأذنين ؛ أمّا جسدها المشغول بدّقة ، كان صعباً أن تستوعبه بكامله (بسبب موضة العصر ، بالرغم من أنّها كانت بين نساء باريس من أكثرهنّ أناقة) ، من شدّة أن صدر الفستان ،

كان نافراً كما على بطن خيالي والذي ينتهي فجأة مروّساً حيث تبدأ التنانير المزدوجة بالانتفاخ من تحت ، لتوحي بأن المرأة تتكوّن من أجزاء عديدة مختلفة وغير متناسق بعضها مع البعض الآخر، خلايا القطب، الكشاكش، والصدرية، كانت تبدومتتابعة ولكن باستقلالية تامة ، حسب ابتكار رسمتها أو نوعية قماشتها . الخطّ الذي كان يوصلها إلى العُقَد ، إلى أماكن التخريم ، إلى الخرز الأسود الملزوز إلى بعضه البعض بصورة مستطيلة ، أو الذي كان يقوده باتجاه الصدر . لم تكن لتتصل إطلاقاً بالجَسَد الحيّ، الذي، حسب رسمة كلّ هذه التفاصيل التي يتألف منها الفستان ، كانت تقرّب أو تُبعد كثيراً منها ، وهذه التفاصيل التي يضمها الفستان ، كانت متقاربة أو عشوائية حسب الظرف .

عندما غادرته « أوديت » ، كان « سوان » يبتسم وهو يفكّر كيف سألته كم سيستغرق الوقت الذي سيسمح لها خلاله بالعودة ثانية إليه ، كان يتذكّر شكلها المضطّرب والخجول الذي تجمّع على وجهها عندما توسّلته مرة أن لا تكون المدة طويلة . نظراتها في ذلك الوقت بالذات، كانت مسمّرة عليه بخوف ورجاء، بحيث تجعلك تتأثر لمنظرها تحت باقة البنفسج الاصطناعي المركّزة أمام قبعتها المستديرة المصنوعة من القشّ الأبيض ، ذات العُرى من المخمل الأسود . « وأنت ، قالت له ، ألن تأتي مرّة إلى منزلي لتناول الشاي ؟» تهرّب قائلاً بأن لديه عملاً ، دراسة ـ بالحقيقة كان قد أهمل هذه الدراسة منذ سنوات ـ عن « ڤير مير دودلفت » . «أفهم أنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء ، أنا ، ضعيفة ، بالنسبة إلى

علماء كبار أمثالكم ، أجابته . سأكون مثل الضفدعة أمام مجمع الفلاسفة . مع أنني أتمنى كثيراً أن اتعلّم . أعرف أن أكون مطّلعة . كم سيكون ممتعاً أن أبحث في الكتب ، أن احشر انفي داخل الأوراق القديمة ! » أضافت بصورة إنسان مسرور من ذاته تأخذه امرأة أنيقة لتؤكد أنَّ فرحتها هي أن تقدّم نفسها دون الخوف من الاتّساخ في عمل قذر ، مثلما تحضّر الطعام هي بنفسها « أن تضع يديها في العجين » . « ستسخر مني ، هذا الرسّام الذي يمنعك عن مقابلتي (كانت تعني « فيرمير ») . لم أكن أسمع به أبداً من قبل ، هل ما يزال على قيد الحياة ؟ هل بامكاننا أن نشاهد بعضاً من أعماله في باريس ، لكي ألمس بنفسي ماذا تحبّ ، ولكي أحذر قليلاً ماذا يوجد تحت هذا الجبين العريض الذي يعمل كثيراً . في هذا الرأس الذي نشعر بأنّه في تفكير مستمر ، عندئذٍ أقول لنفسي : أخيراً اكتشفت أنّه يفكّر بذلك . أي حلم لي أن أكون مندمجة بأعمالك ! » كان قد اعتذر عن خشيته من الصداقات الجديدة ، وهذا ما سمّاه ، احتراماً ، خوفاً من أن يكون تعيساً . « هل تخاف من الحنان ؟ كم هذا مضحك ، أنا لاأبحث سوى عن هذا الشيء ، حيث أقدّم حياتي لأحظى بتلك العاطفة . قالت بصوت طبيعي جداً ، ومقنع جداً ، جعله يشعر معها . لقد تعذّبت من امرأة ما ، وتعتقد أن كلّ النساء يشبهنها . لم تستطع أن تفهمك ، إنّك إنسان مميّز جداً . هذا ما أحببته فيك منذ بداية علاقتنا ، أحسست جداً بأنّك لم تكن مثل باقي الناس .

ـ على كلّ حال ، أنتِ أيضاً ، قال لها . أعرف جيّداً من هنّ النساء . قد تكون لديك مشاغل كثيرة ، وقليل من الحرّية .

ـ أنا ليس عندي شيء أفعله ! إنني دائماً حرّة ، وسأكون دائماً بتصرّفك . في أية ساعة في الليل أو في النهار ، حيث يسهل عليك أن تراني . أرسل بطلبي ، وسأكون سعيدة جداً بأن أسرع إليك . هل تفعل ذلك ؟ هل تعرف ما الذي سيكون رائعاً جداً ؟ هو أن أعرّفك على السيّدة « ڤردوران » حيث أذهب إلى عندها كلّ مساء . تصوّر ! لو كنّا نتقابل هناك وتجعلني أفكّر بأنّك تأتي من أجلي ! وبدون شك ، حين كان يتذكّر حوارهما ، وهو يفكّر فيها ، عندمايكون وحيداً ، كان فقط يستعرض صورتهامن بين مجموعةصور لنساء غيرها ، من خلال أحلام ورؤى رومنسية ؛ ولكن ، إذا كان من خلال ظرفٍ ما ، (وحتى ، دون أن يكون من خلاله ، هذا الظرف الذي ينوجد في الوقت الذي يكون في حالة نفسية مستترة ، تنكشف من ثَمَّ ليجد أنّها لم تؤثر إطلاقاً على هذا الظرف) ، صورة« أوديت دوكريسي »، قدشغلت كلّ أحلامه ، وإذا لم يعد يستطيع أن يفصل هذه الأحلام عن تذكّره ، عندئذٍ ، لا تعودتهم أبداً عيوب جسدها ، حتى إذا كان هذا الجسد ، أكثر أو أقل أناقة من أي جسد آخر ، حسب ذوق « سوان » ، حيث يصير جسد المرأة التي يعشقها ، منذ هذه اللحظة ، الوحيد الذي سيوفّر لها الملذّات والآلام .

كان جدّي قد عرف ما لم يكن باستطاعتنا أن نقوله عن أصدقائهم ، أي عائلة « آل ڤردوران » . ولكنّه كان قد فقد كلّ علاقة مع الذي كان يسمّيه « ڤردوران الشاب » ، وكان يعتبره

ساقطاً بصورة عامة ـ بالرغم من أنّه ما زال يملك بعض الملايين ـ في التشرّد ومن رعاع القوم . في أحد الأيّام تلقى جدّي رسالة من « سوان » يطلب فيها إذا كان باستطاعته أن يعرّفه على « آل ڤردوران » : « إحذروا ! إحذروا ! صرخ جدّي ، لن أستغرب إطلاقاً . ها هنا كان سيسقط « سوان » . مجتمع جميل فعلاً ! أولاً ، ليس باستطاعتي أن أفعل ما يطلبه مني ، لأنني لا أعرف أبداً السيّد « ڤردوران » . وأيضاً ، هذا الشيء قد يخبّىء حكاية امرأة . لن أتدخّل بمثل هذه القصص . هيّا ! لدينا مفاجآت ، إذا تلبّس « سوان » هؤلاء «الڤردوران الصغار » .

بعد هذا الردّ السلبي من قِبل جدّي ، برزت « أوديت » التي جاءت بنفسها مع « سوان » إلى منزل « آل ڤردوران » .

« آل ڤردوران » ، كان عندهم على العشاء ، في اليوم الذي زارهم فيه « سوان » لأوّل مرّة ، الدكتور والسيدة « كوتار » ، عازف البيانو الشاب وعمّته ، والرسّام الذي كان مفضلاً لديهم في تلك الفترة ، بالإضافة إلى عدد من المؤمنين انضمّوا إليهم في تلك السهرة .

لم يكن الدكتور « كوتار » يعرف أبداً بصورة أكيدة كيف كان عليه أن يردّ على أحد ، إذا كان محدّثه مرحاً أو رصينا . وبالصدفة ، كان يضيف على تعابير وجهه ابتسامة صارمة ومؤقتة ، حيث براعة ترقّبها ، تنجيه من اقترابه إلى السذاجة ، إذا كان الحديث الذي يوجّه إليه فَكِهاً . ولكن ، ليواجه افتراضاً بالعكس ، لم يكن يجرؤ على أن يجعل ابتسامته هذه ترسّخ على

وجهه . كنت تلمح على وجهه نوعاً من الحيرة حيث يمكنك أن تقرأ السؤال الذي لا يجرؤ أن يتلفّظ به : « هل أنت جدّي ؟ » ولم تكن لديه ثقة أكبر بكيفية تصرّفه في الشارع ، وحتى بشكل عام في الحياة ، ممّا كان عليه في الصالونات . وكنت تراه يواجه المارّة ، السيّارات ، الأحداث ، بابتسامة ساخرة ، ليغطّي الأشياء التي لم يكن يستطيع أن يفهمها في السابق ، مبرهناً ، من خلال هذه الابتسامة ، حتى إذا لم تأتِ في وقتها ، وهو يعلم ذلك جيداً ، انه يستعملها بسبب روحه الساخرة .

غير أنّه ، على جميع الأصعدة ، عندما يواجه بسؤال صريح ، كان الدكتور « كوتار » يحجّم مجال شكه ويضاعف مجال معرفته . هكذا ، على أساس النصائح التي قدّمتها له أمّ بصيرة عندما غادر قريته ، لم يكن يترك تعبيراً أو اسم عَلَم يجهلها ، دون أن يبحث عن معرفتها .

بما يتعلّق بالتعبير ، كان متعطشاً دائماً إلى مزيد من المعلومات ، لأنّه كان يحمل التعبير ، بعض المرّات ، معنى أدق بكثير مما ينطوي عليه . كان يرغب أن يعرف جيداً معاني التعابير التي كانت تتردّد أمامه كثيرا : جمال الشيطان ، دمّ أزرق ، حياة عصاكرسي ، ربع ساعة « رابليه » ، أن تكون أمير الأناقات ، يختم على بياض ، أن يكون مجبراً إلخ . وفي أية حالة محدّدة ، كان يستطيع أن يستعمل هذه التعابير أثناء حديثه مع الناس . وإذا ما استطاع ، كان يستعمل مجموعة من الكلمات يتقنها جيدا . وفي ما يختصّ بأسماء العَلَم التي كانت تلفظ أمامه وهو يجهلها ، كان

يكتفي بأن يردّد هذه الأسماء بلهجة إستفهامية يعتقد أنها كافية لتقدّم له تفسيرات لم يكن على استعداد للسؤال عنها .

بما أنّ روح النقد الذي يعتقد أنّه يمارسه على كلّ شيء ، كان ينقصه كلّياً ، كما كانت تعوزه كثيراً أيضاً شفافية التهذيب والشعور التي تتواجد لتؤكد لشخص تخدمه أنت ، دون أن تتمنّى فعلاً أن يصدّقك ، أنّه هو الذي يخدمنا ، كان مستحيلاً أن يدرك ذلك . يأخذ كلّ شيء بحرفيته دون أن يدرك أبعاد المعاني التي تحوي حقيقة هذا الشيء . مهما كان تغاضي السيّدة « فردوران » عنه ، فقد توصّلت ، برغم استمرارها في أن تجده راقياً ، إلى أن تنزعج عندما تلاحظ أنّها عندما كانت تدعوه إلى أولى حفلات « ساره برنار » ، قائلة له من شدّة رقّتها : « انّك لطيف جداً لأنّك أتيت ، يا دكتور ، بالأخصّ لأنني متأكدة من أنّك قد سمعت « ساره برنار » مراراً ، ويمكن أيضاً أنّنا كلنا قريبون من المسرح». الدكتور « كوتار » الذي كان قد دخل إلى المقصورة بابتسامة كانت تنتظر ، لتتوضّح أو لتختفي ، شخصاً آخر مختصاً يعلمه بأهمية العرض ، يردّ على السيّدة « فردوران »:«فعلاً ، إنّنا قريبون جداً ، ولقد بدأنا نشعر بالملَلَ من « ساره برنار » . ولكن ، لقد عبّرت لي عن رغبتكِ بحضوري . بالنسبة لي ، رغباتكِ أوامر . إنّني سعيد جداً أن أقدّم لك هذه الخدمة الصغيرة . ماذا نفعل لكي نعجبك ، إنّك طيّبة جداً ! » وأضاف: « «ساره برنار» هي الصوت الذهبي ، أليس كذلك ؟ لقد كتبوا مراراً قائلين إنّها تلهب الخشبة . إنّه تعبير غريب ، أليس كذلك ؟ » وقد تأمّل من

السيّدة « ڤردوران » بتعليق لم يأتِ .

« هل تعرف ، قالت السيّدة « ڤردوران » لزوجها ، أعتقد أنّنا نخطىء عندما ، بتواضع من قِبلنا ، نخفّف من أهمية ما نقدّمه للدكتور . إنّه عالم يعيش خارج الحياة العملية ، لن يدرك بنفسه قيمة الأشياء معتمداً على ما نقوله له عنها . ـ لم أكن أتجرّأ لأقول لكِ هذا الشيء ، ولكنّني كنت قد لاحظته » أجاب السيّد « ڤردوران » . في رأس السنة التالية ، عوضاً عن أن يرسلوا زمردة إلى الدكتور « كوتار » بقيمة ثلاثة آلاف فرنك قائلين له إنّ هذا يشكّل شيئاً بسيطاً جداً ، السيّد « ڤردوران » اشترى بقيمة ثلاثمائة فرنك فقط حجراً اصطناعياً موحياً له أنّه صعب جداً أن يجد أحد حجراً بهذا الجمال .

عندما أعلنت السيدة « ڤردوران » أنّ السيّد « سوان » سيكون حاضراً في السهرة : « سوان ؟ » صرخ الدكتور بلهجة جعلها الإستغراب تبدو عنيفة ، لأنّه كان يستغرب أيّ خبر أكثر من غيره . هذا الرجل الذي كان يعتقد نفسه أنّه يتقبّل كلّ شيء بسهولة . ولما رأى أن لا أحد يجيبه : « سوان ؟ من هذا « سوان » ! » صرخ بمنتهى القلق الذي اختفى فجأة عندما قالت السيّدة « ڤردوران » : « بل هو الصديق الذي كانت « أوديت » قد حدّثتنا عنه . ـ آه ! طيّب ، طيّب ، هذا جيد » ، أجاب الدكتور مطمئناً . لكنّ الرسّام ، كان منشرحاً من إدخال « سوان » منزل السيّدة « ڤردوران » ، لأنّه كان يظنّه عاشقاً لـ « أوديت » ، وكان يحب دائماً أن يسهّل العلاقات . « لا شيء يمتعني أكثر من مساهمتي في « الزيجات » ، أسرّ في أذن الدكتور « كوتار » . لقد نجحت في تحقيق الكثير منها وحتى بين النساء أيضاً ! » وأكدّ « لآل

فردوران » أن « سوان » كان « أنيقاً » جداً ، وكانت « أوديت » قد أخافتهم من أن يكون « مملاً » . ولكن ، بالعكس ، فقد كوّن لديهم انطباعاً ممتازاً ، الذي ، بدون شعور منهم ، وبسبب معاشرته للمجتمع الأنيق ، كان هذا الانطباع ، أحد الأسباب غير المباشرة للترحيب به . كان عنده ، فعلاً ، على الرجال حتى الأذكياء منهم الذين لم يختلطوا مرّة واحدة في المجتمع ، نوع من نقص التفوّق الذي يتمتع به عادة الذين يفعلون العكس ، وبسببه ، لم يعد مثل الذين يحوّلون المجتمع ، من خلال تخيّلاتهم ، إلى شهوة أو إلى كراهية . أمّا هؤلاء الذين هم في صلب المجتمع ، ومن ضمنهم «سوان » ، فلم يعيروا المجتمع أية أهمية زائدة . لطفهم ، بعيداً عن أية سنوبية ، وخوفاً من أن يظهروا غارقين في الرقّة ، أصبح مستقلاً . إلى جانب الارتياح ، هنالك رشاقة في حركات الذين أطرافهم ليّنة ، تؤدي بالتحديد ماذا يريدون ، دون تدخّل كلّ ما هو غير لائق وغير بارع من بقية أجزاء الجسد . بساطة حركات الرجل الإجتماعي ، وهو يمدّ يده ، بكل لطف ، إلى الشاب المجهول الذي يقدّم إليه ، وانحناؤه بتحفّظ أمام السفير الذي يقدّمونه إليه أيضاً ، كانا قد مرّا ، في حياة « سوان » ، بصورة غير مباشرة ، وذلك عبر سلوكه وتصرفاته الاجتماعية ، تجاه أناس من وسط اجتماعي دون وسطه ، مثلما « آل فردوران » وأصدقاؤهم . وقد برهن له هذا الشيء نوعاً من الاهتمام والتقرّب ، اللذين ، من خلال تفكيرهما ، لايستطيع إنسان مملّ أن يمارسهما . لم يكن لديه تحفّظ إلاّ تجاه الدكتور « كوتار » : عندما رآه يغمزه ويبتسم له بصورة

مشبوهة وقبل أن يتحدّثا مع بعضهما (هذه الحركة التي كان يسميها «كوتار»«معقولة») ، كان«سوان»يعتقد أن الدكتوريعرفه سابقاً دون شك ، حيث شاهده في أحد أماكن العربدة ، بالرغم من أن « سوان » قليلاً ما كان يتردّد إلى مثل هذه الأماكن ، ولم يعش أبداً في عالم كهذا . وقد وجد أن هذه الحركات لم تكن لائقة ، خاصة في حضور « أوديت » التي ، ربّما أخذت فكرة سيّئة عنه . لأجل هذا كلّه ، تمسّك بتحفّظه هذا . ولكن عندما علم بأنّ المرأة التي كانت بقربه هي السيّدة « كوتار » ، تراجع عن فكرته الأولى ، إذ ليس معقولاً أن زوجاً شاباً مثل الدكتور « كوتار » يُظهر ، أمام زوجته ، أنّه قد مارس هذا النوع من الملذّات ؛ وكفّ عن أن يعطي لحركات « كوتار » هذه المعنى الذي كان يرفضه. الرسّام دعا « سوان » على الفور ليأتي مع « أوديت » إلى محترفه ؛ « سوان » رآه لطيفا . « ربّما سيفضّلوك عليّ ، قالت السيّدة « فردوران » بلهجة تصطنع العتب ، وقد يجعلونك تشاهد رسم « كوتار » (وكانت قد طلبت من الفنان الشاب أن يرسم هذه اللوحة) . فكّر جيّداً ، «سيد» « بيش » ، ذكّرت الرسّام ، وكان من عادتها دائماً أن تقول سيّد على سبيل النكتة . فكّر جيّداً في كيف يجب أن تعبّر عن نظرته الحلوة ، عن اللمسات الرشيقة والساخرة في عينيه . تعلم جيّداً ماذا أريد بالتمام . هي ابتسامته ، ما طلبته منك ، هي رسم ابتسامته » . وإذ شَعرت بأن هذه العبارة قد أعجبتها ردّدتها بصوت مرتفع لتتأكّد من أن الكثيرين من المدعوين قد سمعوها كما أوجدت مبرّراً أيضاً التقرّب ، في البداية ، البعض الآخر . « سوان » طلب أن يتعرّف على جميع

الحاضرين ، وحتى على صديق قديم ، لِـ « آل فْردوران » ، « سانييت » ، حيث خجله ، بساطته وقلبه الطيّب كانت قد أضاعت أمام الجميع التقدير الزائد الذي كان قد اكتسبه من خلال كونه أميناً للمحفوظات ، وثروته الكبيرة ، والعائلة العريقة التي يتحدّر منها . إنّه يتميّز بلكنة عندما يتحدّث . لكنة جميلة ، لأنّ الآخرين كانوا يدركون بأنّها لم تكن خطأً لغوياً ، ولكنّها تعبّر عن صفة مميّزة في نفسه ، وكأنّها تمثّل ما تبقّى من براءة طفولية لم يفقدها . جميع الحروف الساكنة الذي لم يكن يستطيع أن يلفظها جيداً ، كانت تعبّر عن عدم تمكّنه من القيام بأي عمل فظّ . عندما طلب « سوان » أن يعرّفوه على السيّد « سانييت » ، شعرت السيّدة « ڤردوران » بأن هذا الدور قد أتى معكوساً (لدرجة أنّه ردّاً على هذا الطلب ، قالت وهي تدقّق بالفرق : « سيّد « سوان » ، هل تقبل بأن تسمح لي بتقديم صديقنا « سانييت » إليك ») . ولكن هذا الشيء أوحى لـ « سانييت » استلطافاً قوياً لم يوصله « آل ڤردوران » لـ « سوان » ، لأنّ « سانييت » كان يزعجهم قليلاً وهم غير متمسكين بأن يكون لديه أصدقاء . ولكن ، بالمقابل ، فقد أثر بهم « سوان » بشكل بارز عندما طلب منهم أن يعرّفوه على عمّة عازف البيانو على الفور . كانت ، كالعادة ، ترتدي الثوب الأسود ، لأنّها كانت تفكّر بأن اللباس الأسود هو لائق وأنيق بشكل مستمر . وجهها يتميّز بحمرة معيّنة كما في كل مرّة تنتهي من تناول الطعام . انحنت أمام « سوان » باحترام كبير ، ثم انتصبت بجلال . ربّما لأنّها لم تكن متعلّمة وتخشى أن تخطىء في اللغة الفرنسية ، كانت تلفظ عمداً بصورة غامضة ،

معتقدة، انهاإذاأخطأت، فقديصدر الخطأ عن شيء غامض بحيث لا يعود أحد يستطيع ان يتأكّد منه ، وحيث لم يكن حديثها سوى كلمات . ممزوجة بالسعال وغير مفهومة . من خلال كلّ هذه الأشياء ومن وقت إلى آخر ، كانت تنبت الألفاظ النادرة التي كانت أكيدة منها . كان « سوان » يعتقد أنّه يستطيع أن يهزأ منها قليلاً ويثرثر عليها أمام السيّد « ڤردوران » ، ولكن بالعكس ، فقد ظهر منزعجا .

« إنها امرأة رائعة جداً ، أجابه . صحيح أنّها ليست مذهلة ؛ ولكن أؤكّدلك أنّها ممتعة عندما تتحدّث لوحدك معها . ـ لا أشكّ بذلك سارع « سوان » للتسليم بكلام السيّد « ڤردوران » . كنت أريد أن أقول إنّها ليست « بارعة » ، تابع وهو يبرز هذه الصفة . وبالحقيقة ، إنّ هذا مدحاً ! ـ تفضّل ، قال السيّد « ڤردوران » ، إنّك ستتعجّب ، إنّها تكتب بشكل رائع . ألم تستمع أبداً إلى ابن أخيها ؟ هذا رائع ، أليس كذلك دكتور ؟ هل تريد أن أطلب منه أن يعزف شيئاً سيّد « سوان » ؟ ـ سيكون هذا سعادة . . . » ، كان يرد « سوان » ، عندما أوقفه الدكتور بشكل ساخر . بالفعل ، بما أنّه قد حفظ أنّه في حديث التفخيم ، لم يعد دارجاً إبراز الشكل الاحتفالي ، فلحظة كان يسمع كلمة مهمّة بلهجة رصينة ، مثلما قيل في كلمة « سعادة » ، كان يعتقد بأن الذي لفظ هذه الكلمة قد برهن على أنّه « برودومسك » ، يطلق كلمات رنّانة دون أن تعني شيئاً : وإذا كانت هذه الكلمة موجودةبعض المرات، بالصدفة، بماقد يسمّيه عبارةقديمةمبتذلة، ومهما

كان دارجاً استعمالها ، كان الدكتور يفترض أنَّ الجملة التي بدأت مثيرة للسخرية ، يكمّلها ساخراً بعبارة كان يظن أنّها متفق عليها سابقاً من المتكلّم ، الذي لا يكون قد فكّر بها أبداً .

ـ هذه سعادة لفرنسا ! صَرَخ ساخراً ، وهو يرفع ذراعيه إلى السماء بتعظيم .

السيّد « فردوران » لم يستطع أن يتمالك نفسه عن الضحك .

ـ ما بهم يضحكون ، كلّ هؤلاء الناس الطيّبين ؟ يبدو أنّه ليست لهم علاقة مع الكآبة في زاويتكم هناك ، صرخت السيّدة « فردوران ».كمالو كنتم تعتقدون بأنّني أتسلّى،هنا لوحدي ، كأنّني معاقبة ، تابعت بلهجة استياء طفولية .

كانت السيدة « فردوران » تجلس على مقعد سويدي مرتفع مصنوع من خشب السرواللماع، أهداه إليها عازف كمنجة سويدي،وكانت تتمسّك به كثيراً،بالرغم من أن شكله كان يشبه « سيبة » صغيرة ، ولم يكن منسجماً مع أثاثها القديم الجميل الذي تملكه ، ولكنّها كانت تحبّ أن تُبرز جميع الأشياء التي كان ، من عادة المؤمنين ، أن يقدّموها لها ، من وقت إلى آخر ، من أجل أن يبتهجوا بهداياهم ساعة يزورون « آل فردوران » . وكانت تحاول أقناعهم أيضاً بأن يكتفوا بتقديم الأزهار والحلويات ، التي تُستهلك ؛ ولكنّها لم تنجح . كان لديها عدد من المدافىء ، من المخدّات ، من ساعات الحائط ، من الحواجب ، من المضاغط ، من الأواني الصينية ، تضمّها مجموعة من المشتريات القديمة

بالإضافة إلى عدد من هدايا رأس السنة المتنافرة .

من خلال «مركزها» العالي ، كانت تشارك بحيوية في أحاديث المؤمنين وتبتهج لـ«طرائفهم» ، وقد جعلها الحادث الذي تعرّضت له في فكّها الأسفل ، أن تكفّ عن القهقهة التي استعاضت عنها بإيماءة متفق عليها ، والتي تعني ، دون أي تعب أو مخاطرة ، أنّها كانت تضحك حتى حدود البكاء لأقل كلمة كان يطلقها أحد الزائرين ضدّ شخص مزعج أو ضدّ زائر قديم أصبح في فريق المزعجين . ـ وقد يئس السيّد «فردوران» ، لأنّه كان يعتقد بأنّه لطيف بقدر ما هي زوجته ، ولكنه كان يضحك بملء فمه ويتعب بسرعة ، وكانت السيّدة «فردوران» قد سبقته وانتصرت عليه ، بالحيلة المستمرة الوهمية ، إياها ـ . كانت تصرخ قليلاً تغمض عينيها اللتين تشبهان عيون العصافير حيث تُغَلفان قليلاً بغشاوة ، وفجأة ، كأنّها تريد أن تتجانب على الفور رؤية منظر قبيح أو مميت ، تغرق وجهها بين يديها اللتين كانتا تغطّيه دون أن تدع جزءاً منه مكشوفاً ، كأنّها تريد أن تردع وتقضي على ضحكة ما ، لو أطلقتها ، لكانت قد أوصلتها إلى حدود الإغماء . هكذا ، مغتبطة بسرور المؤمنين ، سكرانة بالرفقة ، بالثرثرة ، بالرضى ، السيّدة «فردوران» مرتفعة في مجثمها ، مثل عصفور قد وُضعت زينته في نبيذ ساخن ، كانت تشهق من اللطف .

ولكن السيّد «فردوران» ، بعد أن استأذن «سوان» بإشعال غليونه («هنا لا ننزعج أبداً ، نحن بين أصدقاء») ، ألحّ على العازف الشاب بأن يجلس إلى البيانو .

ـ هيّا ، لا تزعجه ، إنّه ليس موجوداً هنا لتضايقوه ، صرخت السيّدة « ڤردوران » ، أنا لا أريد أن يضايقه أحد !

ـ ولكن لماذا تعتقدين بأنّ هذا الشيء يزعجه ! قال السيّد « ڤردوران » . السيّد « سوان » ربّما يجهل « السونات بِفَادييز » التياكتشفناها ، سيقوم العازف بترتيب عزفها على البيانو .

ـ آه ! كلا ، كلا ، ليست هذه « السونات » بالذات ، التي تخصّني ! صرخت السيّدة « ڤردوران » . ليست رغبتي ، من شدّة بكائي ، أن أصاب بالزكام مع آلام عصبية في الوجه ، مثل المرّة الماضية ؛ شكراً على هذه الهديّة ، لن أريد أن أعاود القصّة من جديد ؛ أنتم طيّبون ، شيء أكيد أنّكم لستم أنتم الذين ستمرضون ثمانية أيّام !

هذا المشهد الذي يتكرّر في كلّ مرّة كان الموسيقي الشاب سيعزف ، كان يمتع الأصدقاء كما لو أنهم يحيونه للمرّة الأولى ، وكان هذا الشيء برهاناً عن ابتكار « الرئيسة » الساحر وعن حساسيتها الموسيقية . الذين كانوا بقربها ، كانوا يلوّحون بأيديهم للذين كانوا أبعد بقليل يدخّنون أو يتسلّون بلعب الورق ، ليقتربوا ، لأنّ شيئاً ما سيحدث ، قائلين مثلما يحدث في « الريتشاغ »Reichstag في اللحظات المهمة : « إسمعوا ، إسمعوا » . وفي اليوم التالي كانوا يجعلون الغائبين يشعرون بالندم قائلين لهم بأن المشهد كان مسلياً أكثر من العادة .

ـ هكذا ! اتفقنا ، قال السيّد « ڤردوران » : سيعزف فقط « الاندنتي » ، أي المقطع البطيء من « السونات » .

ـ « الأندنتي » ، فقط ! صرخت السيدة « ڤردوران » . إنّه المقطع الذي يسحقني . إنّه حقاً رائع ، « الرئيس » ! كما كأنّه يعلن أنّنا لن نستمع في « التاسعة » لـ « بيتهوفن » إلا للنهاية ، أو لدى المؤلفين الكبار ، فقط للافتتاحية .

الدكتور ، بالرغم من ذلك ، حثّ السيّدة « ڤردوران » على جعل الموسيقي يعزف ، ليس لأنّه كان يعتقد بأن انعكاسات هذه الموسيقى بالذات عليها كانت مصطنعة ـ كان قد تحقّق بالفعل من بعض حالات « النوراستينيا » ، أي ضعف الأعصاب ، ولكن من عادات الكثير من الأطباء أن يخفّفوا على الفور من قساوة وصفتهم عندما يكون لديهم شيء أكثر أهمية كحفلة اجتماعية يحضرونها ، فينصحون خلالها الشخص بتناسي سوء الهضم أو الأنفلونزا ، لأنّ الحفلة هي أهمّ ما يشغلهم .

ـ سترين ، لن تكوني مريضة هذه المرة ، قال وهو يحاول أن يقنعها بنظره . وإذا مرضتِ ، سأعالجك .

ـ حقاً ؟ أجابت السيّدة « ڤردوران » ، وتجاه الأمل بهذه الرعاية فقد استسلمت للأمر . ويمكن أنّها بقدر ما تُردّد بأنّها ستمرض ، لم تعد تتذكّر أنّ ما تقوله كان كذباً ، حيث كانت ، أحياناً ، تبدو مريضة بالفعل . لهذا ، هؤلاء ، كانوا متعبين لأنّهم دائماً مجبرون على أن يتركوا نوباتهم النادرة تخضع لحكمتهم فقط ، ولذلك كانوا يحبّون أن يعتادوا على تصديق أنفسهم بأنّهم يستطيعون أن يفعلوا بدون معاقبة كلّ ما يبهجهم حتى الوَجَع ، كالعادة ، شرط أن يكونوا مستندين إلى شخص قدير ، الذي ،

دون أي جهد من قِبَلهم ، يشفيهم بكلمة أو بحبّة دواء .

« أوديت » اختارت أن تجلس على مقعد من الحرير المقصّب كان موجوداً بالقرب من البيانو :

ـ تعلمين ، لديّ مكاني الصغير ، قالت للسيدة « ڤردوران » .

السيّدة « ڤردوران » ، وقد شاهدت « سوان » يجلس على أحد المقاعد ، جعلته ينهض عنه :

ـ لست مرتاحاً هنا إذهب واجلس بالقرب من « أوديت » ، أليس هكذا يا « أوديت » ، ستفسحين مجالاً للسيّد « سوان » ؟

ـ ما هذا المقعد الجميل من « بوڤيه » ، قال « سوان » ، بلطف ، قبل أن يجلس .

ـ آه ! إنني مسرورة لأنك أُعجبت به ، أجابت السيّدة « ڤردوران » . وأبلغك سلفاً بأنّك لن تستطيع أن ترى مقعداً آخر بهذا الجمال . لم يصنعوا أبداً في « بوڤيه » شيئاً جميلاً مثله . الكراسي الصغيرة هي أيضاً رائعة . في ما بعد ستشاهد ذلك . كلّ رسمة برونز فيها تعبّر عن موضوع معيّن : هل تعرف ؟ لديك ما يسرّك إذا أردت أن تشاهدها . ستمضي وقتاً طيباً . فقط ، هذه التجعّدات في الأطراف ، أنظر هنا ، الكَرْمة ذات الخلفية الحمراء والعنب . ألا تبدوان كأنّهما مرسومتان ؟ ماذا تقول ، أعتقد أنّهم كانوا يعرفون جيّداً كيف يرسمون ! أليست شهيّة هذه الكرمة ؟ زوجي يعتقد بأنّني لا أحب الفاكهة لأنّني آكل أقل منه .

ولكن كلاّ . أنا شرهة أكثر منكم جميعاً ، ولكنّني لست بحاجة لادخالها في فمي ما دمت أمتّع نظري فيها . لماذا تضحكون كلّكم ؟ إسألوا الدكتور ، سيخبركم بأن هذا العنب يلينّ أمعائي . هنالك أشخاص يتبعون علاج « فونتينبلو » ، أنا أتبع علاج « بوفيه » . ولكن ، سيّد « سوان » ، لن ترحل قبل أن تلمس رسمات البرونز على ظهور الكراسي . أليس ناعماً الجنزار الذي يغلّفها ؟ ولكن كلا ، ألمسها جيداً بكامل يديك .

ـ آه ! إذا بدأت السيّدة « فردوران » بمداعبة رسمات البرونز ، فلن نسمع موسيقى هذا المساء ، قال الرسّام .

ـ أصمت ، إنّك ثقيل الدم . بالحقيقة ، قالت وهي تدور صوب « سوان » ، إنهم يحرموننا ، نحن النساء ، من أشياء أقلّ شهوة من هذه . ولكن لا يوجد جَسَد إنسان يساوي هذا البرونز ! عندما كان السيّد « فردوران » يشرّفني بغيرته مني ـ هيّا ، كن مهذّباً على الأقل ، لا تقل إنّ هذا الشيء لم يحدث ولا مرّة . . .

ـ لكن لم أقل أي شيء . أنظر يا دكتور ، إنني أعتبرك شاهداً : هل قلت شيئاً ؟

« سوان » كان يداعب البرونز مسايرة ، ولم يتجرّأ أن يتوقف على الفور .

ـ هيّا ! ستداعبها في ما بعد ، الآن ، سنداعبك أنت ، سنداعب أذنك ، أعتقد ، أنّك تحبّ ذلك ، ها هو شاب صغير سيحقّق هذه الرغبة .

ولما بدأ الموسيقي بالعزف ، ازداد لطف « سوان » تجاهه

أكثر مما هو مع الآخرين . سترون لماذا :

السنة الماضية ، وخلال إحدى السهرات ، كان قد استمع إلى عملٍ موسيقي عُزف على البيانو والكمان . في البداية . لم يتذوّق فقط سوى الخصائص التقنية للنغمات التي كانت تُخرجها الآلات الموسيقية . وقد كانت عندئذ متعة كبرى لديه عندما ، في أسفل خطّ الكمان ، الخطّ الرقيق ، المتين ، الكثيف والرئيسي ، رأى فجأة شيئاً ما كأنّه يخترق المسافات ليرتفع كحبّات الماء ، والذي لم يكن سوى ضخامة نغمات البيانو ، المتعدّدة الأشكال ، غير المجزأة ، المستوية ، والتي تتصادم وتتداخل ببعضها البعض مثل صخب الأمواج البنفسجية ؛ يسحرها ويكسر عنفها ضوء القمر الخجول . ولكن في لحظة ما ، دون أن يستطيع تحديد الجوّ ، أو يطلق اسماً على ما يعجبه ، ومنجذباً فجأة ، كان قد بحث ليعثر على العبارة الموسيقية ، أو على النغمات المتزاوجة ، لم يكن يعلم هوبالذات۔ التي كانت تعبر ، لتجعل نفسه تتفتّح كما روائح الورود المسافرة داخل هواء الليل الرطب ، التي تعبق بأنوفنا . كان يتكوّن لديه هذا الشعور ، ربما ، بسبب جهله للموسيقى ، وربّما أيضاً ، بسبب جهله هذا ، كـان شعوره الموسيقي صادقاً جداً ، هذا الشعور غير المحدّد كان أصيلاً بشكل كامل ، لا يخضع للتغيّر تحت تأثير أي شعور آخر . شعور من هذا النوع ، وفي لحظة ما ، تبرز استحالة لمسه . دون شكّ ، النغمات التي نسمعها عندئذٍ ، قد توصلنا ، بحسب ارتفاعها وحجمها ، إلى أن نغمر بأعيننا مساحات متعدّدة المسافات ، وأن تتراءى لنا

زخرفات عربيّة متعدّدة الأشكال ، وتجعلنا نشعر بنهاء داخلي ، بدقّة متناهية في التمييز ، باستقرار نفسي ، بأهواء متعدّدة . ولكن النغمات تختفي قبل أن يتجسّد هذا الشعور في ذواتنا كلياً ، وقد تستطيع أن تمنعنا من أن نشعر بنغمات أخرى ستأتي بعدها أو بالنغمات التي رافقتها . هذا الشعور قد يستمر في أن يغلّف بليونته وبـ « ذوبانه » الأفكار المجسّدة والغائمة التي تنبت فجأة ، لتفرق حالاً من ثم وتختفي بسرعة ، وهي مميّزة بلذّة خاصة تولّدها ، ومن المستحيل وصف هذه الأفكار ، تذكّرها ، تسميتها ، فهي فوق حدود التصوّر ـ ولو لم تبقَ الذكرى ، تصبح مثل عامل يبني أساساً صلباً وسط الأمواج ، مقدّماً لنا صورة طبق الأصل عن هذه الأفكار العابرة ، مفسحاً لنا في المجال أن نقارنها بالصور التي ستأتي بعدها ، لنميّز الفوارق بينها . هكذا ، بعد لحظات على غياب الشعور الممتع الذي كان قد أحسّ به « سوان » ، كانت ذاكرته قد نقلت له صورة موجزة ومؤقتة عنه . وكان قد تأمل هذه الصورة في الوقت الذي كانت تستمرّ فيه الموسيقى ، لدرجة أنّه ، عندما عاوده الشعور ذاته ، فجأة ، كان قد صار باستطاعته أن يلمسه . كان يتأمّل امتدادها ، المجموعات المتناسقة ، الخطوط ، القيمة التعبيرية ، كان أمامه هذا الشيء الذي لم يكن فقط من الموسيقى المطلقة ، بل هو رسم ، هندسة ، فكرة ، والذي كان يوحي لك الموسيقى . هذه المرة ، كان قد ميّز بوضوح جملةً ترتفع لبضع لحظات إلى ما فوق الموجات الرنّانة ، حيث قدّمت له على الفور نوعاً من الملذّات الخاصة ، التي لم تكن

تمرّ بذهنه قبل أن يستمع إليها ، وقد شعر بأن لا شيء سواها يجعله يحيا داخل هذا الشعور ، وكان قد أحسّ بنوع من الحبّ الخفيّ نحوها .

بإيقاع بطيء ، كانت توجّهه ، هنا أولاً ، ثم هناك ، ثم هنالك ، باتجاه سعادة نبيلة ، واضحة ودقيقة . وفجأة ، عند النقطة التي قد وصلت إليها ، حيث كان يستعدّ أن يتبعها ، بعد لحظة استرخاء ، تراها فجأة قد غيّرت اتجاهها ، وبحركة جديدة ، أكثر سرعة ، أصغر ، كئيبة ، مستمرّة وناعمة ، كانت تجذبه معها نحو أبعاد مجهولة ، ثم تتوارى . كان يتمنّى باشتهاء أن يحياها مرّة ثالثة . وقد عادت فعلاً ، ولكن دون أن تتحدّث معه بصورة أوضح ، وجعلته يشعر بلذّة أقلّ حضوراً من السابق . ولكن ، عندما عاد إلى منزله ، شعر أنه بحاجة إليها : كان مثل رجلٍ عبرت حياته امرأة ما ، لحظة واحدة ، وزرعت فيه صورة لجمالٍ جديد ، موسّعة مسافة إحساسه وشفافيته ، دون أن يعلم إذا كان سيرى المرأة التي أحبّها ، وهو يجهل حتى اسمها لمرّة ثانية .

حتى هذا الحبّ لعبارةٍ موسيقية ظهر للحظة وكأنّ بإمكانه أن يوقظ لدى « سوان » شعوراً بإمكانية العودة إلى الصبا . منذ زمن بعيد ، كان قد توقّف عن استيحاء أي رمز سامٍ ، محدّداً حياته بتتبّع الملذّات اليومية العابرة ، التي كان يعتبرها ، دون أن يصارح نفسه بوضوح ، أنّها لن تتغير حتى موته ، وأبعد من ذلك ، بما أن ذهنه لم يعد مسوّراً بالأفكار السامية ، كان قد توقّف عن الايمان

بوجودها ، دون أن يتنكّر لها كلياً . هكذا كان قد اعتاد أن يلتجيء إلى أفكار عاديّة تسمح له بأن يتجانب عمق الأشياء . كذلك لم يعد يتساءل إذا لم يكن من الأفضل له أن يظلّ بعيداً عن المجتمع ، ولكن بالمقابل كان يعلم بالتأكيد أنّه إذا قبل دعوة فعليه أن يلبّيها ، وانه إذا لم يحقّق الزيارة المطلوبة في ما بعد ، كان عليه أن يترك بطاقة باسمه ، كما في حديثه ، كان يبذل جهده لئلا يعبّر باندفاع عن رأيه الخاص في بعض المواضيع ، ولكنّه كان يقدّم تفاصيل ماديّة ، قيمتها في ذاتها ، تساعده على الاحتفاظ بجوهر شخصيته . كان دقيقاً جداً بشأن وصفه طعام مثلاً ، بتاريخ مولد أو وفاة رسّام ، بمجموعة أعماله . مرّات ، رغم كل شيء ، كان ينسى نفسه ويعطي رأياً في عمل ما ، عن مفهومه للحياة ، ولكنّه كان يلوّن كلماته عندئذٍ بنكهة ساخرة وكأنّه لم يكن يتبنّى كلياً ما يقوله . ولكن ، كما عند بعض العاجزين ، الذين ، فجأة ، يصلون إلى بلدٍ ما ، أو يواجهون نظاماً مختلفاً ، وأحياناً تطوّراً عضوياً ، مفاجئاً وغامضاً ، بقدر ما يتقهقر هذا العجز ، يبدأون التفكير ، في نهاية عمرهم ، بإمكانية غير متوقّعة لتغيير مجرى حياتهم . « سوان » ، كان قد وجد في داخله ، وهو يتذكّر العبارة التي كان قد سمعها ، أو في بعض « السونات » التي كان قد طلب أن تُعزف له ، ليرى إذا كان من الممكن أن يكتشفها ، إحدى الحقائق غير المرئية التي كان قد توقّف عن الايمان بها والتي ، كما لو أن الموسيقى كانت قد أثّرت على جفاف نفسه وعلى اختياره ، ممّا جعله يشعر مجدّداً بضرورة تكريس حياته لهذه الحقيقة . ولكن بما

أنّه لم يعلم لمن كانت المقطوعة الموسيقية التي كان قد سمعها ، فلم يستطع أن يوجدها وقد نسيها . صحيح إنه كان قد قابل بعض الناس الذين كانوا موجودين مثله في تلك السهرة وكان قد سألهم ، ولكنّ الكثيرين بينهم كانوا قد وصلوا متأخّرين عن موعد العزف ، أو كانوا قد رحلوا قبل بدايته ، غير أنّ بعض الساهرين كانوا موجودين خلال عزف المقطوعة ، ولكنّهم كانوا قد ذهبوا للتحدّث في صالون آخر . غيرهم ، بالرغم من أنّهم قد استمعوا إلى المقطوعة ، فلم يكرّسوا انتباههم أكثر من الغائبين . أمّا أصحاب المنزل ، فكانوا يعلمون بأنّ المقطوعة التي كان الموسيقيون الموجودون هناك ، قد طلبوا عزفها ، كانت جديدة ، وبما أنّ الفنانين هؤلاء ، كانوا قد قاموا بجولة ، لم يستطع « سوان » أن يستفسر عن المعزوفة أكثر من ذلك . بالرغم من أن كان لديه عدداً من الأصدقاء الموسيقيين ، وكان يتذكّر اللذة الخاصة الفائقة الوصف التي عكستها العبارة الموسيقية على ذاته ، وحيث كانت تمرّ أمام عينيه ، لم يكن بإمكانه أن يكرّر نغمتها أمامهم . من ثم ، توقّف عن التفكير بها .

بعد لحظات قليلة من عزف الموسيقي الصغير عند السيّدة « فردوران » ، فجأة ، وبعد نغمة عالية استمرت مسافة قسمين من درجات الموسيقى ، رأى « سوان » شيئاً ما يقترب ، نابتاً من داخل ذلك الرنين المستمرّ ، منفلشاً وكأنّه ستار من الأصوات الرنّانة يخبىء داخله سرّ رخامته . وفجأة ، اكتشفها ، متسلّلة ، ضاجّة ومتقطّعة ، تلك العبارة الرشيقة والمعطّرة التي يحبّها . كانت

خاصة جداً ، وذات جاذبية متفرّدة ، لا بديل لها ، وقد انعكس هذا الشيء على « سوان » وكأنّه قابل ، في أحد منازل أصدقائه ، شخصاً كان قد أعجبه في الخارج ، وقد يئس من مقابلته مجدّداً . في النهاية ، ابتعدت ، محدّدة ، سريعة ، من خلال توزّع عطورها ، تاركة على وجه « سوان » وهج ابتسامتها .

ولكنه الآن ، كان باستطاعته أن يستفسر عن اسم مجهولته « قيل لي بأنّها كانت « الأندنتي » التابعة لأحد « سونات » البيانو والكمان لـ « ڤينتوي » ». لقد أمسك بها ، وباستطاعته أن يجدها في منزله ساعة يشاء ، وأن يكتشف لغتها وسرّها .

عندما انتهى العازف الشاب من العزف ، اقترب منه « سوان » وشكره بحرارة أعجبت السيدة « ڤردوران » .

ـ كم هو ساحر ، أليس كذلك ، قالت لـ « سوان » ، هل يفهم ، حقيقة ، هذا الصغير البائس هذه « السونات » ؟ لم تكن تدري أنّ باستطاعة البيانو أن يتوصّل إلى هذا المستوى . تستطيع ، حقاً ، أن تعتبره أيّ شيء سوى أنه بيانو ! في كلّ مرّة الشيء ذاته يتكرّر ، أعتقد بأنّني أستمع إلى أوركسترا كاملة . حتى أنّه أروع من الاوركسترا وأشمل .

العازف الشاب انحنى ، ابتسم ، مدقّقاً في كلمات سيقولها ، كما انّه أراد أن يطلق طُرفة :

ـ إنّك متساهلة معي ، قال لها .

في الوقت الذي كانت خلاله السيّدة « ڤردوران » تقول لزوجها :

ـ « هيّا ، قدّم له عصير البرتقال ، لقد استحقّه » ، كان « سوان » يخبر « أوديت » كيف استهوته تلك العبارة الموسيقية الصغيرة . وعندما السيّدة « ڤردوران » كانت تقول من بعيد : « ما شاء الله ! يتهيّأ لي أنّك تستمعين إلى كلمات جميلة ، « أوديت » » ، أجابت « أوديت » : « أجل ، جميلة جداً » . وكان « سوان » مأخوذاً ببساطتها . ولكنّه كان يستفسر عن « ڤينتوي » ، عن عمله ، عن الزمن الذي ألّف خلاله تلك « السونات » ، وماذا كانت تعني له تلك العبارة . . . هذا هو الشيء الذي كان يريد معرفته جيّداً .

ولكن ، جميع الذين كانوا يبدون إعجابهم الكبير بالموسيقى (عندما قال « سوان » بأن « السونات » التي ألّفها هي حقاً جميلة ، كانت السيّدة « ڤردوران » تصرخ : « إنّني أصدقك قليلاً بأنّها جميلة ! ولكن لا يجوز أن يعترف أحد بأنه يجهل « سونات » « ڤينتوي » ، لا حقّ لأحد بجهلها » . الرسّام أضاف : « حقاً ! فعلاً هذا شيء كبير ، أليس كذلك ؟ ليست هي ، إذا أردتم ؛ هذا الشيء « العزيز » والعام » ، أليس كذلك ؟ ولكنّها تؤثّر جداً على الفنّانين) . الموجودون ، يبدو أنهم نادراً ما طرحوا على أنفسهم مثل هذه التساؤلات ، لأنّهم لم يستطيعوا الاجابة .

حتى على ملاحظة أو ملاحظتين خاصّتين أبداهما « سوان » تجاه عبارته الموسيقية المفضّلة :

ـ حقاً ، هذا شيء غريب ، لم أكن ألاحظه أبداً ، أؤكّد لكم أنّي لا أحبّ أن أدقّق كثيراً في الأشياء ، وانني أضيع بين

رؤوس الابر ، لا نضيّع وقتنا هنا في تجزئة الشعرة ، أجابت السيّدة « ڤردوران » وكان الدكتور « كوتار » ينظر إليها بإعجاب كتلميذ مجتهد متأملاً كيف تتنزّه ، بارتياح ، بين جميع هذه العبارات المركّبة . على كل حال ، كان هو والسيّدة « كوتار » ، من خلال حسّهما الفطري السليم الذي يشبه حسّ بعض جماعات الشعب ، يتحفّظان ولا يجرؤان على تقديم رأي أو يفتعلان البهجة لموسيقى لا يفهمانها أكثر مما يفهمان طريقة الرسم عند السيد « بيش » . لأن الجمهور لا يعرف من الجاذبية والرشاقة ، ومن مختلف أشكال الطبيعة ، غير القوانين العادية والبسيطة جداً ، والتي قد ألفوها بصعوبة وبطء حيث يرفضها أي فنّان مبتكر . السيّد « كوتار » وزوجته ، يمثّلان صورة عن الشعب ، ولم يجدا لا في « سونات » « ڤينتوي » ، ولا في لوحات الرسّام ، ما كان يمثّل لهما تناغم الموسيقى وجمال الرسم . كان يتراءى لهما عندما كان العازف يعزف « السونات » أنّه كان يلعب النغمات بالصُدفة على البيانو ، دون أن تكون هذه النغمات مشدودة إلى أي من القوانين المعتادين عليها ، والتي تربط هذه النغمات بعضها ببعض ، وأنّ الرسّام كان ينثر الألوان على لوحاته بشكل عشوائي . عندما كان باستطاعتهم أن يكتشفوا داخل اللوحات رسمة معيّنة ، كانوا يجدونها غليظة وعاميّة (وهذا يعني أنها خالية من أناقة مدرسة الفن التي كان يشاهدون الناس من خلالها في الشارع) ، وغير حقيقية ، مثل كأنّ السيّد « بيش » يجهل كيف يكون تكوين الكتف ، كما أنّ شعر النساء لم يكن بلون البنفسج

الفاتح .

المؤمنون كانوا قد تفرّقوا ، الدكتور رأى أنّها مناسبة ملائمة ، في الوقت الذي كانت خلاله السيّدة « ڤردوران » تقول كلمة أخيرة عن « سونات » « ڤينتوي » ، مثل سابح مبتدىء يرمي نفسه في المياه ليتعلّم ، ولكنّه يختار اللحظة التي لا يوجد فيها أناس كثيرون ليشاهدوه :

ـ أهكذا ، هذا الذي يسمّونه موسيقياً من الدرجة الأولى ! صرخ متّخذاً قراراً مفاجئاً .

« سوان » علم فقط بأنّ الظهور الحديث لـ « سونات » ڤينتوي أثّر جداً على اتجاهات مدرسة متقدّمة جداً ، ولكنّها كانت مجهولة كلياً من الجمهور الكبير .

ـ أعرف شخصاً يدعى « ڤينتوي » ، قال « سوان » ، وهو يفكر بأستاذ البيانو لشقيقات جدّته .

ـ يجوز أنّه هو ، صرخت السيدة « ڤردوران » .

ـ كلاّ ، أجاب « سوان » ضاحكاً . لو كنت قد شاهدته لمدّة دقيقتين ، ما كنت قد طرحت السؤال على نفسك .

ـ هكذا ؟ طرحُكَ للسؤال ، يعني حلّه ؟ قال الدكتور .

ـ ولكن قد يجوز أن يكون قريبه ، تابع « سوان » مجدّداً . هذا سيكون مؤسفاً ، ولكن أحياناً من الممكن أن يكون أحد العباقرة نسيباً لشخص تافه . لو كان هذا الشيء صحيحاً ، أعترف بأنني سأتحمّل جميع أنواع العذابات لكي يعرّفني هذا الشخص التافه على مؤلّف « السونات » ، أولاً ، أتحمّل عذاب

معاشرة شخص تافه مثله ، وهذا شيء فظيع .

الرسّام كان يعلم بأنّ « ڤينتوي » كان مريضاً في هذا الوقت وبأنّ الدكتور « بوتان » كان قلقاً من عدم قدرته على إنقاذه .

ـ كيف ، صرخت السيّدة « ڤردوران » ، هل يوجد أناس بعد يتعالجون عند « بوتان » !

ـ آه ! سيّدة « ڤردوران » ، قال « كوتار » ، بلهجة خفيفة ، تنسين أنّك تتحدّثين عن أحد زملائي ، بل هو أحد أساتذتي .

ـ الرسّام كان قد سمع بأنّ « ڤينتوي » مهدّد بالجنون . وقد أكّد على أنّ هذا الشيء يلاحظ من خلال بعض مقاطع « سوناته » . « سوان » لم يجد أن هذه الملاحظة عبثية ، ولكنّها قد أقلقته ؛ لأن قطعة موسيقى صافية ، والتي لا تحوي أية صلات منطقية حيث التحوّلات اللغوية تكشف الجنون ، الجنون الذي قد ظهر في « سونات » ، كان يتراءى له كشيء سرّي مثل جنون كلبة ، جنون حصان ، والذي من الممكن ، رغم غموضه ، أن تكتشفه في النهاية .

ـ دعني وشأني أنت وأساتذتك ، تعرف عشر مرّات أكثر منهم ، أجابت السيّدة « ڤردوران » الدكتور « كوتار » ، بلهجة شخص يملك الجرأة على التعبير ، متحدّية الذين لا يشاطرونها الرأي . أنت ، على الأقل ، لا تقتل مرضاك !

ـ ولكن ، سيّدتي ، إنه من الأكاديمية ، أجاب الدكتور بلهجة ساخرة . إذا فضّل أحد المرضى ميتة على يد أحد أمراء

العِلم . . . هذا رائع ان يقال : « إنّه « بوتان » الذي يعالجني » .
ـ هذا أروع ! قالت السيّدة « فُردوران » . هكذا ، الآن ، توجد أناقة حتى في الأمراض ؟ لم أكن أعلم ذلك . . . إنك تُمتعني حقاً ! صرخت فجأة وهي تغطّي وجهها بيديها . وأنا الساذجة ، كنت أتحاور معك جديّاً ، دون أن ألاحظ بأنّك كنت تسخر مني .
ولكن السيّد « فردوران » ، رأى أنه من المتعب أن يضحك لشيء ليس ذا قيمة ، واكتفى بسحب دفعة من غليونه ، مفكراً بحزن ، بأنّه لم يكن باستطاعته أن يدرك زوجته في مجال اللطافة .
ـ هل تعلمين بأن صديقك يعجبنا كثيراً ، قالت السيّدة « فردوران » لـ « أوديت » ، في اللحظة حيث هذه كانت قد تمنّت لها مساء طيّباً . إنه بسيط ، جذّاب ، إذا لم يكن لديك غير الأصدقاء الذين يشبهونه لتقديمهم إلينا ، تستطيعين أن تاتي بهم .
السيّد « فردوران » لفت النظر إلى أن « سوان » لم يستلطف عمّه عازف البيانو .
ـ لقد شعر بقليل من الغربة ، أجابت السيّدة « فردوران » ، لا تستطيع أن تطلب منه الانسجام مع جوّ المنزل من المرّة الأولى ، مثل « كوتار » الذي يشكّل جزءاً من عشيرتنا منذ سنوات عديدة . المرّة الأولى لا تُحسب ، إنها فقط مفيدة ليدخل في الجوّ . لقد اتفقنا يا « أوديت » أن يقابلنا في « القصر الصغير » . لو تذهبين لتأتي به ؟
ـ ولكن كلاّ ، إنّه يرفض .
ـ هكذا ! بالنهاية ، كما تشائين . المهمّ أن لا يتراجع عن

مجيئه آخر لحظة !

بعكس ما كانت تفكّر السيّدة « فردوران » ، فلم يتراجع أبداً . كان يذهب لمقابلتهم أينما كان . مرّات في مطاعم الضاحية ، حيث كانوا يذهبون إليها قليلاً ، لأنّ موسمها لم يكن بعد قد أتى ، مراراً كثيرة في المسرح ، الذي كانت السيّدة « فردوران » تحبّه كثيراً ، مرّة ما في منزلها ، قالت أمامه أن بطاقة من المحافظة قد تنفعهم لسهرات الافتتاح والمهرجانات ، وأنّ عدم وجودها معهم قد أزعجهم جداً يوم دَفن « غمبيّتا » . « سوان » الذي لم يتباه أبداً بعلاقاته اللامعة ، ولكن فقط كان يتحدّث عن علاقاته البسيطة جداً ، غير المستطابة ، لأنه كان يرى من غير اللائق أن يتجاهلها ، وكان قد اعتاد أن يتجانب إظهار علاقاته مع المجتمع الرسمي في حيّ « سان جرمان » ، أجاب :

ـ أعدك بأنّني سأهتم بالأمر ، سيصلك هذا الشيء في وقت إعادة « دانيشاف » ، سأتناول طعام الغداء غداً مع مدير الشرطة في « الاليزيه » .

ـ كيف ذلك ، في « الاليزيه » ؟ صرخ الدكتور « كوتار » بصوت راعد .

ـ أجل ، عند السيّد « غريفي » ، أجاب « سوان » ، بقليل من الخجل بسبب ما أحدثته عبارته .

الرسّام قال للدكتور بصورة مازحة :

ـ هل يحصل هذا الشيء تكراراً ؟

بوجه عام ، وفور تقديم التفسير ، كان « كوتار » يقول :

« آه ! حسناً ، حسناً ، هذا جيّد » ، ولم يكن يستغرب بعد ذلك . ولكن ، هذه المرة ، عوضاً عن أن تهدئه كلمات « سوان » الأخيرة ، كالعادة ، بالعكس ، فقد تضاعف استغرابه من كونه يتناول طعام العشاء مع شخص ، لا منصب رسمياً لديه ، ولا صيته ذائع في أي مجال ، ورغم هذا فهو على صلة برئيس الجمهورية .

ـ كيف ذلك ، السيّد « غريفي » ؟ هل تعرف السيد « غريفي » قال لـ « سوان » مذهولاً ومشكّكاً ، وقد بدا مظهره شبيهاً بمنظر حارس بلدية ، سأله مجهول ما عمّا إذا كان بإمكانه أن يقابل رئيس الجمهورية ، من خلاله ، والذي ، يكتشف ، كما يقولون في الصحف ، « مع أي نوع من الناس يتحدث » ، انه أمام مجنون ، ويؤكّد له أن الرئيس سيستقبله على الفور ، متجهاً به نحو مستوصف المخزن .

ـ أعرفه قليلاً ، إنّ لدينا أصدقاء مشتركين (لم يجرؤ على البوح بأنّ صديقهما المشترك هو أمير « دوغال ») ، على كل حال ، إنّه يستقبل بسهولة جداً ، وإنّني أؤكد لك أن الدعوات ، لتناول الطعام عنده ، ليس فيها ما يمتع . إنها تكون ، عادة ، بسيطة جداً . لم يحدث مرّة أن تجاوز عددنا الثمانية إلى المائدة ، أجاب « سوان » ، محاولاً إزالة أسباب الذهول الذي ارتسم على وجوه محدّثيه من خلال كونه على علاقة برئيس الجمهورية .

ومن ثم ، « كوتار » ، متابعاً كلمات « سوان » ، تبنّى هذا الرأي ، بما يتعلّق بأهمية الدعوة عند السيّد « غريفي » ، معتبراً أنّ

هذا الشيء ، فعلاً ، عادي جداً ، ولا أحد يهتم به . منذ ذلك الوقت ، لم يعد يستغرب أنّ « سوان » أو أي شخص آخر ، على علاقة بـ « الاليزيه » ، حتى أنّه توصّل إلى الرثاء لحالته قليلاً إذ كان مجبراً على تلبية دعوات كان يعترف المدعو بالذات بأنّها مملّة .

ـ آه ! حسناً ، حسناً ، هذا جيّد ، قال بلهجة جمركي ، يتجانبك للوهلة الأولى ، ولكن بعد أن يستمع إلى تفسيراتك ، يدعك تمرّ دون أن يفتح حقائبك .

ـ آه ! إنّني أصدّقك بأن تلك الدعوات ليست ممتعة ، وتضحية منك أنك تلبّيها ، قالت السيّدة « فردوران » ، حيث تحوّل رئيس الجمهورية بنظرها إلى شخص مملّ ومخيف بنوع خاص ، كونه كانت لديه إمكانيات الاغراء والاكراه اللذين ، إذا قد استعملهما مع المؤمنين ، فبإمكانه أن يجعلهم يتركونها . يخبرون عنه أنّه أصم كمزهرية ، وهو يأكل بأصابعه .

ـ فعلاً ، هكذا ليس ممتعاً أن تذهب إلى هناك ، قال الدكتور بقليل من الشفقة ، عندما تذكّر عدد المدعوين الثمانية : « هل الدعوة لتناول الطعام هي خاصة ؟ » سأل بحيوية حماس اللغويين الذي يتخطّى حشرية الفضوليين .

ـ ولكن أهمية رئيس الجمهورية بنظر السيّدة « فردوران » قد انتصرت على تواضع « سوان » وكذلك على سوء نيّتها . وخلال كلّ عشاء ، كان « كوتار » يسأل باهتمام : « هل سنرى السيّد « سوان » هذا المساء ؟ عنده علاقات شخصية مع السيّد « غريفي » . هذا ما يسمى « جنتلمان ؟ » ولقد توصّل أن يدعوه

لمشاهدة معرض خاص بالأسنان .

ـ تستطيع أن تصطحب معك من تريد ، ولكن محظَر دخول الكلاب . هل تفهم ، أقول لك هذا لأن لديّ أصدقاء لم يكونوا على علم بذلك وقد عضّوا أصابعهم ندماً .

بالنسبة للسيّد « فردوران » ، فقد لاحظ الأثر السيء الذي أحدثه هذا الاكتشاف على زوجته ، بأن « سوان » كانت لديه صداقات نافذة ولم يكن قد حدّثها عنها .

إذا لم يكن قد نظّم جزءاً من علاقاته في الخارج ، فعند « آل فردوران » ، كان « سوان » يلتقي مجدّداً النواة الصغيرة ، ولكنّه لم يكن يأتي إلا مساء ، رافضاً أبداً ، تقريباً ، أن يتناول طعام العشاء بالرغم من إلحاح « أوديت » .

ـ أستطيع كذلك أن أتعشّى معك وحدي ، إذا كنت تفضّل ذلك ، قالت له .

ـ والسيدة « فردوران » ؟

ـ ويحها ! هذا شيء بسيط . سأقول إن فستاني لم ينتهِ ، أو أن العربة قد جاءت متأخرة . بإمكانك أن توجد دائماً وسيلة لتسوية الشيء .

ـ إنّك لطيفة .

ولكن « سوان » كان يفكّر في ما إذا أظهر لـ « أوديت » (قانعاً بأن يلتقيها لوحده بعد العشاء) انه توجد مباهج يفضّلها على وجوده معها ، فالشعور الذي ستحسّه معه لن يعرف الاكتفاء طويلاً . ومن جهة أخرى ، مفضّلاً جداً على « أوديت » جمال

عاملة صغيرة ، عذباً ، متفتحاً مثل وردة ، حيث كان مولعاً بها ، كان يفضّل كثيراً أن يمضي بداية السهرة معها ، متأكداً من أنّه سيرى « أوديت » في ما بعد . لهذه الأسباب ذاتها ، كان لا يقبل أبداً بأن تأتي « أوديت » لتأخذه إلى منزل «آل ڤردوران » . العاملة الصغيرة كانت تنتظره بالقرب من منزله على زاوية شارع كان يعرفها جيّداً سائق العربة « ريمي » . كانت تصعد إلى جنب « سوان » ، تجلس بين ذراعيه حتى لحظة توقّف العربة أمام منزل « آل فردوران » . ساعة دخوله ، عندما تُريه السيّدة « فردوران » الأزهار التي أرسلها إليها صباحاً ، كانت تقول له : « أوبّخك » ، وتُجلسه بالقرب من « أوديت » ، فيعزف لهما عازف البيانو عبارة « فينتوي » الموسيقية التي كانت بمثابة نشيد حبّهما . كان العازف يباشر عزفه على البيانو بعبارة يستعيرها من الكمان ، جاعلاً النغمات ذاتها تهتزّ تحت أنامله باستمرار كما لو انه يعزف على الكمان ، مغطياً بذلك القسم الأول بكامله . وفجأة ، تبدأ النغمات بالانفصال عن بعضها البعض ، كما في لوحات « بيتير دوهوك » ، التي يجعلها مسافرة في العمق ، إطار ضيّق لباب بالكاد يبدو مفتوحاً . بعيدة ، وبلونٍ آخر ، بمخملٍ من لون ممزوج ، تظهر العبارة ، راقصة ، رعائية ، متداخلة ، ظُرفية ، آتية من عالم آخر . كانت تعبرها خطوط بسيطة وخالدة ، توزّع هنا وهنالك هبات حُسْنها ، بذات الابتسامة الفائقة الوصف ، ولكن « سوان » كان يدقّق في كيفية انحسار الوهم . كانت العبارة تبدو وكأنّها متأكدة من زوال هذه السعادة التي كانت تشقّ لها الطريق . بكلّ

جمالها الخيالي ، كانت تبدو وكأنّها شيء كـامل ، كـما شعور اللامبالاة بعد الندم . ولكن « سوان » لم يكن مكترثاً بها . كان يعتبرها غير قائمة بحدّ ذاتها ـ كما ينظر إليها الموسيقي الذي ألّفها ، جاهلاً حضور العشق بين « سوان » و « أوديت » ، لأنه ابتكرها لكل الأجيال ـ ولكنّه كان يهتم بها وكأنّها رمز ، ذكرى لحبّه الذي ، حتى بالنسبة لـ « آل فردوران » ، وللعازف الشاب ، تجعلهم يفكّرون به وبـ « أوديت » . كانت توحّدهما ، هذا الشيء استمر لدرجة أنّه ، كما « أوديت » ، قد رجته بغنج ، تنازل عن طلبه من أحد الفنانين لأن يلعب له « السونات » بكاملها ، وقد استمـرّ في معرفـة هذا المقـطع فقط . « ماذا يفيـدك بـاقي « السونات » ؟ قالت له . هذه هي « معزوفتنا » » . حتى لدرجة أنه كان يتعذّب ، عندما تعبر ، قريبة ، وبذات الوقت ، في اللانهاية ، وفي الوقت الذي كانت تتوجّه إليهما ، لم تكن تعرفهما ، كان آسفاً لدرجة أن يكون لديها أي معنى ، أي جمال ذاتي ومستقرّ ، غريبة عنهما ، مثل جوهرة مُتداولة ، أو حتى مثل رسائل كتبتها امرأة معشوقة ، يحقدان حتى على ماء الذهب ـ الجوهرة وعلى المفردات لأنّها جميعها لم تتكوّن فقط من جوهر علاقة عابرة ومن خلال شخص خاص .

غالباً ما كان يتأخر كثيراً مع العاملة الصغيرة قبل أن يذهب إلى منزل « آل فردوران » ، لدرجة أنّه ما يكاد يبدأ بالاستماع إلى عبارته الموسيقية حتى يحين موعد عودة « أوديت » إلى المنزل . كان يرافقها إلى قرب الباب في فندقها الصغير ، الذي يقع في شارع

« لابيروز » ، وراء قوس النصر . ومن أجل هذا الشيء ، ربما ، ولئلا يطلب منها تقديم جميع هباتها ، كان يضحّي بغبطة أن يراها باكراً ، لأن هذا الشيء أقل أهمية بالنسبة إليه ، من ممارسة حقّه هذا ، الذي تعترف به « أوديت » ، وهو أن يغادرا معاً ، وهو بالنسبة إليه أكثر أهمية ، لأن ، من خلال ذلك ، كان يتهيّأ له بأن شخصاً واحداً لم يرها ، ولا أحد يفصلهما ، ولا أحد يمنع أن يتواصل حضورها معه حتى بعد أن يودّعها .



هكذا ، عندما كانت تعود بعربة « سوان » ، ذات مساء ، ولحظة نزولها منها وهو يودّعها ، قطفت فجأة من الحديقة الصغيرة التي تسبق المنزل آخر أقحوانة وقدّمتها له قبل أن يتركها . خلال عودته ، ألصقها بفمه ، وعندما ، بعد أيام ، ذبلت ، خبّأها بعناية فائقة في خزانة أوراقه .

لم يكن يدخل لرؤيتها أبداً . مرّتان فقط بعد الظهر ، كان قد حضر للعملية ذات الأهمية الخاصة لديها : « أن تأخذ الشاي » . الوحدة ، وفراغ الشوارع القصيرة (المكوّنة كلّها تقريباً من فنادق صغيرة متلاصقة ، والتي ، فجأة ، كان يقطع رتابتها ، من وقت إلى آخر ، دكّان ما بلون الشؤم ، يقف مثل شاهد تاريخي ، وبقية قذرة تشير إلى الزمن الرديء لتلك الشوارع) . الثلج الذي كان متبقياً في الحديقة وعالقاً على أشجارها ، الفصل المهمل ، مجاورة الطبيعة ، كانت كلّها ، تضاعف من سريّة الدفء ، للأزهار ، التي صادفها أثناء دخوله .

على الشمال ، في الطابق الأرضي المرتفع قليلاً عن

الأرض ، توجد غرفة نوم « أوديت » ، تشرف ، من وراء المنزل ، على شارع صغير متواز ، سلّم ضيّق ، بين جدران مطليّة باللون الغامق تغطّي بعض مسافاتها أقمشة شرقية ، وخيوط من السبّحات التركية ومصباح ياباني كبير معلّق بحبل حريري صغير (ولكن ، لكي لا تحرم الزوّار من الرفاهية الغربية الحديثة ، كانت تضيء بواسطة الغاز) ، يمتد هذا الحبل إلى الصالونين الكبير والصغير . ممرّ ضيّق كان يتقدّمهما ، جداره مغطّى بمربّعات خشبية كما في حديقة ، ولكنّه مذهّب ، محاطة على طولها بصندوق مستطيل حيث يزهر صفّ من أزهار الأقحوان الكبيرة نادر وجودها في مثل هذا الفصل ، وكأنّها داخل دفيئة ، ولكنّها ليست ناجحة كما الأقحوان الذي اعتنى به البستاني في ما بعد . « سوان » كان منزعجاً من الأهمية الزائدة التي أعطيت للأقحوان ، ولكنّه فرح ، هذه المرة ، في أن يرى الغرفة مقلّمة بخطوط زهرية ، برتقالية وبيضاء وبأشعة معطّرة من هذه الكواكب التي تضيء في الأيّام الرماديّة . « أوديت » استقبلته بمعطف منزلي حميم من الحرير البلون الزهر . عريٌ جميلٌ كان يبدو على عنقها وذراعيها . أجلسته قربها في إحدى الزوايا الغامضة الكثيرة التي كانت مهيأة في عمق الصالون ، مغطّاة بأشجار صغيرة من النخيل موضوعة في مزهريات صينية ، أو بعدد من الستائر عليها صور وعقود وشرائط ومراوح . قالت له : « لستَ مرتاحاً هكذا ، انتظر ، انني سأريحك » ، وبابتسامة مزهوّة ، وكأنّها ابتكرت شيئاً خاصاً بها ، وضعت وراء رأس « سوان » ، تحت قدميه ، مخدّات من الحرير

الياباني التي كانت تدعكها و « تعجنها » وكأنّها تبذُر أشياء ثمينة تجهل قيمتها . ولكن ، عندما أتى الخادم على التوالي بالمصابيح الكثيرة التي كانت جميعها تقريباً موضوعة في مزهريّات صينية ، بدأت تشتعل بشكل إفرادي أو ثنائي ، وجميعها كانت موضوعة على قطع أثاث متمايزة وكأنّها على مذابح ، والتي عند هذا الغَسَق الملتصق بالليل في نهاية هذه الفترة من بعد ظهر يوم شتاء ، كانت تُظهِر مجدّداً غروباً للشمس أكثر ثباتاً ، أكثر ورداً ، وأكثر إنسانية ، جاعلة بعض العشاق عابري الشارع ، يحلمون ، يندهشون أمام سرّ الحضور الذي كانت تبوح به وتخبّئه بالوقت نفسه ألواح الزجاج المضيئة ، كانت « أوديت » تراقب الخادم بطرف عينها ، وبقساوة ، لترى ما إذا كان قد وضعها جيداً في الأمكنة المخصصة لها . كانت تفكّر في ما إذا وضعت واحدة في غير مكانها ، بأنّ الانطباع الشامل عن صالونها سيكون سيئاً . ورسمها ، موضوعاً على حامل مائل ومغطّى بنسيج موبّر ، سيكون مضاءً بشكل سيء . وكذلك ، كانت تتابع بنرفزة حركات هذا الرجل الغليظ موبّخة إياه بتأثر عميق لأنّه كان قد مرّ قريباً جداً من حوضي زهور كانت تفضّل هي أن تنظّفهما بنفسها لأنها تخاف من أن يحطمهما . اقتربت منهما لترى إذا كان قد حطّم إحدى الزوايا . كانت تتراءى لها ، من خلال جميع هذه التحف الصينية ، أشكال « طريفة » ، وأيضاً أزهار « الاوركيدا » ، وخصوصاً لـ « الكاتِلْيا » ، التي كانت بالاضافة إلى الأقحوان ، أزهارها المفضّلة ، لأنّها لا تتشابه مع بقية الأزهار ، وهذه ميزتها

الكبيرة ، وكأنّها مصنوعة من الحرير أو الساتان . « هذه ، كأنها مصنوعة من بطانة معطفي » ، قالت لـ « سوان » وهي تُريه « الاوركيدا » ، بنوع من الاحترام لهذه الزهور « الأنيقة » ، لهذه الشقيقة التي وهبتها إيّاها الطبيعة ، تُبعدها عنها فروقات إنسانية ، ولكنّها مرهفة ، وأكثر جدارة من نساء كثيرات ، ولهذا ، فقد أفسحت لها مجالاً في الصالون . كانت تُريه أيضاً ، شيئاً فشيئاً ، أشخاصاً وهميين ، ألسنتهم من نار ، يزيّنون مزهرية أو هم مطرّزون أو مدقوقون على شاشة ، تويجات باقة من « الاوركيدا » ، جَمَلاً من فضّة مُنَقَّشاً وعيناه مغروزتان بالياقوت الأحمر ، مجاوراً على المدفأة ، ضفدعاً من خرز ، وكانت تتصنّع الخوف ، بعض المرّات ، من الاساءة ، أو تضحك من سخرية هذه الكائنات الخرافية ، يحمرّ وجهها من قلّة احتشام الأزهار ، وتشعر برغبة جارفة لتقبيل الجَمَلِ والضفدع اللذين كانت تناديهما : « عزيزاي » . وهذا التصنّع كان مخالفاً لاخلاصها ، لبعض إيمانها ، بالأخصّ بسيّدة « لاغيت » التي كانت ، في ما مضى ، أثناء سُكناها في « نيس » قد شفتها من مرض مميت ، وكانت تضع حول عنقها باستمرار أيقونة ذهبية منها ، معتبرة أنّها تحقّق المعجزات . « أوديت » هيّأت « شايها الخاص » لـ « سوان » . سألته : « حامض أو كريم ؟ » وعندما أجابها بأنّه يفضّل « الكريم » ، تابعت ضاحكة : « غيمة ! » ولأنّه وجده لذيذاً : « هل ترى أنّني أعرف ماذا تحبّ » . هذا الشيء ، فعلاً ، قد ظهر لـ « سوان » ثميناً جداً كما لها أيضاً ، والحبّ إلى

هذه الدرجة بحاجة إلى أن يوجد تبريراً ، ضمانة استمرار ، من خلال ملذات ، هي ، بالعكس ، دونه ، لا تنوجد وتنتهي معه . عندما كان قد تركها في الساعة السابعة مساء ليعود إلى منزله ويرتدي ثيابه ، وخلال كل المسافة التي قطعها بعربته ، لم يكن باستطاعته أن يستوعب السعادة التي منحه إياها هذا البعد الظهر الجميل . كان يردّد لنفسه : « إنّه شيء ممتع حقاً أن نلاقي شخصاً موحياً حيث نعثر عنده على هذا الشيء النادر : شاي لذيذ » . بعد مرور ساعة أتته رسالة صغيرة من « أوديت » ، عرفها من خطّها الكبير ، حيث تتصنّع عبرها الرصانة الانكليزية ، وهذا الشيء كان يقدّم مظهراً نظامياً من خلال الحروف التي لا شكل لها ، والتي كانت من الممكن أن تعبّر ، لعيون غير عليمة ، عن الفوضى في الأفكار ، والنقص في التربية ، وقلّة الصراحة والارادة . « سوان » ، كان قد نسي غلاف علبة السجائر عند « أوديت » . « يا ليتك نسيت قلبك ، ما كنت قد تركتك تأخذه من جديد » .

الزيارة الثانية التي قام بها كانت أكثر أهمية من الأولى . عندما ذهب إلى منزلها هذا النهار كما في كل مرّة كان يجب أن يراها ، كان يتصوّرها قبل أن يراها بالفعل ، وكان بحاجة لأن يلاقي وجهها جميلاً . وحتى يراها جميلة ، كان مضطراً لأن يحدّد ، حتى الوجنتين الزهريتين والنضرتين ، خدّيها الصفراوين التعبين في أكثر الأوقات ، حيث تظهر عليهما ، بعض المرات ، بثور حمراء ، وهذا ما كان يؤلمه ويؤكّد له بأنّ الكمال ليس متيسراً كما قد يعتقد

أحياناً ، وبأنّ السعادة حقيرة . كان يحملٍ لها صورة محفورة كانت قد أحبّت أن تراها . كانت متعبة قليلاً ، وقد استقبلته بثوب منزلي مصنوع من الحرير الصيني ، لونه زهري ، ترخيه فوق صدرها وكأنّه معطف مطرّز بثراء . واقفة قربه ، شعرها الطويل المرتاح ، موزّع على خدّيها ، جاثية قليلاً على أحد قدميها بوضعٍ راقصٍ قليلاً حيث تستطيع أن تنحني بدون عناء باتجاه المحفورة التي كانت تتأمّلها ، وهي تحني رأسها ، ومن عينيها الكبيرتين ، التعبتين جداً والعابستين عندما تكونان خاليتين من الحيوية ، فاجأت « سوان » عندما رآها أنّها تشبه وجه « زيفورا » ابنة « جيترو » ، التي نشاهدها برسم جداري في كنيسة « سيكستين » بالفاتيكان . كان لدى « سوان » ، بشكل دائم ، هذا التذوق الفنّي الخاص ، أن يوجد لدى كبار الرسّامين ، ليس فقط الخصائص العامّة للحقيقة التي تحيطنا ، ولكن ما يبدو بالعكس أقل شمولاً : الخطوط الخاصّة بالوجوه التي نعرفها : هكذا بمادة تمثال نصفي للرئيس « لوريدون » لـ « أنطوان ريـزّو » : نتوء الوجنتين ، انحراف الحاجبين ، وأخيراً التشابه الصارخ بسائقه « ريمي » ، تحت ألوان للرسام « غيرلانداجو » ، أنف السيد « بالنسي » ، في رسم لـ « تينتوريه » ، اكتناز الخدّ بزَرع بداية شعرات السالفَين ، كسرة الأنف ، دقّة النظرة ، احتقان جفني الدكتور « دوبولبون » .

ربّما ، لأنّ أسفاً مستمراً يطارده ، حيث كان قد حدّد حياته ضمن إطار العلاقات الاجتماعية ، والأحاديث ؛ كان يعتقد بأنّ

كبار الفنانين يشعرون نحوه بغفران متسامح ، بحيث إنهم هم أيضاً كانوا مغتبطين ، لأنهم قد أدخلوا في أعمالهم وجوهاً شبيهة بـ « سوان » تعطي لنتاجهم شهادة واقعية خاصّة عن الحياة ، ونكهة حديثة ، ويمكن أيضاً ، بقدر ما كان على اتصال بتفاهات الناس الاجتماعيين ، كان يشعر بأنّه سيعثر في عمل ما ، قديم على ومضات وتلميحات ، سابقة ومجدّدة ، يمكن أن تتلبّسها شخصيات حديثة . يمكن ، بالعكس ، كان قد احتفظ بطبيعته الفنية بشكل كافٍ ، لكي تشعره تلك الأطباع الخاصّة بلذّة ، عندما تأخذ معنى أكثر شمولية ، بحيث إنه أوّل ما يلاحظها ، مقتلعة من جذورها ، محرّرة ، من خلال شَبَهها لصورة أقدم من الصورة الأصلية التي لم تعد تمثّلها . على كلّ حال ، يمكن أنّ الشعور الشامل الذي كان يحسه منذ بعض الوقت ، رغم أنّ هذا الشعور قد سكنه من خلال حبّه للموسيقى ، كان قد أغنى ، تذوّقه للرسم أيضاً ، ومتعته كانت قد تعمّقت ـ كانت قد عكست على « سوان » تأثيراً مستمراً ـ ، وقد أحسّها في هذا الوقت بالذات بالشبه بين « أوديت » و « زيفورا » للرسّام « ساندرو دي ماريانو » الذي يُعرف أكثر باسمه الشعبي « بوتيتشللي » منذ أن أصبح هذا الاسم ، عوضاً عن أن يمثّل العمل الحقيقي للرسام ، كان يمثّل الفكرة التافهة والباطلة التي اشتهر من خلالها . لم يعد يعتبر وجه « أوديت » من خلال خصائص خدّيها ونعومة بشرتها التي كان يتهيّأ له بأنه سيكتشفها عندما يلامسها بشفتيه ، إذا قد تجرأ على تقبيلها . كان يتصور وجهها مثل مجموعة من الأسطر الدقيقة

والجميلة يُسكنها نظره البعيد ، في مخيّلته ، ويعيد ابتكارها من جديد ، مرافقاً انحناءها وهي تتابع تواصل انسجام قفا العنق مع شعرها الشلاّل والتواء جفنيها ، كما ، هذه الأشياء جميعها ، هي لوحة لها كما لو أنّه كان قد اكتشف « أوديت » من خلالها .

كان يتأمّلها ، جزء من المحفورة كان يظهر في وجهها وجسدها . ومنذ هذه اللحظة ، كان يجرّب دائماً أن يجد ، إن كان قريباً من « أوديت » ، أو إذا كان يفكّر فيها فقط ، وحيث كان متمسكاً ، دون شك ، بهذه الرائعة الفلورنسية لأنّه كان يجدها ممثّلة بـ « أوديت » ، لأنّ هذا التشابه كان يعطيها جمالاً ما ، ويضاعف قيمتها في نظره . كان « سوان » يلوم نفسه لأنّه لم يدرك جيّداً قيمة شخص كان « ساندرو الكبير » قد وضعه في منزلة رفيعة ، وقد هنّأ نفسه كذلك كون المتعة التي كان يشعرها عندما يرى « أوديت » ، تبرّر تذوّقه ومعرفته بشؤون الجمال . كان يعتقد بأنّه عندما يزاوج تفكيره بـ « أوديت » مع أحلامه بالسعادة ، لا يكون قد أساء بشيء مثلما كان يظنّ لحتى الآن ، لأنّها كانت تملأ أنبل مسافات تشوّقه للفنّ . كان ينسى أن هذا الشيء لم يكن السبب الذي يجعل « أوديت » أكثر أنوثة في نظره ، لأنه ، بدقّة ، كانت رغبته تتوجّه دائماً عكس تذوّقه للجمال . كلمة الـ « عمل الفلورنسي » خدمت « سوان » كثيراً . وقد ساعدته ، وكأنّها تحريض ، لجعله يُدخل صورة « أوديت » بعالم من الأحلام لم تكن تعرفه حتى الآن وحيث تشرّبت من خلاله بالنبل . في البداية ، كانت نظرته إلى « أوديت » نظرة جنسية

فقط . وهو ، عندما كان يكرّر ، بصورة مستمرة ، شكوكه حول نوعية وجهها ، ونوعية جسدها ، وكلّ جمالها ، كان يُضعف حبّه . هذه الشكوك امّحت ، وهذا الحبّ أصبح أكيداً عندما استعاض عن الشكوك بأسس أكيدة للجمال ، دون أن يحسب أن القبلة والامتلاك كانا يبدوان طبيعيين ولا أهمية لهما لو أتيا عن طريق جَسَدٍ منهك ، وهما يأتيان الآن ليتوّجا عبادة قطعة فنية ، وقد ظهرا له بأنّهما فائقا الطبيعة وممتعان جداً .

وعندما كان يحاول الندم على أنه لم يفعل شيئاً ، خلال بضعة أشهر ، سوى رؤ ية « أوديت » ، كان يبرّر هذا الشيء بأنّه محقّ في إعطاء كامل وقته لرائعة لا تثمّن ، مكوّنة من مادة مختلفة عن غيرها ، وذات نكهة مميّزة وبنسخة واحدة نادرة كان يتأملها ، مرّات بخشوع وروحانية وتجدّد الفنان ، ومرّات أخرى بكبرياء وأنانية وشهوة جامع اللوحات .

وضع على مكتبه ، نسخة منقولة لابنه « جيرو » وكأنّها تمثّل صورة لـ « أوديت » . كان يتأمّل العينين الكبيرتين ، الوجه النحيف ، الذي كنت تتصوّر من خلاله ، جلدة غير مكتملة ، وحلقات الشَعر الرائعة التي تغطّي خدّيها التعبين ؛ وموفّقاً بين ما كان يجده رائعاً ، لحتى الآن ، بصورة جمالية ، بفكرة امرأة حقيقية ، كان يحوّل هذا الشيء إلى مكتسبات مادّية يهنىء نفسه بأن يراها مجتمعة في شخص كان باستطاعته أن يمتلكه . هذا الاستلطاف الجميل الغامض الذي يحملنا إلى أجواء رائعة نشاهدها ، في الوقت الذي قد تعرّف على الأهل الحيّ لابنة

« جيترو » ، تحوّل إلى لذّة مستعاضة ، منذ الآن ، عن اللذّة التي لم يكن قد منحه إيّاها جَسَد« أوديت » في البداية . عندما كان قد تأمّل طويلاً هذا « البوتيتشللي » ، كان يفكّر بـ« البوتيتشللي » الخاص الذي يملكه والذي كان يجده أجمل بكثير ، ومقرباً إليه صورة « زيفورا » ، كان يتصّور بأنّه يضمّ « أوديت»إلى صدره .

ولكن لم يكن فقط سَأَم « أوديت » الذي كان يبذل جهده لتداركه ، ولكن كان أيضاً سَأَمه الخاص منها ؛ شاعراً بانه منذ أن كانت لدى « أوديت » جميع التسهيلات لرؤ يته ، كان يبدو له بأن ليس لديه أشياء مهمّة ليقولها لها ، كان يخشى من أن تكون الأساليب الفارغة ، الرتيبة ، وكأنّها أصبحت ثابتة بينهما ، والتي قد أصبحت أساليبه الآن عندما يكونان معاً ، أن تمحو هذا الأمل الرومنسي في يوم حيث كانت قد أرادت أن تعبّر عن حبّها الجارف ، الذي وحده ، كان قد جعله وأبقاه عاشقاً .

ولكي يجدّد قليلا المظهر الأخلاقي لـ « أوديت » ، المتصلّب جداً ،حيث كان متخوفاً من يتعب منه ، كان يكتب لها فجأة رسالة ملأى بخيبات الأمل المتصنّعة وبفورات الغضب الكاذبة ، وكان يوصلها لها قبل العشاء . كان يعلم بأنّها ستصاب بالخوف ، وستردّ عليه . وكان يتأمّل بأنّه من خلال الانقباض الذي سيعكسه عليها خوفها من أن تخسره ، ستنبت كلمات لم تكن قد قالتها له من قبل ؛ وفعلاً هكذا كان قد استحصل على الرسائل الأكثر حناناً التي لم تكن قد كتبت له مثلها في السابق ، حيث إحداها ، التي كانت قد أوصلتها له ظهراً من « البيت المذهّب » (كان هذا اليوم

احتفال « باريس - ميرسي » الذي يقدّم لضحايا فيضانات « ميرسي ») ، تبتدىء بهذه الكلمات : « ياصديقي ، يدي ترتجف لدرجة بالكاد أستطيع أن أكتب » ، وكان قد احتفظ بها في الدُّرج ذاته التي توجد فيه زهرة الأقحوان . وإذا لم يتوفّر لديها الوقت الكافي لتراسله ، عندما سيصل إلى منزل « آل فردوران » ، ستتجّه صوبه بشوق وستقول له : « لديّ ما أقوله لك » ، وسيبحث برغبة ، على وجهها وفي كلماتها ، ما كانت قد خبّأت عنه من أسرار قلبها حتى الآن .

لحظة اقترابه من منزل « آل فردوران » ، عندما كان يلمح ، النوافذ الكبيرة المفتوحة منافذها باستمرار ، المضاءة بالمصابيح ، كان يسكنه الحنان عندما يفكّر بالشخص الساحر الذي سيراه يتفتّح في مسافات ضوئهم الذهبي . مرّات ، كانت ظلال المدعوين ترتسم ، نحيلة وسوداء، من وراء النوافذ ،أمام المصابيح ، مثل تلك المحفورات الصغيرة المتنقّلة من مكان إلى آخر في اتساع مصباح ضوؤه معكوس ، حيث لا تعود الفراغات المتبقيّة سوى مساحة وضوح . كان يحاول دائماً أن يميّز خيال « أوديت » . وعند وصوله ، بدون أن يشعر ، عيناه كانتا تبرقان بفرح جعل السيّد « فردوران » يقول للرسّام : « أظنّ أنَّ الجوّ بدأ يدفأ » . وحضور « أوديت » كان يضيف ، فعلاً ، لـ « سوان » ، في هذا المنزل ، ما لم يكن يجده في أي منزل آخر كان يزوره : نوعاً من الجهاز الحسّي ، شبكة من الأعصاب ، تتوزّع في كل أجزاء المنزل ، حاملة نبضات مستمرة لقلبه .

هكذا ، الجهاز البسيط لهذه الهيئة الاجتماعية التي كانت تشكّلها « العشيرة » الصغيرة ، كانت تأخذ بصورة تلقائية مواعيد يوميّة لـ « سوان » مع « أوديت » وكانت تسمح له بأن يصطنع اللامبالاة برؤيتها ، أو حتى رغبته في أن لا يراها ثانية . ولم يكن هذا الشيء يشكّل خطراً كبيراً عليه ، حيث ، مهما كان قد كتب لها خلال النهار ، كان سيراها أكيداً في المساء وسيرافقها إلى منزلها .

ولكن عندما كان يفكّر بوجه عابس بهذه العودة معاً التي لا مفرّ منها ، كان يصطحب معه حتى الغابة عاملته الصغيرة ليؤخّر لحظة ذهابه إلى منزل « « آل فردوران » ، وقد وصل إليهم متأخراً لدرجة أنّ « أوديت » التي اعتقدت بأنّه لن يأتي ، كانت قد ذهبت . عندما رأى أنّها لم تكن في الصالون ، شعر « سوان » بغصّة في قلبه ؛ كان يرتجف لأنّه حُرم من لذّة التي ، للمرّة الأولى ، كشف قيمتها الحقيقية ، حيث كان معتاداً لحتى الآن أن يعيشها ساعة يشاء . وهذه العادة ، التي تخفّف من قيمة باقي اللذّات الأخرى ، أو أنّها تمنعنا حتى من أن نلاحظ قيمتها الحقيقية .

ـ هل لمحتِ شكله عندما لاحظ بأنها لم تكن موجودة هنا ؟ قال السيّد « فردوران » لزوجته . أعتقد أنّ بأمكاننا القول إنّه وقع في العشق !

ـ شكله ؟ سأل بحرارة الدكتور « كوتار » الذي ، كان قد غاب لحظة لعيادة أحد المرضى ، وكان قد عاد ليرافق امرأته إلى

المنزل ولم يكن يعلم عمّن كانوايتحدّثون .

ـ كيف ، ألم تقابل أمام الباب أجمل « آل سوان » ؟

ـ كلا . هل أتى السيّد « سوان » ؟

ـ أوه ! لحظة واحدة فقط . كان لدينا « سوان » منفعل ، عصبي جداً . هل تفهمون ، « أوديت » كانت قد رحلت .

ـ هل تقصد أنّها في أحسن حال معه ، وأنّه قد استسلم لها ، قال الدكتور ، وهو يدقّق في معاني عباراته .

ـ كلا ، لا يوجد أي شيء . بيني وبينك ، أعتقد بأنّها تتصّرف بدون وعي أو إدراك ، وبعيداً عن الذكاء .

ـ تا ، تا ، تا ، قال السيّد « فردوران » . كيف تعرفين أنّه لا يوجد شيء بينهما ؟ لم نرَ شيئاً ، أليس كذلك ؟

ـ لو كان يوجد شيء ، لكانت قد أخبرتني ، قالت السيّدة « فردوران » ، بكبرياء . أقول لكم إنّها تخبرني عن جميع أشيائها الصغيرة! بماأنّه ليس لديها أحدفي الوقت الحاضر، نصحتهابأن تمارس معه الحبّ . إنها تدّعي بأنّها لا تستطيع . صحيح إنها قد استلطفته جداً ، ولكنّه خجول معها ، وهذا ما يجعلها خجولة بدورها . إنّها لا تحبّه على هذا الشكل ، وهوشخص مثالي ، وهي تخاف من أن تجعل شعورها نحوه متبذلاً . هل أعرف ، أنا ؟ لوحدث هذا الشيء فسيكون ملائماً لها .

ـ اسمحي لي بأن أخالفكِ الرأي ، قال السيّد « فردوران » ، لا يعجبني كثيراً هذا السيّد ؛ إنّني أجده متصنّعاً .

تجمّدت السيّدة « فردوران » وهمدت كلّ تعابير وجهها

وكأنّها تحوّلت إلى تمثال ، موحية بأنّها لم تكن تسمع هذه الكلمة غير المحتملة ، كلمة التصنّع بالذات ، التي قد تُظهر تصوّراً عن أنَّ شخصاً ما كان بإمكانه أن « يتصنّع » معهم ، وهذا كان يعني أن هذا الشخص ، أو الذين مثله ، هم « أفضل منهم » .

ـ فعلاً ، إذا لم يوجد شيء بينهما ، لا أعتقد بأنّ هذا السيِّد يعتقد بأن « أوديت » « عفيفة » ، قال السيّد « فردوران » ساخراً. على كل حال،لانستطيع أن نقول شيئاً، بماأنّه يُظهرهابمظهر الذكاء لا أدري إذا كنت قد سمعت ماذا كان يخبرها ذات مساء عن « سونات »«فينتوي » ؛ إنّني أحبّ « أوديت » من كلّ قلبي ، ولكن لكي يقدّم لها نظريات عن الجمال ، ـ يجب أن يكون دجّالاً شهيراً !

ـ ولو ، لا تتحدّث لسوء عن « أوديت » ، قالت السيّدة « فردوران » بغنج . إنّها رائعة .

ـ ولكن هذا لا يمنعها من أن تكون رائعة ؛ لم نقل شيئاً سيّئاً عنها ، قلنا فقط إنّها ليست العفّة أو الذكاء بالذات . على كلّ ، قال للرسّام ، هل أنت حقاً متمسّك بأن تكون « عفيفة » إلى هذه الدرجة ؟ وهذا يمكن أن يخفّف من روعتها ، من يعلم ؟

على المدخل ، كان رئيس الخدم قد التحق بالسيّد « سوان » الذي لم يكن موجوداً ساعة وصوله ، وكان مكلفاً بأن يقول له من قِبل « أوديت » ـ ولكن قبل ساعة من الوقت ـ في حال أنّه سيأتي في ما بعد ، إنّها على الأرجح قد تذهب إلى مقهى « بريفو » لتناول فنجان من الشوكولاته قبل أن تعود . « سوان » ذهب إلى عند

« بريفو » ، ولكن ، مع كلّ خطوة ، كانت عربته تتوقّف بسبب عربات أخرى أو بسبب الناس الذين كانوا يعبرون الطرقات . هذه العوائق البشعة كان باستطاعته أن يجتازها لو انّ محضر شرطي السير لم يؤخّره أكثر من المارّة . كان يحسب الوقت الذي يمرّ ، ويضيف بعض الثواني على الدقائق العابرة ليتأكّد من أنّه لم يكن قد بالغ في تقصيرها ، ليعطي مجالاً أوسع ، ممّا هو الواقع ، ليصل في الوقت الصحيح ، ويشاهد « أوديت » . في لحظة ما ، مثل شخص محموم كان نائماًواستيقظ من خلال أحلام عبثية كانت تعبرنفسه دون أن يستطيع فصل ذاته عنها، فجأة، اكتشف«سوان»بنفسه غرابة الأفكار التي كانت تدور في رأسه ، منذ الوقت الذي أخبروه فيه عند « آل فردوران » ، بأنّ « أوديت » كانت قد ذهبت ، كما اكتشف جِدّه الوجع الذي كان يعاني منه في قلبه . ولكن الذي كان قد اكتشفه فقط وكأنّه ينهض لتوّه من النوم . ماذا ! كلّ هذا الاضطراب لأنّه لن يرى « أوديت » إلاّ غداً ، وهذا ما كان قد تمنّاه ، قبل ساعة ، أثناء ذهابه إلى منزل السيّدة « فردوران » ! وقد اضطرّ إلى أن يلاحظ أنّه بهذه العربة ذاتها التي كانت توصله إلى مقهى « بريفو » ، لم يعد هو ذاته ، ولم يعد لوحده ، وكأنّ شخصاً جديداً كان ، هنا ، معه ، ملتصقاً ، موحّداً مع شخصه ، بحيث لم يعد يستطيع أن يتخلّص منه ، وسيجد نفسه مضطراً لأن يعامله بانتباه ودّقة كأنّه يرافق أستاذ ، أو مرضاً ما . ومنذ اللحظة التي كان خلالها يشعر بأنّ شخصاً جديداً كان قد أضيف إليه ، ظهرت حياته وكأنّها أصبحت أكثر أهمية . قليلاً ما كان يتهّيأ له أنّ هذه

المقابلة المحتملة عند « بريفو » (الذي من خلال هذا الإنتظار قد هدم ، جرّد لهذه الدرجة اللحظات التي كانت تسبقها حيث لم يعد يعثر على أية فكرة ، على ذكرى واحدة حيث من خلالها كان بإمكانه أن يهدّىء أفكاره) ، وحيث من المحتمل أيضاً ، لو تمّت هذه المقابلة ، فستكون مثل غيرها ، شيئاً بسيطاً لا أهمية له . ومثل كلّ مساء ، حيث سيكون مع « أوديت » وهو يلقي نظرات عابرة على وجهها المتغيّر يحّولها عنها على الفور خوفاً من أن تعتقد بأنّها مقدِّمة لشهوة ما ، فلا تعود تؤمن بتجرّده. قد يتوقّف عن التفكير بها ، مهتماً بأن يوجد لنفسه أعذاراً تسمح له بأن لا يتركها على الفور ويؤمن ، بصورة غير مباشرة ، مقابلتها في اليوم التالي عند « آل فردوران » : وهذا يعني أنّه يطيل اللحظة الحاضرة ويجدّد يوماً إضافياً خيبة الأمل والعذاب اللذين كانا يحملان له وجود هذه المرأة التي كان يقترب منها دون أن يتجرّأ على معانقتها .

لم تكن عند « بريفو » ، أراد أن يبحث عنها في كلّ جادّة . لكي يكسب وقتاً ، وعندما يكون في زيارة أحد الأصدقاء ، كان يرسل سائقة « ريمي » ليبحث في أماكن أخرى (الشبيه برئيس « لوريدان » للرسّام « أنطوان ريزّو ») ، وحيث ذهب لينتظره في ما بعد ـ هو بالذات لم يجد أحداً ـ في المكان الذي كان قد حدّده له . العربة لم تعد و « سوان » كان يتصوّر اللحظة التي تقترب ذات وجهين : أو أنْ « ريمي » يأتي ليقول له « هذه السيّدة ليست موجودة في أي مقهى دخلتُ إليه » . وهكذا كان يتصوّر نهاية السهرة أمامه ، واحدة ، ولكنّها متناوبة . مستبقة ، إمّا بلقاء

« أوديت » الذي سيمحو قلقه ، أو بأن يتخلّص ،مرغماً ،عن لقائها هذا المساء ، بقناعة أن يعود إلى منزله دون أن يراها .

السائق عاد ، ولكن ، في اللحظة التي وقف فيها أمام « سوان » الذي لم يسأله : « هل وجدتَ هذه السيّدة ؟ » ولكنّ قال : « ذكّرني غداً بأن أوصي على حطب ، أعتقد بأنَّ الكميّة قد بدأت تخفّ » . يمكن أنّه كان يقول لنفسه : إذا كان « ريمي » قد وجد « أوديت » في مقهى ما تنتظره فيه ، فنهاية هذه السهرة المشؤومة قد تتلاشى بشيء يتحقّق ويبتدىء من نهاية سهرة سعيدة ، ولم يكن بحاجة لاستعجال الوصول إلى سعادة أكيدة وبمكان آمن ، والتي لن تهرب أبداً . ولكن أيضاً ، وبفعل الخمول ؛ كان يوجَد في نفسه نقص في الليونة ، تتواجد ، أحياناً ، في أجسام الآخرين . هؤلاء الذين ، في اللحظة التي يتحاشون خلالها صدمة ما ، وأن يُبعدوا اللهَب عن ثيابهم ، وأن يؤدّوا حركة مستعجلة ، يأخذون وقتهم ، ويتلبّسون ، للحظة ، الحالة التي كانوا يعيشونها سابقاً ، ليعثروا من ثَمَّ على نقطة ارتكازهم ، وعلى اندفاعهم . وبدون شك ، إذا كان السائق قد قاطعه ، قائلاً له : « هذه السيّدة هي هنا » ، كان يجيبه : « آه ! أجل ، حقاً ، المهمّة التي كلّفتك بها ، حقاً ، لم أكن أعتقد » ، وأكمل حديثه معه عن مؤونة الحطب ليخفي عنه انفعاله الذي شعر به ويعطي وقتاً لنفسه ليتخلّص من قلقه ويندفع باتجاه السعادة .

ولكن ، عاد السائق وقال له إنّه لم يجدها في أي مكان ،

متابعاً إعطاء رأيه ، كونه خادماً أميناً وعتيقاً :

ـ أظنّ أنّ السيِّد لم يبق لديه سوى العودة .

ولكن عدم الاكتراث الذي كان « سوان » يتصنّعه بسهولة ، زال ، عندما لم يعد « ريمي » يستطيع أن يغيِّر أي شيء من الردّ الذي كان يأتي به ، عندما رآه يحاول أن يتنازل عن أمله وبحثه عنها : ـ ولكن أبداً ، صرخ ، يجب أن نجد هذه السيّدة ؛ هذا شيء بالغ الأهمية . ستكون منزعجة جداً ، بخصوص عملٍ ما ، وستعتب ، إذا لم تراني .

ـ لا أدري كيف بإمكان هذه السيّدة أن تعتب ، أجاب « ريمي » حيث هي التي قد ذهبت دون أن تنتظر السيِّد ، وقد قالت إنّها ذاهبة إلى مقهى « بريفو » ولكنّها لم تكن هناك . كانوا قد بدأوا بإطفاء الأضواء في جميع الأمكنة . تحت أشجار الشوارع ، ومن خلال ظلمة ساحرة ، المارّة النادرون ، في تلك اللحظات ، كانوا يتجوّلون بفرح ، وبالكاد تنكشف قاماتهم . مرّات ، خيال امرأة تقترب منه ، تهمس كلمة في أذنه ، وتطلب منه أن يوصلها إلى منزلها ، يجعل « سوان » يرتعش . كان يلمس بلهفة كلّ هذه الأجساد المظلمة ، كأنّه وسط جزيرة تغصّ بأشباح الموتى . وفي المملكة المظلمة ، كان يبحث عن « أوريديس » .

من بين كلّ طرائق ابتكار الحبّ ، من بين كلّ عوامل هذا الشرّ المقدّس ، الأكثر نفعاً ، هو هذا النَسَم المضطرب الذي يعبرنا مرّات عديدة . عندئذٍ ، يكون الشخص الذي نتمتّع معه بتلك اللحظة النبيلة ، وهذا هو قَدَرنا ، هو الذي سنحبّه

بالذات . وليس مهماً أن يكون قد أعجبنا ، حتى هذه اللحظة ، كما الآخرون أو أكثر . ما كان ضرورياً ، هو أن يتحوّل تذوّقنا له إلى شيء مطلق . يتحقّق هذا الشر، ندما - في الوقت حيث يكون هذا الشخص غائباً عنّا - نكون نبحث عن الملذّات التي يقدّمها لنا ، فيُحِلّ فينا حاجة قلقة ، هدفها ، هذا الشخص بالذات ، حاجة عبثية ، حيث قوانين هذا العالم تجعلهامستحيلة التحقيق ، وصعباً الشّفاء منها - الحاجة الخرقاء والموجوعة لامتلاك هذا الشخص .

لقد أوصلوا « سوان » إلى آخر ما تبقّى من مطاعم مضاءة ؛ وهذا هو الاحتمال الوحيد للسعادة التي واجهها بهدوء ؛ لم يعد يخفي انفعاله ، والأهمية التي كان يعلّقها على هذه المقابلة ، وقد وعد سائقه بمكافأة إذا استطاع أن يعثر على « أوديت » ، كأنّه عندما يجعله راغباً في تحقيق مهمّته ، بالإضافة إلى رغبته . و بالذات ، كان يستطيع أن يجعل « أوديت » ، حتى ولو دخلت منزلها لتنام ، متواجدة في أحد مطاعم الجادّة . تابع جولته حتى وصل إلى « البيت الذهبي » . دخل مرّتين إلى عند « تورتوني » ، ودون أن يراها أيضاً ، كان يخرج للمرة الثانية من المقهى الانكليزي ، يخطو خطوات وسيعة ، وشرود يسكن شكله ، ليلتحق بعربته التي كانت تنتظره على زاوية الجادّة الإيطالية ، عندما صدم شخصاً كان آتياً عكس اتجاهه : كانت « أوديت » ؛ أخبرته في ما بعد أنّها ، حيث لم تجد مكاناً خالياً عند « بريفو » ، فقد تناولت طعام العشاء في « البيت الذهبي » ، في مكان خفيّ

ولهذا لم يستطع أن يراها ، وكانت الآن تسير نحو عربتها .
لم تكن تدري بأنّها ستصادفه ، ففوجئت وارتعشت للقائه .
أمّا هو ، فكان قد بحث في كلّ باريس ، ليس لأنّه كان يعتقد بأنّه سيعثر عليها ، ولكن لأنّه ، لو تخلّى عن هذه الفكرة ، فإنّ هذا الشيء سيكون موجعاً . ولكن هذه السعادة التي لم يكن عقله يتوقّف عن تقديرها ، والتي كانت صعبة التحقيق هذا المساء ، قد ظهرت له في هذه اللحظة ، إلى أية درجة كانت حقيقية ؛ لأنّه ، لم يكن قد ساهم مع السعادة في توقّع ما كان حدوثه محتملاً ، فاستمرّت خارجه ؛ لم يكن مفطراً لأن يُتعب تفكيره ليبتكرها ، فمنها كان ينبعث الابتكار ، هي بالذات التي كانت تعكس عليه ، هذه الحقيقة التي كانت تشع لدرجة أنها تمحو ، كالحلم ، العزلة التي كانت تقلقه ، وعليها كان يتكّىء ، كان يريح ، بدون تفكير ، أحلامه السعيدة . هكذا ، مثل مسافر وصل خلال طقس جميل إلى شاطىء المتوسّط ، غير متأكّد من وجود البلدان التي قد غادرها ، لا ينظر ، بل يبهر بصره بأشعة الضوء اللازوردي الثابت للمياه .

صعد معها في عربتها ووراءهما سار سائقه « ريمي » .
كانت تمسك بيدها باقة من زهر « الكاتْلِيا » . أمّا هو فقد شاهد على شعرها ، تحت منديلها المخرّم أزهاراً من « الأوركيدا » ذاتها ، مربوطة بخصلة من ريش النعام . كانت ترتدي تحت خِمارها ، تموّجات من المخمل الأسود ، المشدود إلى خصرها بشكل منحرف ، يكشف مثلّثاً ، هو تنورتها ذات الشقوق البيضاء ،

موضوعة منه أيضاً قطعة على فتحة الصدر المقوّر ، حيث كانت توجد كذلك مع بعض من أزهار « الكاتْليا » . لم تكن بعد قد عادت إلى حالتها الطبيعية على أثر الخوف الذي سبّبه لها « سوان » ، وإذا بعائق ما جعل الحصان ينحرف عن الطريق . « سوان » و « أوديت » حادا عن مكانيهما . أطلقت صرخة ، وبدأت تلهث ، بدون تنفّس .

ـ ليس مهماً هذا الشيء ، قال لها ، لا تخافي .

أمسكها من كتفها ، قرّبها لتتكىء عليه ؛ وقال :

ـ انتبهي ، لا تتحدّثي معي . لا تجيبيني بغير الإشارات حتى لا يتضاعف لهاثك . ألا يزعجك أن أجلّس الأزهار على صدرك ، حيث ابتعدت عن مكانها بفعل الصدمة ؟ أخاف أن تضيّعيها ، أودّ أن أغرزها قليلاً .

هي التي ليست معتادة على لياقات زائدة كهذه من قِبل الرجال ، قالت مبتسمة :

ـ كلاّ ، هذا لا يزعجني إطلاقاً .

ولكن « سوان » ، مخجولاً من جوابها ، ويمكن أيضاً ليظهر إخلاصه عندما غرز لها الأزهار ، وربّما لأنّه صار يعتقد نفسه مخلصاً فعلاً ، صرخ :

ـ أوه ! كلاّ ، لا تتكلّمي ، فهذا يتعبك كثيراً . بإمكانك أن تجيبيني بالإشارات ، سأفهمك جيّداً . حقاً ألا أزعجك ؟ أنظري ، يوجد قليلا . . . أعتقد أنَّ بعض لقاح الزهر منتشر عليك ؛ هل تسمحين بأن أنظّفه بيدي ؟ ألا أزعجك ، ألست

فظّاً بعض الشيء ؟ هل أنّي أدغدغك بعض الشيء ؟ ولكنّني لا أريد أن ألمس مخمل ردائك كي لا أجعّده . ولكن ، هل ترين ، كان من الضروري أن أثبّت الأزهار ، كانت ستقع ؛ وهكذا عندما غرزتها قليلاً بنفسي ... حقاً ، ألم أكن مزعجاً ؟ وكذلك إذا تنشّقتها لأجد إذا كانت بدون رائحة ، الا أزعجك ؟ لم أتنشّق أبداً هذه الرائحة ، هل بإمكاني الآن ؟ أجيبيني بالحقيقة .

مبتسمة ، هزّت كتفيها ، كأنها ستقول « أنت مجنون ، تعرف جيّدا أن هذا الشيء يغبطني » .

كان يرفع يده الأخرى على امتداد خدّ « أوديت » ؛ ركّزت نظرها عليه بحنان عاشق ، مسترخٍ ، وبرصانة نساء الرسّام الفلورنسي ، حيث كان « سوان » يشبّهها بهنّ ؛ عيناها كانتا تبرقان على طرف جفنيها ، كبيرتان ودقيقتان مثل عيونهنّ ، ومثل كأنّهما على مشارف السقوط ، كدمعتين . كانت تحني عنقها كما يحنين أعناقهنّ في اللوحات الوثنية كما في اللوحات الدينية . وبمظهرٍ كانت معتادة عليه ، وكانت تتقن استعماله وتتنبّه لعدم نسيانه ، كانت وكأنّها بحاجة إلى استعمال كامل قوّتها لتجمّد وجهها ، كأنّ قوة خفيّة تشدّها صوب « سوان » . « سوان » ، هو الذي ، قبل انحناء وجهها ، وكما بالرغم عنها ، جمده قليلاً على شفتيه ، سنده للحظة بعيداً قليلاً عنها ، بين يديه . كان بودّه أن يفسح المجال أمام فكرته لتصل ، وليتعرّف على الحلم الذي دغدغ مخيلتها منذ وقت طويلٍ ويشهد تحقيقه ، مثلما ندعو قريبة ما لتشهد نجاح طفل أحبّته كثيراً . ويمكن ايضاً أنّ « سوان»كان يركّز نظراته على وجه

« أوديت » هذا ، الذي لم يمتلكه بعد ، الذي لم يقبّله بعد وكأنّه يراه لآخر مرّة ، هذه النظرات حيث من خلالها ، يوم رحيل ما ، بودّنا أن نضمّ داخلنا منظراً لا نعود نراه أبداً .

ولكنّه كان خجولاً معها لدرجة ، بالرغم من أنّه كان قد امتلكها هذا المساء ، بادئاً بترتيب أزهار « الكاتْلِيا » ، أو خائفاً من إغضابها ، أو بعيداً عن الجرأة ليتطلّب أكثر من هذا (والذي كان باستطاعته أن يعود ويطلب هذا الشيء مادام أنَّ «أوديت» لم تغضب بعد أن حقّقه مرّة أولى) . خلال الأيّام التالية استعمل الحجّة ذاتها . إذا كانت تضع أزهار « الكاتْلِيا » على صدرها كان يقول : « هذا مؤسف ، هذا المساء أزهار « الكاتْلِيا » ليست بحاجة إلى ترتيب ، فهي ليست مبعثرة كالليلة الماضية ؛ يتهيّأ لي أن إحداها ليست في مكانها . هل بإمكاني أن أتنشقّها لأتأكّد إذا كانت رائحتها أفضل من رائحة الأزهار الماضية ؟ » أو إذا لم تكن تزيّن صدرها بـ « الكاتْلِيا » : « أوه ! لا توجد « كاتْلِيا » هذا المساء ..لا مجال إذن لترتيبها » . هكذا ، في فترة ما ، لم يكن يتغيّر الأسلوب الذي كان قد استعمله الليلة الأولى عندما كان قد بدأ بتمرير أصابعه وشفتيه على عنق « أوديت » . وبواسطة الأصابع والشفتين كان يبدأ دغدغته كل مرّة ؛ وبعد زمن طويل ، أثناء الترتيب (أو خلال مظهر الترتيب الطقسي) ، عندما كان ظهور « الكاتْلِيا » قد غاب منذ وقت طويل ، تحوّلت هذه الاستعارة : « نفعل كاتْلِيا » إلى لفظة غريبة كانا يستعملانها بدون تفكير عندما يعنيان ممارسة الجنس ـ حيث ، على كلّ حال ، لم يكن أحد يملك

شيئاً ـ وقد استمرّت هذه اللفظة في لهجتها حيث كانت تتذكّرها، من خلال هذه الممارسةالمنسيّة. ويمكن، هذا النهج الخاص، في قولها «نمارس الجنس»، لم يكن يعني، بالتحديد، سوى هذا الترادف. مهما نكن غير مبالين بالنساء، ومهما اعتبرنا أن امتلاك النساء هو ذاته حتى لو كنّ مختلفات، وبما أنه قبل الممارسة الجنسية، تصبح المرأة، بالعكس، لذّة جديدة إذا تمّت الممارسة مع نساء لا يُمتلكن بسهولة ـ أو ما يتهيّأ لك أنّه كذلك ـ حتى نكون مجبرين بأن نجعل هذا الامتلاك يوحي، من خلال مرحلة ما غير متَـظَرة من علاقـاتنا مـع النسـاء، مثلما كـانت المـرّة الأولى لـ «سوان»: ترتيب «الكاتْلِيا». كان يتأمّل وهو يرتجف، هذا المساء، (ولكن «أوديت» يقول لنفسه، ولو انّها سقطت في لعبته، لا تستطيع أن تكتشف أفكاره)، أنَّ امتلاك هذه المرأة هو الذي سيخرج من بين براعمها الزهرية الوسيعة؛ والمتعة التي كان قد يشعر بها، حيث من الممكن أن لا تعجب «أوديت»، يظنّ، لأنّها لم تكن قد تعرّفت عليها، تراءت له، لسبب ذلك ـ مثلما كانت تتراءى لأوّل رجل تذوّقها من خلال أزهـار الفردوس الأرضي ـ متعة لم تكن قد وُجدت حتى الآن، كان يبحث أن يخلقها، متعة ـ حيث اللفظ الخاص الذي قد أعطاه لها حفظ الأثر ـ خاصة وجديدة كلّياً.

في الوقت الحاضر، كلّ ليلة عندما يعود بها إلى المنزل، كان يدخل معها، ومراراً، كانت تخرج من جديد بثوب المنزل وتوصله إلى عربته وتقبّله أمام السائق قائلة: «لا يهمّني هذا

الشيء ، ولا أهتم للآخرين ؟ » الليالي التي لم يكن يذهب خلالها إلى منزل « آل فردوران » « هذا ما كان يحصل بعض المرّات منذ الوقت الذي بدأ يرى فيه « أوديت » خارجهم » . هذه الليالي التي بدأت تكون نادرة ، لأنّه كان يخرج إلى المجتمع والناس ، كانت تطلب منه أن يمرّ عليها قبل دخوله إلى منزله في أية ساعة . جاء الربيع ، ربيع نقي وبارد . عند خروجه من السهرة ، وهو يصعد إلى عربته « فيكتوريا » ، كان يغطّي رجليه ، يجيب الأصدقاء الذين كانوا يخرجون معه ، في آن واحد ، ويطلبون منه أن يعود برفقتهم ، بأنّه لا يستطيع ، ولم يكن يذهب في الاتجاه نفسه . كان سائقه يسرع مدركاً إلى أين هما ذاهبان . الأصدقاء ، كان يمتلكهم العجب ، وفعلاً ، « سوان » ، تغيّر كثيراً . لم يعد أحد يتسلّم منه رسائل يطلب عبرها أن يتعرّف على امرأة ما . لم يعد يكترث بأية امرأة أخرى ، يتجانب دخول الأماكن حيث من الممكن أن يقابل إحدى النساء .

تصرّفاته الحالية ، في مطعم أو في الريف ، أصبحت نقيض تصرّفاته بالأمس ، التي كان معروفاً من خلالها والتي كانت ممتزجة بطبيعته ومن الصعب تغييرها . بمقدار ما يكون الهوى فينا مثل سمة مؤقتة ومختلفة ، تُستبدل بسمة أخرى ، ويمحو الدلا ئل التي لم تكن قد تغيّرت حتى الآن ، والتي من خلالها كانت السمة تعبّر عن ذاتها ! بالمقابل ، الذي لم يتغيّر الآن ، هو أنَّ « سوان » في أي مكان وُجد ، كان يذهب لمقابلة « أوديت » . المسافة التي كانت تفصله عنها هي المسافة التي كان يعبرها كلّ يوم بشكل حتمي ،

ومثل منحدر الحياة السريع الذي لا يقاوَم . بالحقيقة ، معظم المرّات عندما كان يتأخر في جلساته ، كان يفضّل أن يعود مباشرة إلى منزله، دون أن يعبر الطريق الطويل حيث يقرّررؤ ية«أوديت»في اليوم التالي ؛ ولكن أن يزعج نفسه في مثل هذا الوقت غير الطبيعي ليذهب إليها ، عالماً بأن الأصدقاء الذين يودّعونه يتساءلون : « إنّه « مشغول جداً » . توجد امرأة أكيداً تجبره على أن يمرّ عليها في أية ساعة كانت » ، وهذا ما كان يجعله يشعر بأنّه كان يعيش حياة الرجال الذين لديهم في حياتهم مشاغل عاطفية ، حيث يضحّون براحتهم وأعمالهم من أجل حلم ممتع ، وهذا ما يولّد في ذواتهم سحراً داخلياً . عندما أصبح أكيداً من أنّها تنتظره ، وأنّها لن تكون في مكان آخر مع سواه ، وأنّه لن يعود دون أن يراها، زال قلقه المنسي، ولكن كان دائماًمهيّئاًلأن ينبت بشكل مفاجىء ، كان قد شعر به ذات مساء ، عندما « أوديت » كانت قد ذهبت من عند « آل فردوران » ، وحيث حالة الهدوء الحاضرة كانت عذبةلدرجةأنّهاقدتُسمّى سعادة . ويمكن ، بسبب هذا القلق ، عرف قيمة « أوديت » والأهمية التي صارت لها في حياته . في الأساس ، الناس قد لا تعني لنا شيئاً ، ولكن عندما نضع في شخص معيّن كلّ ما لدينا من آلام وأفراح ، يتهيّأ لنا أنّه يأتي إلينا من عالم آخر ، مسوّراً بالشعر ، يحوّل حياتنا إلى مسافة مؤثّرة يتنزّه داخلها بعيداً أو قريباً منّا . لم يكن « سوان » يستطيع أن يفكّر ، بدون اضطراب ، بمصير « أوديت » بالنسبة إليه ، في السنوات الآتية . مرّات ، عندما يشاهد من عربته

« الفيكتوريا » ، في هذه الليالي الجميلة الباردة ، القمر المشعّ الذي ينشر ضوءه بين عينيه والشوارع المقفرة ، كان يفكّر بهذا الوجه المضيء ذي اللون الزهري الخفيف وكأنّه القمر ، والذي ، ذات يوم نبت في ذهنه ، ومنذ تلك اللحظة ، كان يلقي على العالم الضوء الغامض ، الذي كان يرى العالم من خلاله . إذا كان يصل في موعد تكون « أوديت » خلاله قد أرسلت خدمها ليناموا ، قبل أن يضغط على جرس الحديقة الصغيرة ، كان يتجه صوب الشارع الذي يواجه الطابق الأرضي . بين النوافذ المتشابهة والمظلمة للفنادق المتلاصقة ، كانت نافذتها الوحيدة ، المضاءة . كان ينقر على الزجاج ، وهي ، على علم بذلك ، أجابت وذهبت لتستقبله من الجهة الثانية للباب الرّئيسي . على البيانو ، دفاتر الموسيقى كانت مفتوحة على الصفحات التي تفضّلها : « فالس الورود » أو « المجنون البائس » لـ « تاغليافيكو » (التي كانت قد طلبت بوصّيتها ، أن يعزفوا لها هذه المقطوعة يوم دفنها) . طلب منها أن تعزف عوضاً عن هذه المقطوعة عبارة « السونات » لـ « فينتوي » ، بالرغم من أنّ « أوديت » تعزف بشكل سيء ، ولكن الرؤ ية الأجمل التي تبقى لنا من معزوفة ما هي غالباً التي ترتفع إلى ما فوق النغمات غير الصحيحة والتي تعزفها أنامل غير ماهرة ، وعلى آلة ذات أوتار مشوّشة . العبارة الصغيرة كانت بنظر « سوان » تنسجم مع حبّه لـ « أوديت » . كان يشعر جيداً ، بأنّ هذا الحبّ لم يكن يتناسب مع أي شيء خارجي ، ولم يكن أحد سواه يستطيع ملاحظته ؛ لقد أدرك أن صفات « أوديت » لم تكن

تبرّرتعلّقه إلى هذا الحدّ باللحظات التي أمضاها معها . ومراراً ، عندما كان الذكاء الإيجابي هو أكثر ما يسيطر على « سوان » ، كان يودّ أن يتوقّف عن أن يضحّي بهذا المقدار باهتماماته الثقافية والاجتماعية من أجل هذه المتعة الوهمية . ولكنّه لحظة كان يستمع إلى العبارة الصغيرة ، كان يعرف كيف يحدّد في ذاته المسافة التي كانت تحتاجها . المسافات الروحية تغيّرت عند « سوان » . مجال صغير احتفظ به للذّة، هي أيضاً ، لم تعد تتناسب مع أي شيء خارجي ، والتي عوضاً عن أن تكون ذاتية بصورة كلّية ، مثل لذة الحبّ، قدفُرضت على«سوان»كأنّهاواقع يرتفع إلى مافوق الأشياء الملموسة . هذاالعطش من سحرٍ مجهول توقظه في نفسه العبارةالصغيرة، ولكن لاتقدّم له شيئاًلترويه. بحيث أن هذه الأجزاء من روح « سوان » ، حيث العبارة الصغيرة كانت قد محت هموم المناسب المادّية ، والاهتمامات الإنسانية الصحيحة لكلّ الناس ، كانت قد تركتها خالية وكان « سوان » حرّاً في أن يضع داخل أجزاء روحه إسم « أوديت » . إذا كانت عاطفة « أوديت » عابـرة ومخيّبة للآمال ، كانت العبارة الصغيرة تضيف وتمزج نكهتها الساحرة . عندما تشاهد وجه « سوان » حين كان يستمع لهذه العبارة ، كان يتهيّأ لك أنّه يتناول مخدراً يوسّع له مسافة تنفسّه . والمتعة التي كانت تقدّمها له الموسيقى ، والتي ستخلق عنده حاجة حقيقية ، كانت تشبه فعلاً ، في هذه اللحظات متعته في ما لو كان يجري تجارب على العطور ، وتدخل إلى عالم نحن غرباء عنه ، يتهيّأ لنا أنّه بلا شكل لأن عيوننا لا تراه ، بدون معنى ، لأنّ ذكاءنـا

لا يستوعبه ، والذي لا نلمسه إلاّ من خلال إحساسٍ واحد . استراحة كبيرة ، تجديد ساحر لـ « سوان » ـ بالنسبة إليه ، حيث عيناه ، بالرغم من أنّهما كانتا هاويتين دقيقتين للرسم ، من خلال التصور ، بالرغم من أنّه مراقب دقيق للأخلاق ، كان يتلبّس بصورة نهائية الأثر الذي لا يمّحى لجفاف حياته ـ الذي كان يشعر بأنّه قد تحوّل إلى شخص غريب عن الإنسانية ، أعمى ، مجدّدٍ من القدرات المنطقية ، يشبه إلى حدّ ما وحيد قرن خيالي ، مخلوقاً وهمياً لا يرى العالم إلا من خلال السمع . وكما كان يبحث في العبارة الصغيرة ، رغم كلّ شيء ، عن معنى ما ، حيث ذكاؤه لن يستطيع أن يدخله ، أية نشوة غريبة كانت تدفعه لأن يعرّي روحه الأكثر عمقاً من كل استغاثات التعقّل ، وأن يجعلها تعبر وحدها في الممرّ ، وفي مصفاة الصوت الغامضة ! كان قد بدأ يكتشف كم كان هنالك وجع ، ويمكن أنّه اكتشف أيضاً شيئاً ما تحت نعومة هذه العبارة ، وهو قلّة الاطمئنان ، ولكن ، لم تكن تقوى على تعذيبه . ماذا يهمّه أن تقول له إنّ الحبّ شيء هشّ ، حبّه هو ، كان قويّاً ! كان يلعب مع الحزن الذي كانت توزّعه العبارة . يشعر بعبور الحزن في نفسه ، ولكنّه كان مثل دغدغة تجعل شعوره ، بالسعادة ، أكثر قوّة ونعومة . كان يطلب من « أوديت » أن تعيد عزف العبارة عشر مرّات ، عشرين مرّة ، وفي الوقت نفسه يطلب منها أن لا تكفّ عن تقبيله . كلّ قبلة تنادي قبلة أخرى . آه ! في اللحظات الأولى من الحبّ ، القبلات تولد طبيعية ! تنمو بعجلة ، بعضها يلامس بعضها الآخر ؛ ومن

الصعب أن نحسب القبلات التي أعطيناها لبعضنا البعض خلال ساعة وهي تعادل الأزهار التي توجد في الحقل خلال شهر أيّار. كانت تحاول إظهار نفسها بأنّها توقّفت عن العزف، قائلة: «كيف تريدني أن ألعب هكذا وأنت تمسكني، لا أستطيع أن أفعل كل شيء دفعة واحدة، إعرف على الأقل ماذا تريد، هل تريدني أن أعزف هذه العبارة أو أن أداعبك قليلاً؟ هو، كان يغضب، وهي، كانت تضحك ضحكة تتحوّل إلى قبلات تنهمر عليه كالمطر، أو، كانت تنظر إليه بوجه عابس. كان يرى وجهاً جديراً بأن يظهر في لوحة «حياة موسى» لـ «بوتيتشللي». كان يضعه في مكانه. يعطي لعنق «أوديت» الانحناءة اللازمة؛ ولأنّها كانت مرسومة جيّداً بواسطة الفولاذ، في القرن الخامس عشر، على جدار كنيسة «السكستين»، كان يفكّر بأنّها قد جلست هنا بالقرب من البيانو، في اللحظة الحاضرة، مستعدة لأن يقبّلها ويمتلكها. فكرة أن تكون ملموسة وحيّة كانت تُسكره كثيراً لدرجة أن نظره قد ضاع. فكّاه متوخّبان كأنّه سيلتهمها، وكان يثب إلى هذه العذراء لـ «بوتيتشللي» ويقرص خدّيها. وبعد أن يتركها، دون أن يعود ليقبّلها مرة ثانية، لأنّه كان قد نسي أن يحمل معه بذاكرته شيئاً ما خاصاً من عبيرها أو من تقاطيعها، وهو عائد في عربة «الفيكتوريا»، كان يبارك «أوديت» التي تسمح له بهذه الزيارات اليومية حيث يشعر بأنّها لا تقدّم لها السعادة الكبيرة، ولكن عندما تسمح له هذه الزيارات بأن لا يغار ـ تلغي له سبب عذابه مرّة ثانية من الوجع الذي قد كشفه ذاك المساء الذي لم يعثر عليها عند «آل فردوران»

ـ وتساعده على أن يصل ، بدون أن تعاوده هذه الأزمات حيث كانت أولاها موجعة جداً وكانت ، ربّما ستبقى وحيدة . على طرف هذه الساعات المفردة في حياته ، ساعات مسحورة تقريباً ، كانت تشبه مثيلاتها عندما كان يعبر باريس خلالها على ضوء القمر . وملاحظاً حين عودته أنّ الكوكب قد انتقل من مكانه بالنسبة إليه ، وتقريباً صار ، على حدود الأفق ، كان يشعر بأن حبّه ، أيضاً ، كان مقيّداً بقوانين طبيعية وثابتة . كان يتساءل عمّا إذا كانت هذه المرحلة ، التي دخلها ، ستستمر طويلاً أيضاً ، وإذا في الآتي القريب ، لن تعود فكرته تتصّور هذا الوجه العزيز الذي يحتل مسافة طويلة ومختصرة ، والذي سيتوقّف عن نشر سحره في مرحلة قصيرة آتية . لأنّ « سوان » ، أصبح يرى الأشياء ، منذ أن أصبح عاشقاً ، كما في الوقت الذي كان فيه مراهقاً . كان يظنّ نفسه فناناً ؛ ولكن لم تكن الجاذبية ذاتها ؛ هذه الجاذبية كانت « أوديت » الوحيدة التي تمنحها للأشياء . صارت تولّد فيه ، مجدّداً ، وحي شبابه ، حيث كانت قد أضاعته ، حياة باطلة ، ولكن ، كانت كلّها تحمل انعكاس ، وبصمة شخص خاص . وأثناء الساعات الطويلة التي كان يمضيها في منزله ، وحيداً مع روحه ، وهي في مرحلةالنقاهة، صار يعودشيئاًفشيئاًإلى نفسه ،ولكن إلى نفس أخرى .

لم يكن يذهب إليها إلا في المساء وكان يجهل كلياً كيف كانت تمضي وقتها أثناء النهار ، كما كان يجهل كلّ شيء أيضا عن ماضيها ، لدرجة أنه كانت تنقصه ، حتى هذه المعلومات البدائية ، التي ، بمقدار ما تسمح لنا بأن

نتخيّل ما لسنا نعلمه ، تعطينا الرغبة في أن نتصّرف عليه . أيضاً ، لم يكن يتساءل ماذا كان باستطاعتها أن تفعل ، ولا كيف كانت حياتها . كان يبتسم فقط ، مراراً ، عندما يفكّر بأنّه منذ بضع سنوات ، حيث لم يكن قد تعرّف بها بعد ، كانوا قد أخبروه عن المرأة التي ، إذا كان يتذكّر جيداً ، قد يمكن أن تكون هي بالذات ، كما عن فتاة أو عن امرأة ينفق عليها عشيقها . كأنّها كانت إحدى تلك النساء اللواتي كان يعتبرهنّ ، حتى الآن ، بما أنّه قد عاشرهنّ قليلاً ، ذوات طبع متصلّب وفاسد كلياً ، حيث خيال بعض الروائيين كان قد وهب ، لمدّة طويلة ، هذه الخصائص لتلك النساء . كان يعتقد بأنّه ، في أكثر الأوقات ، يجب أن يقف الإنسان عكس ما يشيّعه الناس عن السمعات حتى يستطيع أن يحكم على الشخص بشكل دقيق ، وذلك عندما كان يقارن ، بهذا الطبع ، طبع « أوديت » : طيبّة ، بريئة ، عاشقة المطلق ، لدرجة أنّها لا تقوى على إخفاء الحقيقة . مرّة ما ، رجاها أن تتناول طعام العشاء معه وأن تكتب لـ « آل فردوران » بأنّها متعبة ، وفي اليوم التالي رآها ، أمام السيّدة « فردوران » ، التي سألتها إذا كانت حالتها قد تحسّنت ، احمرّ وجهها ، تلعثمت وانعكست الكآبة على مظهرها ، بدون إرادتها ، وبعذاب من يؤرّقه الكذب ، وأخذت تكثر في شرح أدقّ تفاصيل أسباب مرضها المزعوم ، الليلة السابقة ، وبدت كأنّها تطلب السماح ، من خلال نظراتها المتوسّلة وصوتها الآسف ، لسبب كلامها الكاذب .

لكن في بعض الأيّام ، ولكنّها نادرة ، كانت تأتي إليه خلال

بعد الظهر ، تقطع تأمّله أو دراسته عن « فيرمير » الذي عاد واستأنف عمله فيها مؤخراً . عندما كانوا يبلّغونه بأنّ السيّدة « دوكريسي » موجودة في الصالون الصغير ، يذهب لمقابلتها ، وعندما يفتح الباب : على وجه « أوديت » الورديّ ، لحظة تشاهد « سوان » ، كانت تأتي محوِّلة حركة فمها ، نظرة عينيها ، تفصيل خدّيها ـ ابتسامة تتلّبس وجهها . عندما يصبح وحيداً ، كان يتراءى ، من جديد ، ابتسامتها التي كان قد شاهدها أمس ، أو ابتسامة أخرى حيث كانت قد استقبلته فيها ، هذه المرّة ، أو تلك . الابتسامة التي كانت بمثابة جوابها عندما سألها في العربة عمّا إذا كانت قد تنزعج من ترتيب « الكاتْلِيا » على صدرها ؛ وحياة « أوديت » خلال بقية الوقت ، بما أنّه لم يكن يعلم عنها شيئاً ، كانت تظهر له ، بعمقها البلا حضور ولا لون شبيهة بأوراق دراسات « فاتو » ، حيث نرى ، من هنا ومن هناك ، وفي كلّ مكان ، في كلّ الجهات ، مرسومة بأقلامٍ ثلاثة ، على ورق الشاموا ، العديد من الابتسامات . ولكن ، مرّات ، في زاوية ما من هذه الحياة التي كان يراها « سوان » فارغة كلّياً ، وحتى إذا أكّد له عقله أنّها بالعكس ، لأنه لا يستطيع أن يتصورها ، أحد أصدقائه ، الذي ، ليس غريباً عن حبّه لـ « أوديت » ، لم يكن يجازف في أن يقول له شيئاً عنها ، بدون أهمية . كان يصف له قَوَامها ، حيث كان قد رآها في الصباح ذاته ، تسير في شارع «أبّا توتشي » ، مرتدية معطفاً قصيراً مكسوّاً بالفرو ، وقبعة تشبه قبعات نساء « رامبرانت » ، وباقة من البنفسج على صدرها . هذه

المعلومات البسيطة كانت تزعج « سوان » ، لأنّه كان يكتشف فجأة أنّ حياة « أوديت » لم تكن له بكاملها ؛ كان يودّ أن يعرف بسبب من ارتدت هذه الملابس التي يجهلها ؛ قرّر أن يسألها عن زيارتها ، في ذلك الوقت ، كأن في كلّ الحياة التي بلا لون ـ تقريباً غير موجودة ، لأنّه لم يكن يراها ـ لم يكن يوجد غير شيء واحد خارج كلّ الابتسامات التي كانت تمنحها له : مشيتها تحت قبعتها « الرامبرانت » وباقة من البنفسج على صدرها .

باستثناء إنه عندما كان يطلب منها عبارة « فينتوب » بديلاً عن « فالس الورود » ، لم يكن « سوان » يجرّب أن يجعلها تعرف أشياء يحبّها هو ، كما في الأدب أو الموسيقى ، لم يكن يحاول أن يصحّح ذوقها السّيّء . كان يعلم جيداً بأنّها لم تكن ذكية . عندما كانت تطلب منه أن يحدّثها عن الشعراء الكبار ، كان يُوحي لها أنّها ستتعرّف فوراً على زوجين بطلين وورومنسيين من نوع أبطال « الفيكونت دو بوريللي » ، وأكثر تأثيراً ربّما . عن حياة « فيرمير دو دِلف » ، سألته إذا كان قد تعذّب بسبب امرأة ، وإذا كان قد استمدّ وحيه من امرأة ما ، وعندما اعترف لها « سوان » بأن أحداً لا يعلم شيئاً بهذا الخصوص ، لم تعد تهتمّ بهذا الرسّام . غالباً ما كانت تردّد : « أؤمن جيّداً ، الشِعر ، طبعاً ، لن يكون شيئاً أجمل لو كان صحيحاً ، لو كان الشعراء يفكّرون بكلّ الذي يقولونه . ولكن مرّات عديدة ، لا يوجد أشخاص أكثر نفعية من هؤلاء . أعرف شيئاً عنهم . كان عندي صديقة أحبّت شاعراً ما . في قصائده ، لم يكن يتحدّث إلاّ عن الحبّ ، عن السماء ،

عن النجوم . آه ! لقد تراجعت عن أفكارها ! « قضم » لها ثلاثمائة ألف فرنك » . إذا حاول « سوان » أن يعلّمها ماذا يعني الجمال الفنيّ ، كيف يجب أن نتأمّل القصائد أو اللوحات ، كانت تتوقّف ، بعد لحظة ، عن السماع وتقول : « أجل . . . لم يكن يتهيّأ لي أن هذا الشيء هو على هذه الصورة » . وكان يشعر بأنّها كانت تصاب بخيبة أمل لدرجة أنّه كان يفضّل أن يكذب عليها ويقول لها إنّ كلّ الذي سمعته لا يعني شيئاً ، كلّه تفاهات ، وليس لديه وقت ليصل إلى عمق الشيء ، وإنّه كان هنالك شيء آخر . ولكنّها كانت تقول له ، بحرارة : « شيء آخر ؟ ماذا !!! . . . قله لي إذن » ، ولكنه لم يقله لها ، عالماً جداً كم سيتهيأ لها هذا طفيفاً ومختلفاً عن الشيء الذي كانت تتأمّله ، أقلّ أهمية وأقل تأثيراً ، وخاشياً من أن تغيب أحلامها الفنيّة فيغيب حبّها له .

وفعلاً ، كانت تلاقي « سوان » ، ثقافياً ، دون المستوى الذي كانت تتصوّره عنه . « تبدو بارداً دائماً ، لا أستطيع أن أفسّرك » . كانت تبتهج أكثر من قلة اهتمامه بالمال ، من لطفه مع كلّ إنسان ، من رهافته . وهذا يحصل ، فعلاً ، مراراً ، لما هو أهمّ من « سوان » : لعالِم ، لفنّان ، عندما لا يكون مجهولاً من الذين يحيطون به ، حيث شعورهم الذي يبرهن بأنّ ذكاءه المتفوّق قد فرض نفسه عليهم ، ليس إعجاباً بأفكاره ، لأنّها تفلت منهم ، ولكن احتراماً لطيبته . وكان هو أيضاً الاحترام الذي تشعره « أوديت » نحو « سوان » ، بسبب مركزه الاجتماعي ، ولكن لم

تكن تتمنّى أن يدخلها في مجتمعه . ربّما كانت تشعر بأنّه لن ينجح ، وربّما أيضاً ، كانت تخشى من أنّه إذا أتى على ذكرها فقط ، فسيتسبّب في كشف أشياء كانت تخشاها . على كلّ حال ، كانت قد جعلته يعدها بأن لا يتلفّظ باسمها أبداً . السبب الذي من أجله لا تريد أن تدخل المجتمع ، أوضحته له بأنّها سابقاً كانت قد اختلفت مع إحدى صديقاتها التي ، لكي تنتقم ، كانت قد أطلقت ، في ما بعد ، إشاعات تسيء إليها . « سوان » كان يحتجّ : « ولكن كلّ الناس لم يعرفوا صديقتك . ـ بل أجل ، وهذا الشيء يفعل كما بقعة زيت . العالم شرّير جداً . » من جهة ، لم يكن « سوان » يفهم هذه القصّة ، ولكن ، من جهة أخرى ، هذه العبارات : « العالم شرّير جداً » ، « عبارة كاذبة تفعل كما نقطة الزيت » ، هي ، بصورة عامّة ، قابلة للتصديق ، في بعض الحالات كانت تتحقّق حالة « أوديت » ، هل كانت من بين هذه الحالات ؟ كان يتساءل ، ولكن ليس لمدّة طويلة ، لأنّه كان هو أيضاً ، هدفاً ، لهذه البلادة في الذهن التي كانت تثقل رأس والده ، عندما كان يبحث في موضوع صعب . على كلّ حال ، هذا العالم الذي كان يخيف « أوديت » ، إلى هذه الدرجة ، يمكن أنّه لم يكن يوحي لها أبداً رغبات كبيرة ، لأنّها ، لكي تستوعبه بوضوح تام ، كان بعيداً جداً عن العالم الذي تعرفه . مع ذلك . بالرغم من أنّها كانت قد احتفظت ببساطتها بالنسبة لبعض الاعتبارات (كانت مثلاً قد أبقت على صداقة خيّاطة صغيرة منعزلة ، تصعد ، تقريباً كلّ يوم ، السلّم الشديد الانحدار ،

المظلم والنتن) . كانت متعطّشة للأناقة التي لم تكن توحي لها الفكرة ذاتها كما لبقية الناس . بالنسبة إليهم ، الأناقة هي انبعاث من بعض الأشخاص القليلين ، الذين يعكسونها لدرجة بعيدة بعض الشيء ـ أكثر أو أقلّ ضعفاً بنسبة ما نحن قريبون من محور صداقتهم ـ في حلقة أصدقائهم أو أصدقاء أصدقائهم ، حيث الأسماء تشكّل نوعاً من الفهرس . الناس الاجتماعيون يمتلكونها في ذاكراتهم ، لديهم عن هذه المواضيع سعة اطلاع ، حيث أخرجوا ، من خلال هذا الاطلاع ، نوعاً من التذوّق ، ومن اللباقة ، لدرجة أنّ « سوان » مثلاً ، بدون أن يحتاج إلى مراجعة معلوماته الاجتماعية ، عندما يقرأ في صحيفة ، أسماء الأشخاص الموجودين في عشاء ما ، كان باستطاعته أن يميّز على الفور ، دقّة أناقة هذا العشاء ، كما لدى الأديب ، أول ما يقرأ عبارة ، يستطيع أن يميّز ، بالتحديد ، النوعية الأدبية لكاتبها . ولكن « أوديت » كانت من بين الناس (الكثيرين جداً ، مهما يفكّر البعض ، والذين تجدهم على مختلف الدرجات في المجتمع) الذين لا يمتلكون هذه المعرفة ، تتهيأ لهم أناقة من نوع آخر ، تتلبّس مظاهر مختلفة بحسب الوسط الذي تنتسب إليه ، ولكن عندها طابع خاص ـ إذا كان هو الذي تحلم به « أوديت » أو هو الذي تعترف به السيّدة « كوتار » ـ والذي هو مفهوم بشكل مباشر لكلّ الناس . الآخر ، الذي يختص بالناس الاجتماعيين ، هو أيضاً واضح ، ولكن بعد قليل من الوقت . كانت « أوديت » تقول عن أحدهما :

ـ لا يذهب إلى غير الأماكن الأنيقة .

وإذا سألها « سوان » ماذا تعني بذلك ، كانت تجيبه بقليل من الازدراء :

ـ الأماكن الأنيقة ، ولو ! إذا كنت في مثل هذا العمر ولا تفهم ما هي الأماكن الأنيقة ، ماذا تريد أن أقول لك ، أنا ؟ مثلاً ، صباح يوم الأحد ، جادّة الامبراطورة ، الساعة الخامسة بعد الظهر دورة البحيرة ، يوم الخميس مسرح « الايدن » ، الجمعة ميدان سباق الخيل ، الحفلات الراقصة . . .

ـ أية حفلات راقصة ؟

ولكن الحفلات التي تقدّم في باريس ، الحفلات الأنيقة ، أقصد أن أقول . مثلاً ، « هيربينغر » ، تعرف ، الذي يعمل عند وسيط يتعامل في البورصة ؟ ولكن أجل ، يجب أن تعرف أنّه رجل مشهور في باريس ، هذا الشاب الأشقر الطويل الكثير السنوبيّة ، يضع دائماً زهرة في عروته ، وفرق شعره من الخلف ، ويرتدي معاطف لونها فاتح ، وهو دائماً برفقة هذه « اللوحة » العتيقة التي ترافقه في جميع دعواته للعروض الأولى . هكذا ! قدّم سهرة راقصة ، الليلة الماضية ، ضمّت كل باريس الأناقة . كم كنت أودّ أن أذهب إلى تلك السهرة ! ولكن كان يجب أن نبرز بطاقة الدعوة على المدخل ولم أستطع أن أحصل على واحدة لتلك السهرة . بالحقيقة ، أفضّل أن لا أكون قد ذهبت ، كانت مجزرة ، ما كنت أستطيع أن أرى شيئاً . كان هذا ، بالأحرى ، ليقول الناس انهم كانوا عند « هيربينغر » . وتعرف ، أنا ،

المظاهر ؟! على كلّ حال ، تعلم جيداً أن بين كلّ مئة شخص يخبرون بأنّهم ذهبوا إلى الحفلة هنالك نصفهم يدّعي ذلك . . . ولكن أستغرب من رجل « مهمّ » مثلك أنّه لم يكن هناك .

ولكن « سوان » ، لم يكن يريد أن يغيّر مفهومها للأناقة ، مقتنعاً بأن مفهومه هو بالذات ليس أصح ، وهو هذا المفهوم أيضاً ، غبيّ ، دون أهمية ، وقد رأى أنه ليس مهماً أن يُعلم عشيقته بالأمر ، لدرجة أنّها ، بعد عدّة أشهر ، لم تعد تهتم بالناس الذين كان يزورهم ، فقط ، كانت تهتمّ ببطاقات الدخول إلى الساحة التي يزِنون عليها فرسان سباق الخيل ، وكذلك ببطاقات مباراة السباق ، وبطاقات العروض الأولى التي كان يحصل عليها من خلال هذه الزيارات . كانت تتمنى أن تكون لديه علاقات نافعة ، ولكن كانت تظنّها بأنّها ليست أنيقة ، منذ الوقت الذي شاهدت فيه المركيزة « دو فيلوباريزيس » تمرّ في الشارع مرتدية رداءً من الصوف الأسود ، مع قبّعة مطرّزة بقطب صغيرة .

ـ ولكن شكلها يشبه شكل عاملة في المسرح ، حارس بناية عجوز ، حبيبي ! هذه ، هي مركيزة ! أنا لست مركيزة ، ولكن يجب أن يغروني كثيراً حتى أخرج إلى الشارع قبيحة على هذا الشكل !

ـ لم تكن تفهم أنّ « سوان » كان يسكن فندق « كي دورليون » الذي ، دون أن تتجرّأ على القول ، كانت ترى أنه لا يليق به .

بالتأكيد ، كانت تدّعي بأنّها تحبّ « التحف القديمة » ،

تتّخذ مظهراً مبهجاً ودقيقاً لتقول بأنّها تحبّ كثيراً أن تمضي نهاراً كاملاً في محلات التحف ، أن تبحث عن « الحاجات العتيقة » ، أشياء من الماضي ، بالرغم من أنّها تتشبّث دائماً بما يتعلّق بموقفها (كأنّه مبدأ عائلي) لم تكن تجيب على الأسئلة ، ولم تكن تؤدّي أية تفسيرات عن الأماكن التي تذهب إليها . مرّة ، حدّثت « سوان » عن صديقة لها كانت قد دعتها إلى زيارتها ، حيث كلّ شيء في منزلها كان « من العصر » . ولكن « سوان » لم يتوصّل إلى أن يجعلها تخبره عمّا يكون هذا العصر . غير أنّها ، بعد التفكير ، أجابته بأنّه « العصر الوسيط » . كانت تعني بذلك أنّه مصنوع من الخشب . وبعد قليل من الوقت ، حدّثته عن صديقتها وأضافت ، بلهجة متردّدة ، وكأنّها تتظاهر بالفهم ، حيث تذكر شخصاً ما تتناول معه العشاء ليلة أمس ، وحيث لم تكن قد سمعت باسمه من قبل ، ولكن الداعين كانوا يعاملونه باحترام كبير وكأنّه شخص مهم جداً . بحيث أن المتحدّث سيعلم جيّداً عمّن تريد أن تتكلّم : « عندها غرفة طعام . . . من القرن الثامن عشر ! » كانت تجد هذا الشيء بشعاً جداً ، معرّى ، كما لو أنّ المنزل لم يكن منتهياً ، النساء كنّ يظهرن قبيحات وهذا النوع من الأثاث لن يشيع أبداً . أخيراً ، وللمرة الثالثة ، تحدّثت في هذا الموضوع ودلّت « سوان » على عنوان الرجل الذي قد صنع غرفة الطعام هذه والتي كان بودّها أن تأتي به ، عندما سيكون لديها المال الكافي ، لترى إذا كان باستطاعته أن يصنع لها واحدة ، ليس ضرورياً أن تكون مثلها ، ولكن تلك التي كانت تحلم بها ، ولسوء

الحظّ ، قياسات فندقها الصغير لم تكن تتّسع لها ، مع خزائن عالية ، وأثاث من عصر النهضة ومداخن كما في قصر « بلوّا » . هذا النهار بالذات ، لَمحت أمام « سوان » عمّا تفكّر بشأن سكنه في « الكي دورليون » ، لقد اعترض على أن غرفة طعام صديقة « أوديت » من طراز لويس السادس عشر . كان يقول ، بالرغم من أن هذا الشيء لا يمكن أن يصير ، من الممكن أن يكون صنعها لطيفاً ، ولكن بالقديم المقلّد : « لا تريد أنّها تعيش مثلك في وسط من الأثاث المحطّم والسجّاد المهترىء » ، قالت له . الحضور البورجوازي يتغلّب عندها على هواية الامرأة اللعوب .

من بين هؤلاء الذين كانوا يحبّون أن يتجوّلوا بين محلات التحف ، الذين كانوا يحبّون الشعر . الذين كانوا يحتقرون الحسابات المهينة . الذين كانوا يحلمون بالشرف والحبّ . . . كانت تشكّل نخبة رفيعة لبقيّة الناس . ليس ضرورياً أن تكون لديك هذه الأذواق بالذات ، لتعلن عنها . كانت تقول عن رجل اعترف لها على مائدة العشاء بأنّه كان يحبّ أن يتجوّل ، وأن يلوّث أصابعه في المحلات العتيقة ، ولم يكن محبّذاً من قبل هذا الزمن المادّي ، لأنّه لم يكن يهتمّ بمصالحه ، وكان ، بسبب هذا ، من زمن آخر . وعند عودتها كانت تقول عنه : « ولكنّه لطيف جداً ، شخص حسّاس ، لم أكن أدرك ! » وكانت تشعر نحوه بصداقة عميقة ومفاجئة . ولكن بالمقابل ، هؤلاء الذين ، مثل « سوان » ، كانت لديهم هذه الأذواق ، ولكنّهم لا يذكرونها ، كانت لا تبادلهم الاهتمام . دون شك ، كانت مضطرّة لأن تعترف

بأنّ « سوان » لم يكن متمسكاً بالمال ، ولكنّها كانت تفكّر أيضاً بوجه عابس : « ولكن هو ليس الشيء ذاته » ، وفعلاً ، الشيء الذي كان ينتجه خيالها ، لم يكن ممارسة التجدّد ، كانت الكلمات . . .

شاعراً مراراً بأنّه لم يكن باستطاعته تحقيق ما تحلم به ، كان يبحث على الأقل ، عن أن يجعلها مسرورة معه ، أن لا يناقض هذه الأفكار العاميّة ، هذا الذوق السيّء الذي كان لديها في كل شيء ، والذي كان يحبّه على كلّ حال كما كان يحبّ كل شيء يصدر عنها ، والذي كان يبهجه أيضاً ، لأنّ هذه الأشياء جميعها كانت تشكّل علامات خاصة ، كان جوهر هذه المرأة يبين من خلالها ويصبح ظاهراً . هكذا ، عندما تظهر فرحة ، لأنّها ستذهب إلى « رين توباز » ، أو إذا كان نظرها سيتحوّل بالعكس إلى جمود ورصانة ، أو إلى قلق وشيء من الارادة ، إذا كانت خائفة من أن تغيب عن عيد الأزهار أو فقط موعد الشاي ، مع « الميفان والتوست » ، في مقهى « تي الشارع الملكي » ، حيث كانت تظنّ أن المثابرة كان لا بدّ منها لتكريس أناقة امرأة ما . « سوان » ، مثاراً مثلنا عندما نكون تجاه براءة طفل أو أمام حقيقة لوحة شخص على وشك أن يتكلّم ، كان يشعر حتى هذه الدرجة بروح عشيقته ، تظهر على وجهه ولم يكن يستطيع أن يقاوم اندفاعه نحوها ليلمسها بشفتيه . « آه ! تريد أن أصطحبها على عيد الأزهار ، هذه الـ « أوديت » الصغيرة ، تودّ أن يتأمّلها الناس ، فليكن ، سأصطحبها ، ليس لنا سوى أن ننحني » . بما أن نظر

« سوان » كان ضعيفاً بعض الشيء ، اضطرّ أن يضع نظّارات للعمل في منزله ، وعندما يذهب إلى المجتمع ، يستعمل نظّارة بزجاجة واحدة حيث كان تشويهها له بسيطاً . المرة الأولى التي شاهدت فيها هذه الزجاجة في عينه ، لم تستطع أن تخفي فرحها : « أرى جنّه لرجل ، دون شك ، هذا شيء أنيق ! كم أنت رائع هكذا ! لقد أصبحت تشبه النبلاء حقاً . لا ينقصك سوى اللقب ! » تابعت بشيء من الأسف . كان يحبّ أن تكون « أوديت » هكذا ، مثلما ، لو كان يعشق واحدة من « بريتون » ، يكون سعيداً لو رآها بلباس مقاطعتها ولو سمعها تقول انها تؤمن بالأشباح . حتى الآن ، مثل كثير من الرجال ، حيث تذوّقهم للفنون ينمو مستقلاً عن الجنس ، أحدهم ، متناقض ، غريب الأطوار ، كان وُجد بين الملذّات التي كان يمنحها لهذا ولذاك ، مغتبطاً ، بمرافقة النساء ، الأكثر فأكثر فظاظة ، بملذّات أعمال ، الأكثر فأكثر أناقة ، يأتي بخادمة صغيرة إلى مغطس مشبّك ، متحرّقاً إلى رؤية مسرحية مبتذلة كان متشوّقاً لسماع كلماتها ، أو لمعرض من الرسم الانطباعي ، ومقتنعاً ، على كلّ حال ، بأنّ سيّدة من المجتمع المثقّف لا تفهم أكثر ولكن لم يكن باستطاعتها أن تصمت بمثل هذه اللطافة .

ولكن ، بالعكس ، منذ أن أحبّ « أوديت » ، وانسجم معها ، يحاول أن يكونا روحاً واحدة تشكّل له شيئاً من الغبطة . كان يحاول أن يهتم بالأشياء التي قد تحبّها ، ويجد لذّة كبيرة ، ليس فقط ، بأن يقلّد عوائدها ، ولكن أيضاً بأن يتبنّى آراءها ، التي لم

تكن مرتبطة بأية جذور مع ذكائها ، ولكن لأنّها تذكّره بحبّه ، الذي بسببه ، كان قد فضّلها . إذا كان يعود عند « سيرج بانيت » ، إذا كان يبحث عن مناسبات ليشاهد قيادة « أوليفيه ميترا » ، كلّ هذا بسبب أن يعيش رغبات « أوديت » ، وليشاركها مناصفة ، في كلّ ما تتذوّق . هذه اللذّة التي يشعرها في التقرب منها ، من خلال الأعمال أو الأماكن التي تحبّها ، كانت تتراءى له أكثر سحراً من أية لذّة جوهرية أخرى ، يشعرها تجاه أشياء أكثر روعة ، ولكنّها لا تذكّره بـ « أوديت » . على كلّ حال ، بما أنّ قناعات شبابه الثقافية قد تركها تضعف ، وبما أنّ شكوكه ، كونه رجلاً اجتماعياً ، كانت ، بصورة غير مباشرة ، قد اخترقت هذه القناعات ، كان يفكّر (أو على الأقل فكّر بهذا لمدة طويلة وتعوّد أن يستمرّ فيه) بأنّ الأشياء التي نتذوقها ، ليست لديها قيمة مطلقة ، ولكن كلّ شيء ينتسب لعصر ، لمستوى ، يعود إلى الزيّ ، حيث الأزياء الأكثر عاميّة تساوي مثيلاتها التي نعتبرها أكثر أناقة . وبما أنّه كان يعتقد بأنّ الأهمية التي كانت تعطيها « أوديت » للحصول على بطاقات افتتاح معارض الرسم ، لم تكن أكثر تفاهة من اللذّة التي كان يشعرها في السابق ، عندما يتناول طعام الغداء في « البرنس دو غال » ، كما لم يكن يفكّر بأنّ الاعجاب الذي تبديه « أوديت » بـ « مونتي ـ كارلو » أو بـ « ريغي » ، هو أكثر مخالفة للصواب من تذوّقه ، هو ، لـ « هولندا » التي توحي لها بأنّها بشعة ولـ « فرساي » التي تجدها حزينة . هكذا ، كان يحرم نفسه من الذهاب إلى هناك ، ويفرح

في أن يعترف لذاته بأنّه لا يذهب من أجلها ، حيث كان راغباً في أن لا يشعر ولا يحبّ إلاّ معها . مثل كلّ ما يحيط بـ « أوديت » ، ولم يكن نوعاً ما سوى شكل كان يراها من خلاله ، ويتحدّث معها ، كان يحبّ معاشرة « آل فردوران » عبرها . هنا ، كما في عمق كلّ التسليات : وجبة طعام ، موسيقى ، ألعاب ، عشاء باللباس الرسمي ، حفلة في الريف ، حفلة مسرحية ، حتى « السهرات الكبرى » النادرة ، التي تقدّم لـ « المملّين » ، كان حضور « أوديت » ، رؤية « أوديت » ، الحديث مع « أوديت » ، هي الشيء المهمّ ، حيث « آل فردوران » يقدّمون لـ « سوان » عندما يدعونه ، الهبة التي لا تثمّن . كان يتمتع في « النـواة الصغيرة » أكثر من أي مكان آخر ، وكان يبحث أن يلاقي لها مزايا حقيقية ، لأنه كان يتهيّأ له ، هكذا ، انّه بسبب تذوّقه لها ، قد يعاشرها طوال حياته . غير أنّه لم يكن يجرؤ على أن يقول شيئاً لنفسه ، خوفاً من أن لا يصدّقه ، إنّه سيحبّ « أوديت » أبداً ، على الأقل ، مفترضاً أنه سيعاشر « آل فردوران » باستمرار (اقتراح مسبق قد يوحي بأقلّ اعتراض على المبدأ من قبل ذكائه) ، كان يتصوّر نفسه ، في المستقبل ، انّه مستمرّ في مقابلة « أوديت » كل مساء ، هذا ليس لأنّه سيحبّها دائماً ، ولكن في الوقت الحاضر ، في الوقت الذي كان يحبّ ، كان يعتقد بأنّه لن يتوقّف يوماً ما عن رؤيتها . هذا كلّ ما يطلبه « ما هذا الوسط الرائع ، يقول لنفسه . كم يمثّل الحياة الحقيقية التي نعيشها هنا ! كم نشعر بأنّنا أكثر ذكاء ، أكثر فنّاً ممّا نكون عليه في المجتمع ! كم

هي السيّدة « فردوران » ، بالرغم من بعض المبالغات الصغيرة التي تُضحك بعض الشيء ، تحبّ الرسم بإخلاص ، الموسيقى ، كم عندها شغف بالأعمال الفنيّة . أية رغبة لديها في أن تُسعد الفنانين ! عندها فكرة غير صحيحة عن الناس الاجتماعيين ، ومع ذلك ، فالمجتمع لديه فكرة أكثر سوءاً أيضاً ، نحن الأوساط الفنيّة ! يمكن أنّه ليس لديّ نَهَم ثقافي كبير لأرويه بالأحاديث ، ولكن أتمتّع جداً مع « كوتار » ، بالرغم من كلماته المبطّنة السخيفة . أمّا بالنسبة للرسّام ، إذا كان ادعاؤه مزعجاً عندما يحاول أن يدهش الناس ، بالمقابل ، فإنّه من أذكى الأشخاص الذين قد تعرّفت عليهم . وبالأخصّ ، هنا ، إنّنا نشعر بالحريّة ، نعمل ما نريد بدون تقيّد ، بدون تكليف . أية مسافة من السعادة نحقّق في النهار في هذا الصالون ! بالحقيقة ، باستثناء بعض الشواذات النادرة ، لن أذهب مطلقاً إلى غير هذا الوسط . ها هنا ، سأمضي ، أكثر فأكثر ، حياتي وسأحقق أحلامي » .

وبما أنّ الصفات التي كان يعتقد بأنّها جوهرية بالنسبة لـ « آل فردوران » ، لم تكن سوى انعكاسٍ عليهم من الملذّات التي قد تذوّقها عندهم حبّه لـ « أوديت » ، كانت تصير أكثر رصانة ، أكثر عمقاً ، أكثر حيوية ، كما هي الملذّات أيضاً . كما كانت السيّدة « فردوران » تقدّم ، بعض المرات ، لـ « سوان » الشيء الوحيد الذي كان يستطيع أن يشكّل له السعادة ، كما ، في سهرة ما ، حيث كان يشعر بالقلق لأنّ « أوديت » كانت تتحدّث مع أحد المدعوين ، أكثر ممّا فعلت مع آخر ، وحيث ، غاضباً

منها ، لم يكن يريد أن يتّخذ المبادرة بسؤالها عمّا إذا كانت تودّ أن تعود معه ، السيّدة « فردوران » التي كانت تحمل الفرح والسلام ، قالت بشكل مفاجىء : «« أوديت » ستعودين بالسيّد « سوان » ، أليس كذلك ؟ » ، كما في هذا الصيف المقبل ، حيث كان يسأل نفسه ، أولاً ، بقلق شديد ، إذا كانت « أوديت » لن تغيب عنه ، وإذا كان سيستطيع أن يستمرّ في رؤيتها كل الأيّام . السيّدة « فردوران » دعتهما ليمضيا فصل الصيف في منزلها بالريف ـ « سوان » ، تاركاً ، دون علمه ، المعرفة والافادة تتسرّبان إلى ذكائه وتؤثران على أفكاره ، توصّل إلى أن يجاهر بأنّ السيدة « فردوران » كانت روحاً عظيمة . عن بعض الأشخاص الرائعين أو المشهورين ، أحد رفاقه القدامى في مدرسة « اللوفر » تحدّث معه عنهم . « أفضّل مئة مرّة « آل فردوران »»، أجابه . وبتفاصُحٍ كان مستجدّاً لديه : « هؤلاء هم أشخاص ذوو شهامة ، والشهامة هي ، في الواقع ، الشيء الوحيد الذي يهمّ ويميّز في هذه الدنيا . هل ترين ، لا يوجد سوى فئتين من الناس : ذوي الشهامة والآخرين ، ولقد أصبحت في عمر حيث يجب أن أتّخذ موقفاً ، أقرّر مرّة بشكل نهائي من يجب أن نحبّه ومن يجب أن نحتقره ، نتمسّك بالذي نحبّه ، ولكي نعوّض الوقت الذي قد أضعناه مع الآخرين ، لا نتركه أبداً حتى موته . هذا جيّد ! أكمل بهذه العاطفة الرقيقة التي نجدها عندما ، حتى بدون أن نحسب لها حساباً ، نقول شيئاً ليس لأنّه صحيح ، ولكن لأنّ لدينا رغبة لأن نقوله وبحيث نصغي إليه بصوتنا الخاص وكأنّه يأتي من خارج

نفوسنا . قُضي الأمر ، لقد اخترت أن أحبّ القلوب الشهمة الوحيدة ، وبأن لا أعيش أبداً إلاّ وسط الشهامة . تسألينني إذا كانت السيّدة « فردوران » ذكيّة فعلاً . أؤكّد لك بأنّها أعطتني البراهين على نبل قلب ، على سموّ روح حيث ، ماذا تريدين ، لا نصل أبداً بدون سموّ مساوٍ للتفكير . دون شك ، إنّها تتمتّع بثقافة فنيّة عميقة . ولكن ليس هذا ، ربّما ، ما يجعلها الأكثر روعة ، ومثل نشاط صغير متفنن ، رائع جداً ، أدّته لي ، مثل انتباه عبقري ، مثل إيماءة أليفة فائقة ، تكشف عن إدراك أعمق للوجود من كلّ المقالات الفلسفية » .

بالرغم من ذلك ، قد يكون باستطاعته أن يقول لنفسه بأنّه كان يوجد أصدقاء قدامى من أقاربه بسطاء مثل « آل فردوران » ، رفاق من أيام صباه شغوفون أيضاً بالفن ، وبأنّه كان يعرف أشخاصاً آخرين ذوي قلوب كبيرة ، وأنه ، مع ذلك ، منذ أن كان قد اختار البساطة ، الفنون والشهامة ، لم يعد يراهم أبداً . ولكن ، هؤلاء ، لم يكونوا يعرفون « أوديت » ، وحتى لو كانوا قد تعرّفوا عليها ، لم يكن يهتم أبداً بأن يقرّبها منه .

هكذا لم يكن يوجد أبداً ، في كلّ وسط « آل فردوران » ، مؤمن واحد أحبّهم أو اعتقد أنّه يحبّهم أكثر من « سوان » . ومع ذلك ، عندما كان السيّد « فردوران » يقول بأنّ « سوان » لا يعجبه كثيراً ، لم يكن يعبّر فقط عن فكرته الخاصّة ، ولكنّه كان يكشف فكرة زوجته أيضاً . دون شك ، كان « سوان » يشعر تجاه « أوديت »بحنان خاص جداً ، فوّت عليه فرصة أن يجعل من

السيّدة « فردوران » منجّيته اليومية ، التكتّم ذاته الذي كان يستعمله عن ضيافة « آل فردوران » ، ممتنعاً في أكثر الأوقات عن المجيء لتناول طعام العشاء لسبب لا يشكّون به إطلاقاً ، وعوضاً عن هذا السبب ، كانوا يرغبون في أن لا تفوتهم دعوة عند « مملّين » . وبالرغم من كلّ الاحتياطات التي كان يتّخذها ليخفي عنهم هذا الشيء ، الاكتشاف التدريجي الذي كانوا يعرفونه عن مركزه الاجتماعي اللامع ، كلّ هذا ، كان يساهم في إثارة غضبهم ضدّه . ولكن السبب الأساسي كان مختلفاً : لقد شعروا وكأن « سوان » يشبه مكاناً محجوزاً لا يمكن اختراقه ، حيث كان يستمرّ في المجاهرة به ، لذاته ، بصمت ، وحيث مثلاً ، لو تكن أميرة « ساغان » مضحكة كما أنّ مُزاح « كوتار » لم يكن مسلّياً ، فعلاً ، وأكثر من أية مرة أخرى ، لم يتخلّ عن لطافته ولم يتمرّد على عقائدهم ، وكانوا يشعرون باستحالة فرض عقائدهم عليه ، وصعوبة أن يتلبّسهم كليّاً ، كما أنّهم لم يصادفوا مثيلاً لعناده عند أي شخص . لقد سمحوا له بأن يعاشر مملّين (الذين في عمق قلبه ، كان يفضّل عليهم ألف مرّة « آل فردوران » و « النواة الصغيرة ») . وإذا كان قد رضي بذلك ، ليعطي المثل الصالح ، فمن أجل أن ينكرهم في ما بعد ، بحضور المؤمنين . ولكن هذا كان إنكاراً علنياً تأكّدوا من أنّهم لن يتوصّلوا معه إلى اقتلاعه .

أي فرق ، مع « واحد جديد » ، كانت « أوديت » قد طلبت منهم أن يدعوه ، بالرغم من أنّها لم تقابله سوى مرّات قليلة ، وكانوا يبنون آمالاً كبيرة ، من خلاله : الكونت

« دو فورشيفيل » ! « لقد كان صهر « سانييت » ، وقد أبهج « المؤمنين » : أمين المحفوظات العجوز كانت لديه تصرّفات متواضعة ، لدرجة كانوا قد توصّلوا أن يظنّوه بأنّه من مركز اجتماعي أدنى من مركزهم ، ولم يكونوا مهيّأين لمعرفة أنّه من وسط غني وارستقراطي نسبياً » . دون شكّ ، كان « فورشيفيل » سنوبيّاً بشكل فظّ ، عندما « سوان » لم يكن كذلك ، كان بعيداً عن أن يصنّف مثل « سوان » ، وسط « آل فردوران » ، بأنّه فوق كلّ الآخرين . ولكن لم تكن لديه هذه الرهافة بطبيعته التي كانت تمنع « سوان » عن المشاركة في الانتقادات ذات الأخطاء الظاهرة التي كانت توجّهها السيّدة « فردوران » ضدّ أشخاص كان يعرفهم . وبالنسبة لموجات الكلام ، المدّعية والعاميّة ، التي كان يطلقها الرسّام في بعض الأيّام ، وبالنسبة إلى المزاحات عن البائع الجوّال التي كان يطلقها « كوتار » وحيث « سوان » ، يحبّ الاثنين ، كان يجد أعذاراً بسهولة ، ولكن لم تكن لديه الجرأة والرياء ليصفّق . « فورشيفيل » ، كان بالعكس ، من مستوى مثقّف يسمح له بأن يكون مندهشاً ، منذهلاً بإحداها ، بدون أن يفهمها ، طبعاً ، ومتلذّذاً بالأخرى . وبالحقيقة العشاء الأوّل عند « آل فردوران » ، حيث كان «فورشيفيل» حاضراً ، وضع في الواجهة جميع هذه الفروقات . عمل على إبراز صفاتها وعجّل (في سقوط) « سوان » .

كان يوجد على هذا العشاء ، بالاضافة إلى المتردّدين باستمرار ، أستاذ من « السوربون » ، « بريشو » ، الذي كان قد

صادف السيّد والسيّدة « فردوران » في منتجع للمياه المعدنية . وإذا كانت اهتماماته الجامعية واطلاعاته الواسعة ، لا تجعل وقت فراغه نادراً جداً ، كان قد أتى ، بطيبة خاطر ، وبصورة دائمة ، إلى عندهم . لأنّه كانت لديه هذه الحشرية ، هذا التطيّر من الحياة ، الذي ، موحّداً مع شكوكية ما متصلة بموضوع دراساتها ، تعطي في أية مهنة ، إلى بعض الناس الأذكياء : أطباء لا يعتقدون بمهنة الطب ، مدرّسون في الثانويات الرسمية لا يعتقدون بالترجمة اللاتينية ، الصيت بأنّ عقولهم غنيّة ولامعة ، وحتى أنهم متفوّقون . كان يتظاهر عند السيّدة « فردوران » بأنّه يبحث عن مقارناته الحاليّة عندما كان يتحدّث عن الفلسفة أو التاريخ ، أولاً لأنّه كان يعتقد بأنّها فقط تهيئة للحياة ، وكان يعتقد بأنّه سيلاقي فعلاً في العشيرة الصغيرة ، ما لم يكن قد عرفه حتى الآن ، إلا في الكتب . ويمكن أيضاً ، بما أنّه قد اتّهم في وقت سابق ، واحتفظ ، بصورة غير مباشرة ، باحترام بعض المواضيع ، كان يعتقد بأنّه سيجرّد الجامعي ، عندما سيمارس مع الجامعيين ، الجرأة التي ، بالعكس ، لم تكن تظهر كجرأة إلا بسبب أنّه استمرّ هكذا .

في بداية تناول الطعام ، بما أنّ السيّد « دوفورشيفيل » ، جالساً إلى يمين السيّدة « فردوران » ، التي كانت قد أتقنت ملابسها من أجل « الجديد » ، كان يقول لها : « إنّه مبتكر هذا الثوب الأبيض » . الدكتور الذي لم يكن يتوقّف عن مراقبتها ، بقدر ما كان متشوّقاً لمعرفة كيف كان مكوّناً ما ندعوه « دو » ، والذي كان يبحث عن مناسبة لجذب انتباهه وأن يزيد تعرّفه به ،

لقط كلمة « أبيض » ودون أن يرفع أنفه من صحنه : « أبيض ؟ أبيض «دوكاستيل» ؟ » وبدون أن يحرّك رأسه ، رمى على الهامش ، يمنة ويسرة ، نظرات حائرة ومشرقة . بينما « سوان » ، بمجهوده المؤلم والعقيم ، الذي ، بذله ليستطيع أن يبتسم ، شهد أنّ هذا التلاعب بالكلام كان غبيّاً . « فورشيفيل » برهن ، في آن واحد ، أنّه قد تذوّق نعومة هذا التلاعب وأنّه يفهم باللياقات ، عندما عبّر ضمن حدود معيّنة عن مرحه ، حيث صراحته قد أثارت إعجاب السيّدة « فردوران » .

ـ ماذا تقول عن عالِم كهذا ؟ سألت « فورشيفيل » . لا يمكن أن نتحدّث جدّياً مدّة دقيقتين معه . هل تقول لهم هكذا في المستشفى ، تابعت وهي تدور جهة الدكتور ، إذن ، إنّكم لا تضجرون هناك كلّ يوم . أرى أنّه يجب عليّ أن أطلب قبولي في المستشفى .

ـ أعتقد أنّني سمعت بأنّ الدكتور كان يتكلّم عن هذه الـ « بلانش دوكاستيل » ، العجوز الشكِسة ، إذا كنت أجرؤ أن أتكلّم هكذا . أليس هو حقيقي ، يا سيّدتي ، سأل « بريشو » السيّدة « فردوران » التي ، قد غشي عليها من الضحك : عيناها مطبقتان ، وجهها مرمي بين يديها حيث فلتت من بينهما صرخات خانقة .

ـ يا إلهي ، سيّدتي ، لم أرد أن أُقلق النفوس المحترمة إذا تواجدت حول هذه الطاولة . . . أعترف مع ذلك بأنّ جمهوريتنا الاثينية الفائقة الوصف ـ كم هي ! ـ بإمكانها أن تشرّف بهذا

العهد « الكابيتياني » المظلم أوّل مدير شرطة قوي الارادة . نعم يا سيّدي المضيف ، نعم ، نعم ، تابع بصوته الأرنّ الذي كان يفكّك كلّ مقطع ، رداً على اعتراض من السيّد « فردوران » . « تاريخ سان ـ ديني » حيث لا نستطيع أن نشكّ بصحة معلوماتها لا تترك أي شك على هذا الصعيد . . . ! لا أحد يمكن أن يكون مختاراً كشفيعة من قِبل طبقة كادحة علمانية أفضل من هذه الأمّ لقدّيس . . . الذي قد أذاقته المرارة ، كما يقول « سوجير » وآخرون ، هي أن « سان برنار » ، حيث معها كل واحد كان يحصل على كمية ما حسب مقامه . . . !

ـ من هو هذا السيّد ؟ سأل « فورشيفيل » السيّدة « فردوران » ، منظره يدلّ على أنّه قوي جداً .

ـ كيف ، ألا تعرف « بريشو » الشهير ؟ إنّه ذائع الصيت في أوروبا كلها .

ـ آه ! هذا هو « بريشو » ، صرخ « فورشيفيل » الذي لم يكن قد سمع جيداً . ليس معقولاً ، تابع معلّقاً عن الرجل الشهير ذي العينين المحملقتين . هذا مهمّ أن نتناول طعام العشاء مع رجل معروف . ولكن ، قولي لي ، إنّك تدعيننا إلى هنا مع ضيوف مختارين . لا يُشعر بالضجر عندكم .

ـ أوه ! تعلم ، ماذا يوجد بنوع خاص ، قالت السيّدة « فردوران » بتواضع ، هو هذا الشيء إنّهم يشعرون بثقة . يتحدّثون عن كلّ ما يريدونه ، والأحاديث تتفجّر كأسهم النار . هكذا « بريشو » ، هذا المساء ، هذا ليس شيئاً : لقد رأيته ، هل

تعلمين ، عندي ، باهراً ، جاثياً على ركبتيه أمامي ولكن ! عند الآخرين ، لم يكن هو الرجل ذاته ، لم تكن لديه روح ، يجب أن تُقتلع كلماته ، إنّه ، تقريباً ، مضجر .

ـ هذا غريب ! قال « فورشيفيل » مذهولاً .

نوع من الفكر ، كما الذي عند « بريشو » ، كان قد ظهر أنّه غبيّ جداً في الوسط الذي أمضى فيه « سوان » شبابه . بالرغم من أنّه ممكن توافقه مع ذكاء حقيقي . وذكاء الأستاذ ، قوي ومليء جداً ، كان بإمكانه ، على الأرجح ، أن يكون مرغوباً من أناسٍ اجتماعيين كثيرين ، حيث « سوان » كان يجدهم نبهاء . ولكن هؤلاء توصّلوا بأن يغرسوا فيه أذواقهم بشدّة وكذلك نفورهم ، على الأقل في كل ما يعني الحياة الاجتماعية وحتى في ما يتعلّق بتفرعاتها ، والتي كان يجب أن تتبع ، بالأحرى ، مجال الذكاء : الحديث ، حيث « سوان » لا يستطيع أن يرى مزاحات « بريشو » غير حزلقات فقط ، عاميّة ودسمة بحيث إنها تثير الاشمئزاز . وكذلك ، كان معدوماً حيث من العادة أن تكون لديه دائماً أساليب جيّدة ، من خلال الصوت الخشن والعسكري الذي كان يتصنّعه ، موجّها إلى كل واحد ، شارة جامعية ! . . . وبالنتيجة ، ربّما يكون قد خسر ، بنوع خاص ، هذا المساء هنا ، من تسامحه ، مشاهداً اللطف الذي تظهره السيّدة « فردوران » لهذا «الفورشيفيل» حيث كانت لدى « أوديت » الفكرة الفريدة لاصطحابه . منزعجاً قليلاً بالنسبة لـ « سوان » ، سألته عند وصوله :

ـ كيف تجد ضيفي ؟

وهو ، عالماً للمرة الأولى بأنّ « فورشيفيل » ، الذي كان يعرفه منذ زمن طويل ، يستطيع أن يعجب امرأة وكان رجلاً جميلاً بما فيه الكفاية ، أجاب : « يا للقذارة ! » بدون شك ، لم تكن لديه فكرة لأن يغار على « أوديت » ، ولكن لم يكن يشعر بأنه سعيد أيضاً كما العادة . «وعندما بدأ « بريشو » ، يخبر تاريخ والدة « بلانش دو كاستيل » التي عاشت مع « هنري بلانتاجينيه » سنوات عدّة قبل أن يتزوّجها » ، أراد أن يتظاهر بأنّه يطلب بقية الحكاية من « سوان » قائلاً له : « أليس كذلك ، سيّد « سوان » ؟ » بلهجة عسكرية نستعملها عندما نتحدّث مع قروي أو لنبثّ الشجاعة في جندي ، وضع « سوان » حدّاً للمظاهر التي يودّ أن يتلبّسها « بريشو » ، موقظاً الغضب الكبير لسيّدة المنزل حيث أجاب ، إذا كانوا يعذرونه ، بأنّه لا يهتمّ كثيراً بـ « بلانش دو كاستيل » ، ولكن كان عنده شيء يريد أن يسأله للرسّام ، كان قد ذهب بعد الظهر ليزور معرض فنّان ، صديق للسيّدة « فردوران » ، كان قد توفّي مؤخراً ، وكان يريد « سوان » أن يعرف من خلاله (لأنّه كان يقدّر ذوقه) إذا كانت توجد فعلاً في هذه الأعمال الأخيرة مهارة أكثر من التي كانت تدهش في الأعمال السابقة .

ـ من خلال وجهة النظر هذه ، كان شيئاً خارجاً عن المألوف ، ولكنّه لم يكن فنّاً « رفيعاً » جداً ، قال « سوان » مبتسماً .

ـ رفيع . . . بمستوى مؤسّسة ، قاطع « كوتار » وهو يرفع ذراعيه برصانة منفعلة .

كلّ الذين كانوا حول الطاولة بدأوا بالضحك . كنت أقول لكن بأنّنا لا نستطيع أن نحتفظ برصانتنا معه ، قالت السيّدة « فردوران » لـ « فورشيفيل » . في الوقت الذي لا ننتظره يطلق كلاماً دون معنى .

ولكن لاحظت أن « سوان » ، فقط ، لم يكن يتخلّى عن رصانته . على كلّ حال ، لم يكن مسروراً بأن يجعله « كوتار » سبباً للضحك أمام « فورشيفيل » . ولكن الرسّام ، عوضاً عن أن يجيب « سوان » بصورة مفيدة ، وهذا ما كان قد فعله على الأرجح ، لو كان معه وحيداً ، فضّل أن يلفت نظر المدعوين ، بما يتعلّق بمهارة الرسّام الغائب .

ـ لقد تقرّبت ، قال ، لأرى كيف كانت مصنوعة تلك الرسمة . وضعت أنفي عليها . حقاً ، آه ! أجل . . . ! لا نستطيع أن نقول بأنّها مصنوعة من الصمغ ، من الياقوت ، من الصابون ، من البرونز ، من الشمس ، من البراز !

ـ وواحد تساوي اثني عشر ، صرخ ، الدكتور ، متأخراً ، حيث لم يفهم أحد تدخله المفاجىء .

ـ كأنّها ليست مصنوعة من أي شيء ، قال الرسّام مجدّداً ، لا نستطيع أن نكتشف اللعبة أكثر من « الروند » أو « الريجنت » وهي أقوى أيضاً من ضربات ريشة « رامبرانت » و « هولز » . كلّ شيء موجود فيها ، ولكن أجل ، أقسم لكم . . . !

ومثلما المغنّون ، يصلون إلى أرفع درجة يستطيعون أن يصلوا إليها ، ثم ، يستمرون على مهل ، اكتفى بالمهمة ، وهو يضحك ، وكأنّ هذه الرسمة أصبحت هزيلة بقدر ما هي جميلة :

ـ رائحة طيّبة ، تصعد إلى رأسك ، تقطع نَفَسك ، تدغدغك ، ولا يوجد أي أمل لتعرف من أي شيء مصنوعة . شيء ساحر ، هذا احتيال ، هذه أعجوبة (منفجراً بالضحك) : هذا شيء غير شريف ! ومتوقفاً ، مجلّساً رأسه برصانة ، متّخذاً صوتاً جهيراً عميقاً حاول أن يجعله مدوزناً ، أضاف : « وهذا وفيّ جداً ! » .

باستثناء اللحظة حيث قال : « أهمّ من « الروند » » ، تجديف سبّب اعتراضاً من قِبل السيّدة « فردوران » التي كانت تعتبر « الروند » أعظم رائعة في الكون مع « التاسعة » و « الساموتراس » ، وللـ : « مصنوعة من البُراز » ، التي قد جعلت « فورشيفيل » يرمي نظرة دائرية حول الطاولة ليرى إذا كانت الكلمة قد عبرت ، ومن ثم ، رسم على فمه ابتسامة ، حياؤها متصنّع ، ومستعطفة . كلّ المدعوين ، باستثناء « سوان » ، ركّزوا أنظارهم على الرسّام مبهورين بإعجاب .

ـ كم هو مسلٍ عندما يتحمّس هكذا ، صرخت ، عندما انتهى ، السيّدة « فردوران » ، سعيدة جداً بأنّ الجوّ العام كان ممتعاً جداً في ذات اليوم الذي كان السيّد « دوفورشفيل » يزورها خلاله للمرّة الأولى . وأنت ، ما بك تجلس هكذا ، وفمك مفتوح ، مثل الحيوان ؟ قالت لزوجها ، مع أنّك تعرف أنّه يتكلم

جيداً ، كأنّه يصغي لك للمرة الأولى . لو كنت رأيته حينما كنت تتكلّم ، كان يتشرب كلامك . وغداً ، سيعيد لنا كلّ كلامك بدون أن ينسى كلمة واحدة . ولكن كلا ، هذه ليست مزحة ، قال الرسّام ، مغتبطاً بنجاحه ، تعتقد أنني أحاول أن أرغّبك ، ان هذا تصنّعاً ، سآخذك لترى ، ستقول إذا كنت أبالغ ، أراهن أنّك ستعود معجباً أكثر منّي !

ـ ولكن لم نعتقد بأنّك تبالغ ، نريد فقط أن تأكل ، وأن يأكل زوجي أيضاً ، قدّم مجدّداً « سمك موسى » للسيّد ، تجد جيداً أن سمكته قد أصبحت باردة . لم نكن على عجلة أبداً ، إنّك تخدم كما لو كانت هنالك نار ، انتظر قليلاً لتقديم السَلَطة .

السيّدة « كوتار » المتواضعة ، والتي تتحدّث قليلاً ، كانت ، مع ذلك ، واثقة بنفسها عندما كانت تجد كلمة صحيحة من خلال وحي معيّن دقيق . كانت تشعر بأنّ كلمتها تلك ستلاقي ترحيباً ، وهذا ما كان يمنحها ثقة بالنفس . كانت تفعل ذلك ، ليس لتلمع في المجتمع ، بل لتساعد في إنجاح مهنة زوجها . ولهذا ، لم تكن تدع كلمة سَلَطة ، التي كانت قد تلفّظت بها السيّدة « فردوران » تفلت منها .

ـ أليست هذه هي السَلَطة اليابانية ؟ قالت بصوت منخفض وهي تدور صوب « أوديت » .

مثارة وخجولة قليلاً من جرأتها عندما لّمحت بتحفّظ واضح وفي حينه ، إلى مسرحية « دُوْما » الجديدة والباهرة ، انفجرت بضحكة جذّابة وبريئة ، قليلة الضجيج ، ولكن لا تقاوم وقد

استمرت هكذا بضع لحظات دون أن يكون بإمكانها أن تضبطها .
« من هذه السيّدة ؟ إنّها خفيفة الروح » قال « فورشفيل » .
ـ كلاّ ، سنهيّء لكم جوّاً ممتعاً إذا أتيتم جميعكم لتناول طعام العشاء يوم الجمعة .

سأظهر لكم بأنّني قروية أيّها السيّد ، قالت السيدة « كوتار » لـ « سوان » ، ولكنّ لم تشاهد بعد هذه « الفرنْسِيّون » الشهيرة التي يتحدّث عنها كلّ الناس . الدكتور قد ذهب (قال لي حتى أن لديه المتعة الكبيرة بأن يمضي السهرة معك) وأرى أنّه ليس معقولاً أن يحجز أماكن ليعود ويشاهدها معي . طبعاً ، في المسرح الفرنسي ، لا تندم على سهرتك أبداً ، التمثيل دائماً جيّد ، ولكن بما أنّه لدينا أصدقاء لطيفون جداً (السيّدة « كوتار » كانت قليلاً ما تلفظ اسم علم مكتفية بالقول « بعض الأصدقاء » ، « إحدى صديقاتي » ، بسبب نوعية و « أناقة » تربيتها ، بلهجة مفتعلة ، وبأهمية ، هؤلاء الأشخاص ، الذين لا يسمّون إلاّ الذين يريدونهم) وهم مراراً لديهم مقصورات وتفكير طيّب بمرافقتنا إلى جميع الأعمال الحديثة ذات الشأن البارز . أنا ، باستطاعتي مشاهدة « فرنْسيّون » دائماً ، ساعة أشاء ، وتكوين رأي عنها . ولكن يجب أن أعترف بأنني أجد نفسي حمقاء ، بما فيه الكفاية ، حيث ، في جميع الصالونات ، حيث أقوم بزيارة ، لا يتحدّثون ، طبعاً ، سوى عن هذا السَلَطة اليابانية المشؤومة . وقد بدأنا نملّ قليلاً من هذا الشيء ، أضافت ملاحظة ان « سوان » لم يكن مهتماً أيضاً ، كما كانت تعتقد ، بهذا الموضوع اللاهب . يجب أن

نعترف بأنّ هذا يعطي مرّات سبباً لأفكار طريفة . هكذا لديّ صديقة غريبة الأطوار جداً ، مع أنّها امرأة جميلة جداً ، محاطة كثيراً ، معروفة كثيراً ، والتي تدّعي أنّها قد جرّبت السَلَطة اليابانية ، ولكنّها قد وضعت فيها كلّ ما يقوله « ألكسندر دُوْما الابن » في المسرحية . كانت قد دعت بعض الصديقات لتأكلن منها . لسوء الحظّ ، لم أكن من بين المختارات . ولكنّها قد أخبرتنا بهذا الشيء بعد قليل ، في يومها ، يظهر أنّها كانت كريهة جداً ، ولقد جعلتنا نضحك حتى حدود الدمع . ولكن ، تعلمون ، هذا يعود إلى الأسلوب الذي تستعمله ، قالت ، وهي تشهد « سوان » محتفظاً بمظهر رصين .

ومفترضة ، ربّما ، لأنّه لم يكن يحبّ « فرنْسيّون » :

ـ بالنهاية أظنّ بأنني سأُصاب بخيبة أمل . لا أظنّ أنّ هذه المسرحية تساوي « سيرج بانين » ، معبودة السيّدة « دوكريسي » . هذا النوع ، على الأقل ، يضمّ مواضيع عميقة تجعلك تفكّر ، ولكن أن تعطي وصفة سَلَطة على خشبة مسرح فرنسي ! ولكن « سيرج بانين » ! على كلّ حال ، هذا شبيه بكل شيء يأتي من ريشة « جورج أونيه » ، إنّه يكتب دائماً بشكل جيّد جداً . لا أدري إذا كنت تعرف « معلّم الحدادة » الذي أفضّله أيضاً على« سيرج بانين » .

ـ أرجو المعذرة ، قال لها « سوان » ، بشكل ساخر ، ولكن أعترف بأنّ قلّة إعجابي ، هو ذاته تقريباً ، لهذين العملين الكبيرين .

حقاً ، ما هي ملاحظاتك عليها ؟ هل هو تحيّز ؟ هل ترى ربّما أنّ هذا حزين قليلاً ؟ على كلّ حال ، أقول دائماً ، لا يجوز أن نتناقش بشأن الروايات والمسرحيات . كلٌّ منّا له وجهة نظره ، ويمكنك أن تجدي كريهاً ما أحبّه أنا كثيراً .

قطع كلامها « فورشفيل » الذي كان ينادي لـ « سوان » . بالفعل ، عندما كانت السيّدة « كوتار » تتحدّث عن « فرُنْسِيُون » ، « فورشفيل » ؛ عبَّر للسيّدة « فردوران » عن إعجابه بما كان يسمّيه « محاضرة » الرسّام الصغيرة .

ـ السيّد لديه سهولة في الكلام ، ذاكرة ! قال للسيّدة « فردوران » عندما كان الرسّام قد أنهى كلامه . ما قابلت مثله . يا إلهي ! ليت لديّ هذه السهولة في الكلام . قد يعمل واعظاً جيداً. بإمكاننا القول ،إنّه مع السيّد « بريشو » ، لديكم هنا شخصان غريبان يتساويان . لا أدري ، إذا كان بجوهره ، لا يتفوّق على أستاذه . هذا الشيء ينبت لديه بشكلٍ أكثر طبيعية ،بأقل انفعال . بالرغم من أنّه كان واقعياً قليلاً أثناء حديثه ، ولكن هذا ما يتذوّقه الجمهور ، لم أكن أرى مراراً أحداً يمسك المِبقعة بمثل هذه المهارة ، كما كنّا نقول في الكتيبة ، حيث كان لديّ رفيق ، الذي يذكّرني السيّد به قليلاً . بالنسبة لأيّ شيء ، لا أعرف ماذا أقول لكم ، عن هذا الكوب ، مثلاً ، كان يستطيع أن يتكلّم كثيراً جداً ، ليس عن هذا الكوب بالذات ، ما أقوله هو غبيّ ، ولكن عن معركة « واترلو » ، أو أي شيء تريدون ، وكان يمرِّر كلمات أثناء حديثه ، بحيث لم تكن تخطر

على بالكم . على كلّ حال ، كان « سوان » في الكتيبة ذاتها ؛ قد عرفه بالتأكيد .

ـ هل ترى مراراً السيّد « سوان » ، سألت السيّدة « فردوران » ؟

ـ كلاّ ، أجاب السيّد « دوفورشفيل » ، وكأنّه يريد التقرّب أكثر من « أوديت » ، كان يرغب أن يعجب « سوان » ، راغباً أيضاً أن يتمسّك في هذه المناسبة ، ليتملّقه ، أن يتحّدث عن علاقاته الجميلة ، ولكن أن يتحدّث مثل رجل مجتمع ، بلهجة ساخرة ودّية وليس كأنّه يهنّئه على نجاح غير منتظر : « أليس كذلك ، « سوان » ؟ لا أراك أبداً . على كلّ حال ، كيف نعمل لنراه ؟ هذا « الحيوان » ، قابع طوال الوقت عند « آل تريمواي » ، عند « آل لُوْم » ، وعند كلّ الذين من أمثالهم ! . . . » ادّعاء كاذب ، فمنذ سنة ، لم يكن « سوان » يذهب أبداً إلاّ إلى عند « آل فردوران » . ولكن عندما تذكر فقط أسماء أشخاص لا يكون « آل فردوران » يعرفونهم ، كانوا يستقبلون هذا الموضوع بصمت مستنكِر . السيّد « فردوران » ، خائفاً من الانطباع المؤلم حيث أسماء هؤلاء « المملّين » ، وبالأخصّ أنّه قد رماها ، هكذا ، بدون لياقة وفي وجه كلّ المؤمنين ، قد تعكسه على زوجته ، رمى عليها خفية نظرة مليئة بالحنان القلِق . رأى عندئذٍ أنّها قد صممت على أن لا تأخذ علماً ، وبأنّها لا تريد أن تكون من لامسها الخبر الذي قد بلّغوها إيّاه ، وأنّها لن تصمت فقط ، بل أن تكون أيضاً ، طرشاء ، مثلما نتظاهر به عندما يكون صديق على خطأ ، يجرّب أن

يُدخل في الحديث عذراً ، حيث قد يبيّت أنّك قبلت بان تسمعه دون أن تحتجّ ، أو عندما يلفظ أمامنا اسماً ممنوعاً لشخص جاحد ، السيّدة « فردوران » ، لكي لا يوحي صمتها بالموافقة ، ولكن أن يكون كصمت الأشياء الجامدة الجاهلة ، كانت قد جدّدت وجهها من كلّ حياة ، من كلّ تحرّك ، جبينها المقوّس لم يكن سوى تعبير جميل عن حدبة مستديرة حيث اسم هؤلاء الـ « لاتريمواي » ، الذي كان « سوان » قابعاً عندهم باستمرار ، لم يكن بإمكانه أن يدخل إلى جبينها ؛ أنفها المتجعّد قليلاً ، كان يطلّ على فتحة وكأنّه نقل عن الحياة ، ومثل كأنّ فمها المفتوح ، قليلاً ، سيتكلّم . لم تكن سوى شمع ضائع ، قناع من الجفصين ، نموذج مصغّر لنُصْب تذكاري ، تمثال نصفي لقصر الصناعة ، حيث قد يتوقّف الجمهور بالتأكيد ، أمامه ليتأمّل كيف عبّر النحّات ، عن كرامة « آل فردوران » التي لا تخضع لمرور الزمن ، بعكس كرامة « التريمواي » و « اللوْم » ، التي تساويها ، دون شك ، وتساوي كرامة كلّ المملّين على الأرض ، وقد توصّلت ، هذه الكرامة ، أن تعطي عظمة حَبرية ، تقريباً ، لبياض وجمود الحجر . ولكن الرخام ، قد تحرّك في النهاية ، ولّمح إلى أنّه لا يجب أن تكون قرفاً حتى تذهب إلى عند هؤلاء الناس ، لأنّ الزوجة كانت دائماً سكرى ، وكان الزوج جاهلاً لدرجة أنّه كان يلفظ « كولّيدور » ـ ممراً ـ عوضاً عن « كورّيدور » .

ـ قد يدفعون لي غالياً جداً ولن أدع « هذا » يدخل منزلي ، قرّرت ذلك السيّدة « فردوران » ، وهي تنظر إلى « سوان » بمظهر

متعجرف .

دون شك ، لم تكن تتأمّل أنّه سيطيع الأمر لدرجة أنّه سيقلّد عمّة عازف البيانو في تواضعها الطاهر والتي قد صرخت :

ـ هل ترى هذا ؟ ما يدهشني ، أنهم يلاقون بعد أناساً يرضون بالتحدّث معهم ! يتهيّأ لي أنني سأخاف : أن يصاب شخص ما بضربة سيّئة ، هذا من السهل جداً : كيف ستجد بعد أشخاصاً متوحشّين لدرجة أنّهم يركضون وراءهم ؟

ولكن ، لماذا لم يكن يجيب على الأقلّ مثل « فورشفيل » : « بالطبع ، إنّها دوقة ! يجد بعض الأشخاص يتأثرون بعد ، من ذلك»، ماكان سمح للسيّدة«فردوران»على الأقلّ أن تجيب: « أتمنّى لهم كلّ الخير ! » عوضاً عن ذلك ، « سوان » اكتفى بالضحك بمظهر يعني أنّه لا يستطيع حتى أن يأخذ على محمل الجدّ مثل هذه الغرابة . السيّد « فردوران » ، مستمراً في إلقاء نظرات خفيّة على زوجته ، كان يشاهد بحزن ويفهم جداً أنّها كانت تشعر بغضب قاضٍ كبير ، ليس بإمكانه أن يستأصل الهرطقة ، وليجرّب أن يجعل « سوان » يعود عن كلامه كما أنّ شجاعة آرئه تبدو دائماً ، حساباً وجبناً ، بنظر هؤلاء ، الذي يتوجّه هذا الشيء ضدّهم . السيّد « فردوران » ناداه قائلاً :

ـ أعطِ رأيك بصراحة ، لن نذهب لنردّده لهم .

وأجابه «سوان » :

ـ ولكن ليس خوفاً من الدوقة أبداً (إذا كانت تتحدّث عن « التريمواي ») . أؤكّد لك أنَّ كلّ الناس تحبّ أن تذهب إلى

عندهم . لا أقول إنّها « عميقة » (لَفَظ عميقة وكأنّها كلمة مثيرة للسخرية ، لأنّ لهجته كانت محتفظة بقليل من عادات الفكر ، حيث تجدُّد مع ما ، موسوم بحبّ الموسيقى ، كان قد أضاعها له بصورة مؤقتة ـ وكان يعبّر عن رأيه مرّات بحرارة ـ) ولكن ، بصراحة ، هي ذكية وزوجها هـو حقّاً رجـل مثقّف . هما شخصان لطيفان .

لدرجة أنّ السيّدة « فردوران » ، شاعرة بأنّها بسبب هذا الشخص غير الوفي الوحيد ، قد تُمنع من أن تحقّق الوحدة المعنوية للنواة الصغيرة ، لم تكن تستطيع من شدة غيظها تجاه هذا المتشبّث الذي لم يرَ كم كان كلامه يعذّبها ، إلاّ أن تصرخ له من الأعماق :

جِدهم إذا كنت تريد ، ولكن على الأقل لا تقل هذا لنا . كلّ شيء يرجع إلى ما تسمّيه ذكاء ، قال « فورشفيل » الذي كان يريد أن يلمع بدوره . لنرى ، يا « سوان » ماذا تعني بالذكاء ؟

ـ هذه ! صرخت « أوديت » ، هذه هي الأشياء الكبيرة التي طلبت منه أن يحدّثني عنها ، ولكنّه لا يريد أبداً .

ـ ولكن إذا . . . اعترض « سوان » .

هذه المزحة ! قالت « أوديت » .

ـ مزحة للتبغ ؟ سأل الدكتور .

ـ لك أنت ، تابع « فورشفيل » ، الذكاء ، هل هو طلاقة اللسان ، في المجتمع ، الأشخاص الذين يعرفون أن يتسلّلوا إلى المجتمع ؟

ـ إنتهِ من قطعة الحَلْوى لكي نستطيع أن نغيّر لـك

صحنك ، قالت السيِّدة « فردوران » بلهجة مُرّة ، وهي توجّه حديثها إلى « سابنيت » ، الذي ، مأخوذاً بالتفكير ، كان قد توقّف عن تناول الطعام . وربما ، خجولة بعض الشيء من اللهجة التي قد استعملتها : ـ هذا لا يهمّ ، لديك الوقت الكافي، ولكن إذا قلت هذا لك ، هذا بسبب الآخرين ، لأنّ هذا الشيء يمنع الخدمة .

ـ يوجد ، يقول « بريشو » موقّعاً مقاطع الكلمات ، تحديد غريب جداً عن الذكاء ، عند هذا الفوضوي الليِّن ، « فينيلون » ، هذا مفيد ، ليست لدينا دائماً المناسبة لنطّلع على هذا الشيء .

ولكن « بريشو » كان ينتظر أن يعطي « سوان » تحديده . ولكنّه لم يكن يرد وبسبب تهرّبه قد أضاع المناظرة المهمّة للسيِّدة « فردوران » التي كانت مسرورة بتقديمها لـ « فورشفيل » .

ـ بالطبع ، مثلما يفعل معي ، قالت « أوديت » بلهجة عاتبة (حردانة) ، لست آسفة أن أرى أنّني لست الوحيدة ، حيث لا يعتبرني في مستواه .

ـ هؤلاء « التريموّاي » الذين أظهرتهم لنا السيِّدة « فردوران » غير جديرين بالاحترام ، سأل « بريشو » وهو يوقِّع الكلمات بشدّة ، هل هم يتحدّرون من هؤلاء الذين تعترف هذه السنوبيّة الطيّبة السيِّدة « دوسيفينييه » بأنّها كانت سعيدة بمعرفتهم ، التي كانت تنعكس بشكل جيّد على القرويين . صحيح أنّ المركيزة كان لديها سبب آخر ، والذي ، بالنسبة لها ،

قد يكون أهمّ من ذاك ، لأنّها أديبة بروحها ، كانت تعتبر الأدب فوق كلّ شيء . وفي يوميّاتها ، التي كانت ترسلها إلى ابنتها ، بصورة مستمرّة ، السيّدة « دو لاتريمواي » ، الوسيعة الاطلاع ، بسبب نَسَبها المتعدّد الاتجاهات ، والمهمّ ، هي التي كانت تعلمها بشؤون السياسة الخارجية في هذه الرسائل .

ـ ولكن كلاّ ، لا أعتقد بأنّها العائلة ذاتها ، قالت السيّدة « فردوران » ، على الهامش .

« سانيت » ، الذي منذ قد أعاد فجأة إلى رئيس الخدم صحنه المازال مليئاً بالطعام ، غاص في صمت تأمّلي ، خارجاً منه ليقصّ ضاحكاً حكاية عشاء كان قد تناوله مع « الدوق دو لاتريمواي» حيث استنتج بأنَّ الدوق لم يكن يعلم بأنَّ « جورج صاند » كان اسماً مستعاراً لامرأة. « سوان » ، الذي كان يستلطف « سانيت » ، تصور أنّه من الضروري أن يعطيه معلومات عن ثقافة الدوق تبرهن أنَّ الجهل ذاك ، من قِبله كان ، واقعياً ، أمراً مستحيلاً ؛ ولكن فجأة توقّف كان قد اكتشف أنَّ «سانيت» لم يكن بحاجة إلى مثل تلك البراهين ، وأنّه يعلم أنَّ هذه الحكاية ليست صحيحة ، بسبب أنّه كان قد اختلقها منذ وقت قصير . هذا الرجل الرائع ، كان يتعذّب بأنّ يعتبره « آل فردوران » مملاً ، وحين قد شعَر بأنّه كان مكدّراً ، في هذا العشاء ، أكثر من أي عشاء آخر ، لم يكن يريد أن يتركه ينتهي دون أن يجرّب أن يسلّيهم . استسلم على الفور ، وظهر بائساً لأقصى درجة عندما رأى أن مزاحه لم يؤثّر كما كان ينتظر ، وأجاب

« سوان » بلهجة جبانة جداً لكي يكفّ عن دفاع صار لا جدوى منه : « هذا جيّد ، هذا جيّد ، على كلّ حال ،حتى إذا أخطأت ، ليس هذا جريمة ، أعتقد » ، لأنَّ « سوان » كان بودّه أن يقول بأنّ هذه الحكاية كانت صحيحة وممتعة . الدكتور الذي كان يستمع إليهما ، أتته فكرة وفّرتها المناسبة ليقول : « سينون إي فيري » ، إذا هذا ليس صحيحاً ، ولكن ليس متأكّداً من الكلمات ، وخشي أن يرتبك .

بعد العشاء ، « فورشفيل » ، اتّجه بنفسه نحو الدكتور .

ـ السيّدة « فردوران » لم تكن سيئة في أيّامها ، وأيضاً هي امرأة نستطيع أن نتحدّث معها . بالنسبة لي هذا شيء مهمّ . بالطبع ، بدأت تكون غامضة . ولكن السيّدة « دوكريسي » ، هذه امرأة صغيرة تظهر لي أنّها ذكيّة ، آه ! نلاحظ على الفور أنّها ذات نكهة أميركية ، هذه ! نتحدّث عن السيّدة « دوكريسي » ، قال للسيّد « فردوران » الذي كان يقترب منه والغليون في فمه . يتهيّأ لي أنّها كجسد امرأة . . .

أفضل أن تكون هي في فراشي عن أن يكون الرعد ، قال « كوتار » فجأة الذي منذ بضع لحظات كان ينتظر عبثاً أنَّ يتوقّف « فورشفيل » عن الكلام ليضع هذه المزحة القديمة ، الذي كان يخاف أن تضيع منه المناسبة إذا قد تغيّرت نوعية الحديث ، وأخرجها بهذه العفوية الزائدة وبارتياح الذي يحاول أن يغطّي البرودة والانفعال اللذين لا ينفصلان عندما تسمع درساً ما . « فورشفيل » ، كان يعرف المزحة . فهمها وقد أفرحته . أمّا

بالنسبة للسيّد « فردوران » ، فلم يساوم على فرحه ، لأنّه كان قد وجد ، منذ قليل ، ليعبّر عنها ، رمزاً آخر قد تستعمله زوجته ، ولكنّه بسيط وواضح بالمقدار ذاته . ما إن بدأ بتحريك رأسه وكتفيه ، مثل شخص يقهقه ، حتى بدأ يسعل على الفور ، وكأنّه عندما ضحك كثيراً ، كان قد ابتلع دخان غليونه . ومحتفظاً به دائماً في زاوية فمه ، استمّر لمدّة غير محدّدة بتصنّع الاختناق والفرح الصاخب . هكذا هو والسيّدة « فردوران » التي ، أمامه ، مصغية إلى الرسّام الذي كان يخبرها قصّة ، كانت مغمضة عينيها قبل أن ترمي وجهها بين يديها ، وكانا يشبهان قناعين للمسرح اللذين يمثّلان المرح بشكل مختلف .

السيّد « فردوران » ، كان ، على كلّ حال ، قد فعل بتعقّل ، إنه لم يسحب غليونه من فمه ، لأنّ « كوتار » ، الذي كان بحاجة إلى أن يبتعد للحظة صغيرة ، أطلق بصوت منخفض مزحة كان يردّدها كلّ مرّة يريد أن يذهب إلى المكان ذاته : « يجب أن أذهب لأتحدّث لحظة مع الدوق « دوأومال» ، حيث ضحكة السيّد « فردوران » بدأت مجدّداً » .

ـ ولو ، إسحب غليونك من فمك ، ترى جيداً أنّك ستختنق عندما تكتم ضحكتك هكذا ، قالت له السيّدة « فردوران » ، حيث كانت تقدّم المشروبات .

ـ كم هو لطيف زوجك . كم روحه نبيلة ، قال « فورشفيل » للسيّدة « كوتار » . شكراً يا سيّدتي . جندي قديم مثلي لا يرفض أبداً جرعة الخمر .

ـ السيّد « دو فورشفيل » ، يجد « أوديت » لطيفة جداً ، قال السيد « فردوران» لزوجته .

ـ بالمناسبة ، تودّ أن تتناول معك طعام الغداء مرّة ما . سندبّر هذا الأمر ، ولكن يجب أن لا يعلم « سوان » . تعرف ، وجوده يجعل الجوّ بارداً . هذا لا يمنعك من أن تأتي لتناول العشاء ، بالتأكيد ، نتأمّل أن نراك مراراً . مع الفصل الجميل الذي سيأتي ، سنتناول مراراً طعام العشاء في الهواء الطلق . هذا لا يزعجك . العشاءات الصغيرة في الغابة ؟ طيّب ، طيّب ، سيكون شيئاً ممتعاً . ألن تقوم بعملك ، أنت ! صرخت لعازف البيانو الشاب ، لتتباهى أمام واحد جديد بأهميّة « فورشفيل » ، في آن واحد ، بروحها وسطوتها على المؤمنين .

ـ السيّد « دوفورشفيل » كان يتحدّث عنك بسوء ، قالت السيّدة « كوتار » لزوجها عندما دخل الصالون .

وهو ، متابعا نوعية النبل عند « فورشفيل » منذ بداية العشاء ، قال له :

ـ أعالج ، في هذا الوقت ، بارونة ، البارونة « بيتبوس » ؛ عائلة « بيتبوس » كانت مع الصليبيين ، أليس كذلك ؟ يملكون ، في « بوميراني » ، بحيرة أكبر من ساحة « الكونكورد » بعشر مرّات . أعالجها من مرض داء المفاصل . هي امرأة رائعة . إنّها تعرف ، على كلّ حال ، السيّدة « فردوران » ، أعتقد .

هذا الذي يسمح لـ « فورشفيل » ، عندما يتوجد مجدداً ، بعد لحظة ، وحيداً مع السيّدة « كوتار » ، أن يتابع إعطاء وجهة

نظره عن زوجها .

ـ وثمّ ، إنّه ممتع ، إننا نرى بأنّه كان يعرف أناساً بالطبع الأطباء يعرفون أشياء كثيرة !

ـ عبارة « السونات » للسيّدة « سوان » ، قال عازف البيانو .

آه ! يا لك ! ليست هي ، على الأقلّ ، « الحيّة ذات « السونات » » ؟سأل السيّد « دوفورشفيل » ليلفت الأنظار .

ولكن الدكتور « كوتار » ، الذي لم يكن قد سمع أبداً بهذا التلاعب في الكلام ، لم يفهمه أبداً واعتقد بأنّها غلطة من السيّد « دوفورشفيل » . اقترب منه متأثراً ليصححها :

ـ ولكن كلا ، لا يقول حيّة ذات « سونات » ، بل حيّة ذات أجراس ، قال بلهجة حماسية ، متلّهفة ومنتصرة .

« فورشفيل » شرح له ، التلاعب بالكلام . الدكتور خجل .

ـ إعترف بأنّه غريب الأطوار ، يا دكتور .

ـ أوه ! أعرفه منذ زمن طويل ، أجاب « كوتار » .

ولكن صمتوا ؛ تحت ضجيج اهتزاز نغمات الكمان ، على البيانو ، الذي يحمي الضجيج باستمرارية رجفانه ، على مسافة طبقتين منها ـ وكما في بلاد جبلية ، وراء جمودٍ ظاهرٍ ومدوّخٍ لشلالٍ ما ، نلمح ، مثتي قدم تحته ، شكلاً مصغراً لمتنزهة ـ العبارة الصغيرة كانت تتراءى ، بعيدة ، رشيقة ، محميّة بتكسّرات الستار الطويل الشفّاف ، المتواصلة والطنّانة .

و« سوان »، في قلبه ، توجّه إليها كما لو إلى نجيّة حبّه ، كما لصديقه لـ « أوديت » ، التي تودّ أن تقول لها أن لا توجّه اهتمامها لـ « فورشفيل » .

ـ آه ! تصل متأخراً ، قالت السيّدة « فردوران » لأحد المؤمنين التي لم تكن قد دعته إلاّ كـ « رقم إضافي » . كان لدينا « واحد » « بريشو » ، لا مثيل له ، ذو طلاقة لسان ! ولكنّه ذهب . أليس كذلك سيّد « سوان » ؟ أظنّ أنّك تقابله للمرّة الأولى ، قالت له حتى تلفت انتباهه بأنّه قد تعرّف عليه بسببها . أليس كذلك ، كان رائعاً جداً « بريشو » هذا االذي يخصّنا ؟

« سوان » انحنى بتهذيب .

ـ كلاّ ؟ ألم يمتعك ؟ سألته السيّدة « فردوران » بجفاء .

ـ أجل ، يا سيدتي ، كثيراً ، لقد انبهجت . ربّما هو جازم قليلاً ومرح قليلاً بالنسبة ألى ذوقي . كنت تمنّيت أن يكون لديه مرّات بعض التردّد وقليلاً من الدماثة ، ولكن نشعر أنّه يعرف أشياء لدرجة كبرى ويبدو أنّه رجل طيّب .

جميع المدعوين انسحبوا في ساعة متأخرة من السهرة كلمات أولى قالها « كوتار » لزوجته :

ـ قليلاً ما رأيت السيّدة « فردوران » بمثل هذا التوهّج ، كما في هذا المساء .

ـ من هي ، بالظبط ، السيّدة « فردوران » ، هل هي حيوان أليف ؟ ! قال « فورشفيل » للرسّام الذي عرض عليه أن يرجع معه .

« أوديت » ، شاهدته يبتعد بحسرة ،لم تجرؤ أن لا ترجع مع « سوان » ، ولكنّها كانت معكّرة المزاج في العربة ، وعندما سألها إذا كانت تودّ أن يدخل إلى عندها ، قالت له : « طبعاً » ، وهي تهزّ كتفيها بنفور . عندما رحل جميع المدعوين ، قالت السيّدة « فردوران » لزوجها :

ـ هل لاحظت كيف ضحك « سوان » ضحكة غبيّة عندما تحدّثنا عن السيّدة « لا تريموا ي » ؟

كانت قد لاحظت أنّه أمام هذا الاسم ، « سوان » و« فورشفيل »كانا قد حذفا اللقب . وكانت لا تشكّ بأنّهما فَعَلا هذا ليُظهرا أنّهما لا يرهبان هذا اللقب ، وأحبّت أن تقلد كبرياءهما ، ولكن لم تكن تلاحظ بأي أسلوب لغوي كانا قد عبّرا عن هذا الشيء . غير أنّ نوعية كلامها الخاطىء ، انتصرت على عدم تساهلها بمبادئها الجمهورية ، كانت ما زالت تستمرّ بقولها ألـ « دو لا تريموا ي » ، أو بالأحرى اختصار دارج بكلمات أغنيات المقاهي الموسيقية أو في تعليقات رسّامي الكاريكاتور والتي تخفي الـ « دو » ، الـ « دولا تريموا ي » ، ولكن كانت تستدرك قائلة : « السيّدة لاتريموا ي » « الدوقة » ، كما يقول « سوان » ، تابعت ساخرة ، بابتسامة تبرهن أنّها تسمّع كلام « سوان » ، حيث لا تأخذ على عاتقها تسمية ساذجة ومضحكة .

ـ سأقول لك إنّني قد رأيته غبيّاً جداً .

والسيّد « فردوران » أجابها :

ـ ليس هو صريح ، إنّه سيّد مكّار ، دائماً « بين بين » .

يريد أن يحافظ على المعزاة والملفوف . كم يوجد فرق مع « فورشفيل » ! هذا ، على الأقل ، رجل يكشف عن أفكاره بصراحة . يعجبك أولاً يعجبك . ليس كالآخر ، الذي ، ولا مرّة : « ولا تين ولا عنب » ! على كلّ حال ، يظهر أنّ « أوديت » ، تفضّل كثيراً « الفورشفيل » . أعطيها حقّ . في النهاية ، بما أنّ « سوان » يريد أن يوحي لنا بأنّه من المجتمع الراقي ، وهو « بطل الدوقات » ، على الأقلّ ، الآخر لديه لقب ، هو ، بالأخير ، الكونت « دو فورشفيل » ، تابع بشكل دقيق ، وكأنّه كان يعرف جيداً قصّة هذه الكونتية . كان يقدّر ، بدقّة ، قيمتها الخاصة .

ـ سأقول لك ، قالت السيّدة « فردوران » ، إنّه اعتقد بأنّ من واجبه أن يوجّه ضدّ « بريشو » ، بعض تلميحات لاذعة ومضحكة جداً . طبعاً ، بما أنّه قد رأى أن « بريشو » محبوب في المنزل ، فقد فعل هذا الشيء ليصيبنا نحن بالذات ، ليعطّل عشاءنا . تحسّ بالرفيق الطيّب الصغير الذي يذمّك وأنت خارج

ـ ولكن قلت لك هذا الشيء ، أجاب السيّد « فردوران » ، هو الفاشل ، الفرد الصغير الحسود من كلّ شيء ، مهمّ قليلاً .

بالحقيقة ، لم يكن هنالك مؤمن واحد أكثر إساءة من « سوان » ، ولكن جميعهم كانوا حذرين من تفكيه نمائمهم بمزاجات معروفة ، بشيء من التأثر والمودّة ، ولكن ، أقلّ تحفّظ ، كان « سوان » ، يسمح به لنفسه ، مجرّداً من عبارات المجاملة

العاديّة المتّفق عليها مثل : « لا نقول أي شيء سيّء » ، وحيث كان يستخفّ في أن يتنازل إلى مستواها ، كان يوحي بأنّه خدعة . هنالك مؤلّفون مبتكرون ، أقلّ شجاعة عندهم ، تحرّض على فعل أي شيء ، لأنّهم ، لا يسايرون ، كما هو شائع ، أذواق الجمهور ، ولم يقدّموا له الأشياء العادية ، المعتاد عليها ، وبهذا الشكل ، كان « سوان » ، قد أثار سخط السيّد « فردوران » . بالنسبة لـ « سوان » ، كما بالنسبة إليهم ، كانت جدّة كلامه ، السبب الذي يفكّرون من خلاله بسوء نواياه .

كان « سوان » ، ما يزال يجهل فقدان الخطوة ، حيث كان مهدّداً عند « آل فردوران » ، وكان مستمراً في رؤ ية كلّ أشيائهم التافهة ، جميلة ، من خلال حبّه . لم تكن لديه مواعيد مع « أوديت » ، في أكثر الأوقات ، إلّا في المساء ، ولكن خلال النهار ، خائفاً من أن تملّه إذا ذهب إليها ، كان يحبّ ، على الأقلّ ، أن يحتلّ مسافات أفكارها ، وفي كلّ اللحظات ، كان يبحث كيف يجد مناسبة تعجبها ، ليكون حاضراً في ذهنها ، باستمرار . إذا وَجد في إحدى واجهات محلّات بيع الأزهار ، أو عند صائغ ، أنّ رؤ ية شجرة صغيرة أو جَوْهَرة تجذبه ، كان يفكّر ، على الفور ، بأن يرسلها إلى « أوديت » ، متصوّراً المتعة التي سيوفّرانها لها ، والتي ستحسها ، حيث تأتي لتضاعف الحنان الذي تشعره تجاهه ، فيرسلها فوراً إلى شارع « لابيروز » ، لكي لا يؤخّر اللحظة ، حيث ، عندما تتسلّم شيئاً منه ، سيشعر نفسه ، نوعاً ما ، بأنّه بقربها . كان يريد خصوصاً أن تتسلمها

قبل أن تترك المنزل لكي تستقبله ، بسبب هديّته هذه ، بأكثر حرارة ، لحظة ستراه عند « آل فردوران » . وحتى ، من يعلم ؟ إذا كان البائع قد يعجّل بإرسال الهدية ، يمكن أنّها ستبعث له برسالة ، قبل العشاء ، أو تأتي هي بنفسها إلى عنده ، في زيارة إضافية ، لتشكره . كما في الماضي ، عندما كان يختبر انفعالات الأشياء ، على طبيعة « أوديت » ، كان يبحث من خلال انفعالات الامتنان ، أن يكشف الأجزاء الخاصة جداً من شعورها ، التي لم تكن قد كشفتها له بعد .

غالباً ما كانت لديها متاعب مادية ، وملاحقةً بالديون ، كانت تطلب منه أن يساعدها . كان سعيداً بذلك ، كما من كل شيء كان بإمكانه أن يعطي « أوديت » فكرة كبيرة عن الحب الذي كان يشعره تجاهها ، أو ، فقط ، فكرة كبيرة عن مقدرته ، وكم يستطيع أن يساعدها . دون شك ، لو قيل له في البداية : « هذا هو وضعك الذي يعجبها » ، والآن : « إنها تحبك بسبب ثروتك » ، لم يكن يصدّق ، وعلى كل حال ، لم يكن مستاءً كثيراً من أن يعرف الناس أنّ « أوديت » تتمسّك به ـ وتشعر بأنهما متوحّدان ـ بشيء قوي متساوٍ مع السنوبيّة والمال . ولكن ، حتى لو اعتقد بأنّ هذا الشيء كان حقيقياً ، يمكن أنّه لم يكن قد تعذّب في أن يكتشف ، إلى جانب حبّ « أوديت » له ، هذه الدعامة التي تستمرّ أكثر من اللّذة ، أو الصفات التي كانت تجدها فيه : المصلحة ، المصلحة التي تمنع أن يأتي ، أبداً ، اليوم ، حيث من الممكن أن تفكّر بالكفّ عن رؤيته . في الوقت الحاضر ، وهو

يغمرها بالهدايا ، عندما يقدّم لها خدماته ، كان بإمكانه أن يرتاح على فوائد خارج شخصه ، خارج ذكائه ، أكثر من الاعتناء المرهق ليعجبها ، بشخصه فقط . وهذه اللذة في أن يكون عاشقاً ، أن لا يعيش فقط إلاّ بسبب الحبّ ، حيث كان يشكّ ، مرّات ، في حقيقته ، هي الثمن الذي كان يدفعه لها ، في الواقع ، لتولّعه بشعور غير ملموس ، يضاعف قيمة هذا الحبّ ـ كما نرى أناساً حائرين ، في أن يكون منظر البحر وصخب الأمواج هما مبهجان أو بالعكس ، يقنعون أنفسهم بالصفة النادرة لأذواقهم المتجرّدة ، يستأجرون ، بمئة فرنك في اليوم ، غرفة في فندق ، تسمح لهم بأن يتذوّقوا كل هذه الأشياء .

ذات يوم ، حيث ، ملاحظات من هذا النوع ، قد أعادته إلى الوقت الذي كانوا قد حدّثوه عن « أوديت » ، كما عن امرأة ينفق عليها العشّاق ، وحيث ، مرّة أخرى ، كان يتلذّذ في معارضة هذا التجسيد الغريب : المرأة التي ينفق عليها العشّاق ـ مزيج برّاق من العناصر المجهولة والشيطانية ، مرصّعة مثل « الظهور » لـ « غوستاف مورو » ، من أزهار سامقة متشابكة مع مجوهرات ثمينة ـ وهذه « الأوديت » ، حيث على وجهها ، كان يشاهد ،عبور هذا الشعور ذاته ، شعور الشفقة على بائس ، تمرّد ضدّ الظلم ، عرفان الجميل على خدمة ما ، حيث كانت أمّه قد احسّت بالشعور ذاته ، أو أصدقاؤه . . . هذه « الأوديت » ، حيث أحاديثها ، كانت تتناول ، أكثر الأوقات ، الأشياء التي يعرفها جيّداً هو بالذات ، عن مجموعاتها ، عن غرفتها ، عن

خادمها العجوز ، عن المصرفيّ ، حيث كان يدع مستنداته لديه ، وقد تذكّر ، عند رؤية آخر صورة لهذا المصرفيّ ، ضرورة أن يمرّ عليه ليسحب نقوداً . بالفعل ، إذا كان خلال هذا الشهر ، يساعد « أوديت » ، أقلّ ممّا كان يفعل في الشهر السابق ، بمتاعبها المادية ، حيث كان قد أعطاها خمسة آلاف فرنك ، وإذا لم يكن يقدّم لها عقد الماس كانت ترغبه ، لا يجدّد فيها هذا الاعجاب بكَرَمه ، هذاالاعتراف بالجميل ، اللذان كانايسعدانه جداً ، وحتى أنّه سيجازف بأن يجعلها تعتقد ، بأنّ حبّه لها ، عندما تجد أنّ التعبير عنه يتضاءل ، فهو أيضاً قد تضاءل . حينئذ ، فجأة ، تساءل إذا هذا ، لم يكن بالتحديد ما يسمّونه « إنفاق العشّاق » ، (كما إذا ، بالفعل ، هذه الفكرة : « ينفق عليها العشاق »)، قد تكون مستخلصة من العناصر التي ، ليست غامضة ، وليست فاسدة ، ولكنّها تتعلّق في الجوهر اليومي والخاص لحياتها ، مثل هذه الورقة ، بألف فرنك ، البيتية والعائلية ، الممزّقة والملصقة ثانية ، الذي ، خادمه الخاص ، بعد أن رآه يدفع حسابات الشهر ونهاية العطلة ، خبّأها في دُرج المكتب العتيق ، حيث عاد « سوان » وأخذها ليرسلها إلى « أوديت » مع أربعة غيرها ، وإذا لم يكن يستطيع أبداً أن يلبّس « أوديت » ، منذ أن عرفها (لأنّه لم يكن يشكّ لحظة واحدة أبداً بأنّها كانت تتلقّى أموالاً من أي شخص قبله) ، هذه الكلمة التي كان يعتقد بأنها لا تتوافق معها ، « امرأة ينفق عليها العشّاق » . لم يكن يستطيع أن يتقصّى حقيقة هذه

الفكرة ، لأنّ حالة من الكسل الروحي ، التي كانت تلازمه منذ الولادة ، متقطّعة ومُرسلة ، تأتي في هذه اللحظة ، لتطفىء كُلّ توهّج في ذكائه ، بصورة مفاجئة ، لدرجة ، حيث في ما بعد ، عندما كانوا قد عمّموا الكهرباء في كل مكان ، يمكن أن يقطعوها مثلاً ، عن منزل ما . فكرته ، للخطة ، تحسّست طريقها في الظلمة . نزع نظارتيه ، نظّف الزجاجتين ، مرّر يده على العينين ، ولم يرَ الضوء مجدداً ، إلاّ عندما وجد ثانية ، في حضور فكرة مختلفة كلياً ، أن واجبه يقضي بإرسال ستة أو سبعة آلاف فرنك لـ « أوديت » ، في الشهر المقبل ، عوضاً عن خمسة ، من أجل المفاجأة والفرح اللذين سيسبّبهما لها هذا الشيء .

في المساء ، عندما لم يكن يستقرّ في منزله لينتظر لحظة يرى « أوديت » ، مجدّداً ، عند « آل فردوران » ، أو بالأحرى ، في أحد المقاهي الصيفية التي كانا يفضّلانها ، في الغابة ، وبالأخصّ ، في « سان ـ كلُو » ، كان يذهب يتعشّى في واحد من تلك المنازل الأنيقة ، حيث كان في الماضي ، الضيف المألوف . لم يكن يريد أن يضيّع الصلة مع الناس ، الذين ، ـ هل نعلم ؟ ـ يمكن أن يكونوا مفيدين لـ « أوديت » ، وبفضلهم ، بانتظار ذاك الوقت ، كان يستطيع أن يعجبها . غير أنّ عادة المجتمع هذه ، التي كان قد مارسها منذ زمن بعيد ، وكذلك ، عادة الرفاهية ، قدّما له ، في آن واحد ، الاحتقار ، والرغبة ، حيث ، منذ اللحظة التي تساوت في نظرة أحقر المنازل مع أفخمها ، كانت حواسه معتادة ، لدرجة كبيرة ، على النوع الثاني ، وقد شَعَر ،

بقليل من الانزعاج ، في التواجد بالنوع الأوّل . كان لديه الاعتبار ذاته ـ بدرجة متساوية ، لم يكن يصدّقها ـ لبورجوازيين صغار ، كانوا يرقصون في الطابق الخامس على السلّم « د » ، شمال صحن الدرج ، كما لأميرة « دو بازْم » التي كانت تقدّم أفخم الحفلات في باريس ، ولكن لم يكن يشعر ، أنّه خلال سهرة راقصة حيث يشغل مكاناً ، مع بعض الآباء ، في غرفة نوم سيّدة المنزل ، ومنظر المغاسل المغطّاة بالمناشف ، الأسرّة ، المحوّلة إلى مستودع ثياب ، حيث على البطّانيات الصغيرة ، تتكوّم المعاطف والقبّعات ، كانت السهرة تعطيه ، هذا الشعور ذاته ، بالاختناق ، الذي يشعره اليوم أناس معتادون ، منذ عشرين سنة على الكهرباء ، من خلال رائحة مصباح مفحّم أو نوّاصة تسرّب الكاز .

اليوم ، حيث كان يتناول خلاله طعام العشاء في المدينة ، كان يقطر العربة للساعة السابعة والنصف ، يرتدي ثيابه وهو يفكّر بـ « أوديت » ، وهكذا ، لم يشعر بأنّه وحيد ، لأنّ فكرة « أوديت » ، المستمرة ، كانت تعطي للأوقات ، حيث يكون بعيداً عنها ، المتعة ذاتها ، الخاصّة ، كما لو أنّها تكون بقربه . كان يصعد في العربة ، ولكنّه كان يشعر ، بأنّ هذه الفكرة ، كانت تقفز إلى العربة وتستقرّ في حضنه ، كما حيوان محبوب ، تأخذه إلى أي مكان ، يحتفظ به على المائدة ، دون معرفة الضيوف . كان يداعبها ، يتدفأ بوهجها ، ومعانياً شيئاً من الخمول ، يسترخي إلى نوع من الارتجاف ، الذي كان يشنّج عنقه وأنفه ـ وكان جديداً

عنده ـ وهو يثبّت باقة أزهار « الأنكولي » في عروته . شاعراً بتعب ، وحزيناً منذ وقت قليل ، وبالأخصّ ، منذ أن كانت « أوديت » قد عرّفت « فورشيفيل » على « آل فردوران » ، كان بودّه الذهاب إلى الريف ليرتاح قليلاً . ولكن لم تكن لديه الشجاعة في أن يترك باريس ، يوماً واحداً ، عندما تكون « أوديت » موجودة فيها . الهواء كان حاراً ، هذه كانت أجمل أيّام الربيع . ومهما كان يعبر مدينة من الحجر ، ليذهب إلى فندق ما مغلق ، الذي كان بارزاً ومستمراً أمام عينيه ، هو المتنزه الذي يملكه قرب « كومبراي » ، والذي ، بدءاً من الساعة الرابعة ، قبل أن يصل إلى فسحة من الهِلْيون ، بسبب الهواء الذي يأتي من حقول « ميزيغليز » ، كان بإمكاننا أن نتذوّق طراوةً ، تحت ممر معرّش ، بمقدار ما نتذوّق على طرف غدير ماء ، محاط بـ « الميوزوتيس » و« زهرات الافراح » ، حيث عندما يتناول طعام العشاء ، تدور حول الطاولة « الكشمشات» والورود اللذان جعلهما البستانيّ يتعانقان .

بعد العشاء ، إذا كان الموعد في الغابة أو في « سان كلو » ، باكراً ، كان يذهب مسرعاً بعد أن يغادر المائدة ، لدرجة وبالأخصّ إذا كان المطر ينذر بالهطول ، حيث يعجّل بعودة « المؤمنين » إلى منازلهم ـ لدرجة أنّه حدث مرّة ، حيث(كانوا قد تناولوا طعام العشاء ، مؤخراً ، عند الأميرة « دولوم » ، أن « سوان » كان قد غادر المنزل قبل تقديم القهوة ليدرك « آل فردوران » في « جزيرة الغابة ») وقالت الأميرة :

ـ حقاً ، لو كان لدى « سوان » ثلاثون عاماً أكثر من العمر ومرض المثانة ، كنّا قد غدرناه في أن يغادر هكذا . ولكن ، حقاً ، إنّه يسخر من الناس . كان يقول لنفسه إنّ بهجة الربيع ، الذي لم يكن يستطيع أن يذهب ليتذوّقها في « كومبراي » ، كان سيجدها على الأقلّ في جزيرة الاوزّ أو في « سان كلو » . ولكن ، كما أنّه لم يكن يستطيع إلاّ أن يفكّر بغير « أوديت » ، لم يعد يعرف حتّي ، إذا كان قد أحسّ برائحة الأوراق ، أو إذا كان القمر قد أطلّ . كانت تستقبله العبارة الصغيرة لـ « السونات » التي كانت قد عُزفت في الحديقة على بيانو المطعم . إذا لم يكن هنالك بيانو ، كان « آل فردوران » ، يجدون صعوبة كبيرة ، ليُنزلوا واحداً من غرفة ما ، أو من غرفة الطعام مثلاً : ليس لأنّ « سوان » كان يحظى بمتانة خاصة لديهم ، بالعكس ، ولكن ، فكرة أن يسبّبوا لذّة مبتكرة لشخص ما ، ولو حتى لشخص لم يكونوا يحبّونه ، يخلقون عندهم ، خلال الأوقات اللازمة للتحضير ، شعوراً عابراً وعارضاً من التعاطف والمودّة . مرّات ، كان يقول لنفسه إنّه كان مساءً آخر ربيعياً يمرّ . كان يجبر نفسه على رؤية الأشجار في السماء . ولكن الاضطراب الذي كان يشعر به ، من خلال وجود « أوديت » ، وأيضاً ، قليل من الانزعاج القلق الذي لم يغادره منذ بعض الوقت ، كانا يحرمانه من الهدوء والانسجام اللذين لا غنى عنهما ، للشعور جيّداً بأشياء الطبيعة .

ذات مساء ، حيث « سوان » ، كان قد قبل أن يتناول طعام العشاء مع « آل فردوران » ، وحيث ، خلال العشاء ، قد

أعلن أنّه ، في اليوم التالي ، كانت لديه وليمة مع الرفاق القدامى ، أجابته « أوديت » من وسط المائدة ، أمام « فورشفيل » الذي كان قد صار أحد المؤمنين ، أمام الرسّام ، أمام « كوتار » :

ـ أجل ، أعرف أنّ لديك وليمة . لن أراك ، إذن ، عندي ، ولكن لا تتأخّر كثيراً في المجيء .

بالرغم من أن « سوان » ، لم يكن قد استاء من صداقة « أوديت » لهذا أو ذاك من المؤمنين ، كان يشعر بغبطة عميقة في أن يسمعها تعترف أمامهم كلّهم ، بمثل تلك الوقاحة الهادئة ، بمواعيد الليل اليومية ، وبالمكان المفضّل الذي كان يشغله عندها ، حيث يخرج ، من خلاله ، البرهان الأكيد على أفضلية « سوان » عند « أوديت » . بالطبع ، لقد فكّر « سوان » ، مراراً ، بأنّ « أوديت » ، لم تكن ، بأية درجة ، امرأة مميّزة . والسطوة التي كان يعكسها ، إلى هذا الحدّ ، على امرأة دون مستواه ، لم تكن تشكّل له سبباً مثيراً للزهو ، لدرجة أن تُعلن بوجه « المؤمنين » ، ولكن منذ الوقت الذي لاحظ خلاله أنّ « أوديت » تعجب رجالاً كثيرين ، وأنّها توحي بأنّها رائعة ومرغوبة ، كانت الجاذبية التي كانوا يشعرونها تجاه جسدها ، قد أيقظت فيه حاجة موجعة لأن يسيطر عليها كلياً ، حتى على أصغر أجزاء قلبها . وكان قد بدأ يتمسّك ، بشكل لا يقدّر ، بهذه الأوقات التي كان يمضيها عندها في الليل ، حيث كان يُجلسها على حضنه ، ويجعلها تعطي رأيها ، عمّا تعتقده ، في هذا أو ذاك من الأشياء ، حيث كان يحصي الممتلكات الوحيدة ، التي يتمسّك ، فقط ، بها ، في الوقت

الحاضر على الأرض . هكذا ، بعد العشاء ، أخذها على حدة ، وشكرها بحرارة ، محاولاً أن يعبّر لها ، حسب درجات ، عرفان الجميل ، الذي كان يظهره ، عن تصاعد الملذّات التي كان بمقدورها أن تسببها له ، حيث أرفع حالة فيها ، كان أن يضمن نفسه ، طوال الوقت الذي سيستمر حبّه ويجعله عرضة للانتقاد ، من طعنات الغيرة .

عندما خرج في اليوم التالي من الوليمة ، كان المطر يهطل ، ولم يكن تحت تصرّفه غير عربته « الفيكتوريا » ، أحد أصدقائه عرض عليه أن يوصله إلى منزله في عربته المغلقة ، ولأن « أوديت » ، كانت قد طلبت منه أن يأتي إلى عندها ، أكّدت له من خلال طلبها أنّها لم تكن تنتظر شخصاً آخر ، وهو ، براحة بال وبهجة قلب ، عوضاً عن أن يذهب ، هكذا ، تحت الشتاء ، كان قد عاد إلى منزله لينام . ولكن ، يمكن ، لو كانت « أوديت » قد رأت أنّه لا يتشبّث بأن يمضي معها ، دون أي استثناء ، آخر السهرة ، كانت ستكفّ عن الاحتفاظ بنهاية أية سهرة معه ، ويمكن أن يصادف هذا الشيء مرة يكون خلالها متشوّقاً كثيراً لرؤيتها .

وصل إلى عندها بعد الحادية عشرة مساءً ، وعندما كان يعتذر عن عدم تمكّنه من المجيء قبل هذا الوقت ، تذمّرت من كونه قد جاء ، فعلاً ، متأخراً جداً ، وكانت هي متوجّعة بسبب العاصفة . كانت تشعر بصداع في الرأس ، وقد أعلمته بأنّها لن تتركه عندها أكثر من نصف ساعة ، حيث ستجعله يغادر المنزل

عند منتصف الليل ، وبعد مدّة قصيرة ، شعرت بأنّها متعبة قليلاً ، ورغبت في أن تنام .

ـ هكذا ، لا « كاتْليا » هذا المساء ؟ قال لها . أنا كنت أتأمّل في « كاتْليا » صغيرة .

وبشكل عاتب قليلاً وعصبي أجابته :

ـ ولكن كلاّ ، يا صغيري ، لا « كاتليا » هذا المساء ، إنّك ترى جيّداً أنّني متعبة !

ـ هذا يمكن أنّه قد يفيدك قليلاً ، ولكن ، على كل حال ، لا ألحّ أبداً .

طلبت منه أن يطفىء النور قبل أن يغادر . أسدل بنفسه ستائر التخت ، ورحل . ولكن ، عندما وصل إلى منزله ، عبرت في ذهنه ، فجأة ، فكرة أنّ « أوديت » كانت تنتظر أحداً هذا المساء ، وبأنّها تظاهرت بالتعب وقالت له أن يطفىء النور ليفكّر ، فقط ، بأنّها ستنام ، وفوراً ، بعد أن يذهب تضيء الغرفة مجدّداً . وتُدخل ذاك الذي سيمضي الليلة إلى جانبها . نظر إلى ساعته ، كانت قد مضت ساعة ونصف الساعة على مغادرته إيّاها . خرج مجدّداً من منزله ، أوقف عربة أجرة ، وطلب من سائقها أن يوصله قريباً من منزل « أوديت » ، في شارع صغير يواجه ، بشكل عمودي ، الشارع الذي يشرف من الوراء على فندقها ، وحيث كان مرّات يذهب ليطرق على نافذة غرفة نومها لكي تأتي وتفتح له ، نزل من العربة ، كلّ شيء كان مقفراً وأسود في هذا الحيّ ، كان عليه أن يسير بضع خطوات لينفذ إلى أمام منزلها . من بين

جميع النوافذ المظلمة ، منذ مدّة طويلة في الشارع ، رأى فقط واحدة ، حيث يطفح منها ـ بين المنافذ التي كانت وكأنّها تضغط على اللبّ الخفيّ والمذهّب ـ الضوء ، الذي كان يملأ الغرفة ، والذي كم من الليالي الأخرى ، كان يراه من أبعد مكان ، عندما يصل إلى الشارع ، فيبهجه ويعلن له : « ها هي هنا تنتظرك » ، وحيث يعذّبه الآن ، ويقول له : « ها هي هنا مع الشخص الذي كانت تنتظره » . كان يودّ أن يعرف من يكون هذا الشخص ، تسلّل على طول الجدار حتى النافذة ، ولكن لم يكن يستطيع أن يرى شيئاً ، من بين شفرات المنافذ المائلة . كان يسمع ، فقط ، في صمت الليل ، تمتمات حديث ما .

بالتأكيد ، كان يتعذّب أن يرى هذا الضوء ، في الجوّ الذهبي ، حيث يتحرّك من وراء هيكلٍ ما ، ظلّ ما ، الشخصان غير المرئيين والممقوتين ، وأن يسمع تلك التمتمة التي تكشف هذا الشخص ، الذي جاء بعد أن رحل هو ، وأن يتأكّد من نِفاق « أوديت » ، وفي اللّذة التي كانت تشعر بها مع الغريب . وبالرغم من أنّه كان سعيداً لأنّه قد أتى : الألم الشديد الذي أجبره على الخروج من منزله ، تضاءلت شدّته بتضاؤل غموضه . والآن ، بدأ يتأكد من حياة « أوديت » الأخرى ، حيث كان قد لمس ، في هذه اللحظة بالذات ، الشكّ المفاجىء والعقيم . كان يمسكها هنا ، في هذه الغرفة ، المضاءة كليّاً بالمصباح ، مسجونة دون أن تعلم ، حيث ، عندما يشاء ، سيدخل ليفاجئها ويقبض عليها ، أو بالأحرى ، سيذهب ليطرق على المنافذ ، كما كان يفعل مراراً ،

عندما كان يأتي متأخراً كثيراً ، هكذا على الأقل ، ستعرف « أوديت » ، أنه قد علم ، أنّه قد رأى الضوء واستمع إلى الحديث . وهو ، حيث منذ قليل ، كان يتهيأها تسخر من أوهامه مع الآخر . الآن ، كانا هما ، المكشوفين أمام عينيه ، المطمئنين لخطتهما ، المخدوعين منه ، حيث كانا يعتقدان ، بأنّه بعيد جداً ، من هنا ، وحيث هو ، كان يعلم أنه سيطرق على المنافذ . ويمكن ، الشيء الذي كان يشعر به في تلك اللحظة ، كان نوعاً من المتعة . كان شيئاً ، أيضاً ، غير تسكين الشكّ والألم : لذّة الذكاء . إذاً ، منذ أن كان عاشقاً ، كانت الأشياء تتّخذ مجدّداً ، بالنسبة إليه ، قليلاً من الاهتمام اللذيذ ، حيث كان يشعر به في الماضي ، ولكن ، فقط ، كانت ، هذه الأشياء ، مضاءة بذكرى « أوديت » . والآن ، هذه خاصة أخرى من شبابه التي أيقظتها غيرته مجدّداً ، والتي هي عشقه لبحث الحقيقة ، ولكن حقيقة ، هي أيضاً ، موجودة بينه وبين عشيقته ، حيث لا ترى الضوء إلا من خلالها . حقيقة نسبية ، هدفها الوحيد الذي لا يثمّن وتقريباً بجمال مجدّد ، أعمال « أوديت » ، علاقاتها ، مشاريعها ، ماضيها . في أية مرحلة أخرى من حياته ، الأعمال والتصرّفات اليومية الصغيرة لشخص ما ، كانت دائماً تظهر لـ « سوان » ، وكأنّ لا قيمة لها : إذا حاولوا الثرثرة معه ، كان يجدها دون جدوى ، وإذا كان يصغي إليها ، فمن خلال انتباه عامّي حقير فقط ، كان هذا بالنسبة إليه إحدى اللحظات ، حيث كان يشعر من خلالها بأنه وضيع جداً . ولكن في هذه المرحلة الغريبة من

الحبّ ، يأخذ « الفردي » معنى عميقاً ، لدرجة أنّ هذه الحشرية التي كان يشعر بأنّها تستيقظ في داخله تجاه أبسط الاهتمامات لامرأة ما ، كانت هي التي قد شعرها ، منذ زمان ، في كتب التاريخ . ولكن الذي كان قد أخجله حتى الآن ، هو أن يتجسّس أمام نافذة ، من يعلم؟ غداً ، يجوز ، أن يجعل ، بحذاقة اللامبالين يتكلّمون ، يرشو الخدم ، يتنصّت على الأبواب ، لم تكن تبدو له هذه الأشياء غير استقصاءات علمية ذات قيمة ثقافية حقيقية ومناسبة للبحث عن الحقيقة ، كما محاولة استكشاف النصوص ، مقارنة البراهين ، تفسير الأبنية الأثرية .

في اللحظة ذاتها التي كان سيطرق على المنافذ ، مسّه خجلٌ عابر وهو يفكّر بأنّ « أوديت » ستعلم بأنّه قد شكّ فيها ، وبأنّه قد رجع ، وتوقّف في الطريق . كانت قد باحت له مراراً بكرهها للغيورين ، للعشّاق الذين يتجسّسون . ما كان سيفعله ، كان شيئاً أهوج ، يجعلها تكرهه ، منذ الآن . ولكن ، في هذا الوقت بالذات ، حيث لم يكن يطرق على المنافذ ، يمكن ، حتى لو أنّها كانت تخونه ، فمن المحتمل أنّها كانت تحبّه أيضاً . كم من السعادة الممكنة نضحّي بتحقيقها ، بسبب قلة الصبر ، ومن أجل لذّة فورية ! ولكن الرغبة في أن يعرف الحقيقة ، كانت أقوى وتبدو له أكثر نبلاً . كان يعرف أنّ حقيقة الظروف ، حيث كان قد بذل حياته ليعيدها بدقّة ، كان من الممكن أن يقرأها وراء هذه النافذة المخطّطة بالأضواء ، كما تحت غطاء مزخرف بالذهب لاحدى المخطوطات الثمينة ، حيث العالِم الذي يرجع إليها ، لا يستطيع

أن يكون غير مبال أمام غناها الفنّي المميّز . كان يشعر بغبطة ، في التعرّف على الحقيقة التي كانت تستهويه في هذه النسخة الوحيدة العابرة والثمينة ، المصنوعة من مادّة شفافة ، دافئة وجميلة للغاية . وأيضاً ، الامتياز الذي كان يشعره ويميّزه ـ الذي كان بحاجة ماسّة لأن يشعره ـ عنهما ربّما كان ، لا ليعرف ، بل ليشعرهما بأنّه يعرف . ارتفع على طرف قدميه . طَرَق . لم يكن أحد يسمع . طرق مرّة ثانية بشكل أقوى . توقّف الحديث . صوت رجلٍ ، حاول « سوان » أن يكشف لمن من أصدقاء « أوديت » الذين يعرفهم ينتمي ، سأل الصوت :

ـ مَن هنا ؟

لم يكن متأكداً من معرفته بهذا الصوت . طرق مرّة أخرى . فتحوا النافذة ومن ثمّ المنافذ . الآن ، لم تعد هنالك فائدة في أن يتراجع . وبما أنّها حين ستعلم بكلّ شيء ، ولكي لا يظهر لها بائساً جداً ، غيوراً جداً أو حشرياً ، اكتفى بأن يصرخ بمظهر مهمل وفرِح :

ـ لا تزعجوا أنفسكم ، كنت أمرّ من هنا ، شاهدت ضوءاً ، أحببت أن أستفسر إذا ما زلتِ متعبة .

نظر . أمامه ، سيّدان عجوزان كانا بالقرب من النافذة ، أحدهما يمسك مصباحاً ، وإذْ ذاك رأى الغرفة ، غرفة مجهولة ، معتاد عندما كان يأتي متأخراً إلى عند « أوديت » ، أن يعرف نافذتها ، لأنّها النافذة الوحيدة التي كانت مضاءة بين كلّ النوافذ المتشابهة . كان قد أخطأ ، وقد طرق على النافذة التالية التي تخصّ

المنزل المجاور . ابتعد معتذراً وعاد إلى منزله ، فرِحاً من أن تحقيق حشريته كان قد أبقى حبّهما سليماً ، وبعد أن كان يتظاهر ، منذ مدّة طويلة ، بنوع من اللامبالاة ، فرح بأنه لم يكن يعطيها ، بسبب غيرته ، هذا البرهان على أنّه يحبّها كثيراً ، والذي ، بين عشيقين ، يعفي ، أبد الدهر ، أن تحبّ بما فيه الكفاية ، الشخص الذي يتلقاه لم يكلّمها عن هذا الحادث ، هو بالذات لم يعد يفكّر فيه . ولكن بعض الأوقات ، كانت لمسة من فكرته تقابل الذكرى التي لم تكن « أوديت » تلمحها ، تصدمه ، تغرقه أكثر . « سوان » كان قد شعر بألم مفاجىء وعميق . كأنّه وَجَع مادي ، ولم تستطع أفكاره أن تخفّفه ، ولكن ، على الأقلّ ، الوجع المادي ، لأنّه مستقل عن الفكر ، يستطيع الفكر أن يتوقّف عنده ، يلاحظ أنّه قد خفّ ، وأنّه قد توقّف لمدّة مؤقتة . ولكن هذا الوجع ، لحظة يتذكّره الفكر ، يعيد خلقه من جديد . أن تريد ألا تفكر ، هو أن تفكر أيضاً ، وتتألّم أيضاً . وعندما ، لحظة يتحدّث مع أصدقاء ، كان ينسى وجعه . فجأة ، كلمة يقولونها له ، كانت تغيّر لون وجهه ، مثل جريح يلامس شخص أهوج ، بدون دقّة ، الجزء الموجوع في جسده . عندما كان يغادر « أوديت » ، كان سعيداً ، كان يشعر بهدوء . كان يتذكّر ابتساماتها ، الساخرة ، عندما تتحدّث عن هذا أو ذاك من الناس ، والحنونة عندما تتحدّث عنه . ثقل رأسها ، حيث كانت قد أبعدته عن مداره لتحنيه ، لتتركه يقع ، تقريباً دون إرادتها ، على شفتيه ، مثلما فعلت المرّة الأولى في العربة : النظرات الذابلة

التي ألقتها عليه عندما كانت بين ذراعيه ، وهي تحني رأسها على كتفها من شدّة البرد .

ولكن ، فجأة ، غيرته ، كأنّها كانت ظلاً لحبّه ، تتكامل برؤ ية ابتسامة « أوديت » الجديدة ، التي كانت قد وجّهتها إليه هذه الليلة بالذات ـ والتي ، هي الآن ، بشكل معاكس ، تسخر من « سوان » وتمتلىء حبّاً للشخص الآخر ـ بهذه الانحناءة في رأسها ، ولكن ، معكوسة باتجاه شفاه أخرى ، ومقدّمة لشخص آخر ، بكلّ براهين الحنان التي كانت تشعرها نحوه . وكلّ الذكريات الممتعة التي قد جاء بها من عندها ، كانت رسوماً ، « مشاريع » مثل تلك التي يقدّمها لك مهندس ما ، والتي تسمح لـ « سوان » بأن يكوّن فكرة عن وقفات ، ملتهبة حيناً ومسترخية حيناً آخر ، والتي كان يمكن أن تشعرها مع آخرين . لدرجة توصّل أن يندم على كلّ لذّة يشعرها معها ، كلّ مداعبة كان قد ابتكرها،وحيث كان حذراً من أن يوقظها على النعومة ، على كلّ رشاقة كان يكتشفها لها ، لأنّه يعرف ، أنه بعد لحظة ، كانت هذه الأشياء ، ستغني عذابه بأدوات جديدة .

هذا العذاب كان يصبح أليماً أكثر ، عندما يعود « سوان » ليتذكّر نظرة خاطفة كان قد رآها ، منذ بضعة أيام ، ولأوّل مرة في عيني « أوديت » . حدث هذا بعد العشاء ، عند « آل فردوران » . أو أنّ « فورشقيل » ، شاعراً بأنّ « سانييت » ، صهره ، لم يكن مرغوباً جداً عندهم ، قد أراد أن يجعله كبش فداء ، ويلمع أمامهم على حسابه ، أو أنّه كان قد انفعل من كلمة

غير موفّقة ، كان قد قالها له والتي ، على كلّ حال ، قد مرّت دون أن يلاحظها أحد من الموجودين ، الذين كانوا يجهلون التلميح المسيء الذي تضمّه هذه الكلمات ، ضدّ إرادة الشخص الذي لفظها دون أيّ مكر ، أو أيضاً ، أنّه كان يبحث منذ وقت قليل عن المناسبة في أن يخرج من البيت شخصاً يعرفه جيّداً ويعلم أنّه حسّاس جداً ، لدرجة أنّه سيكون هو منزعجاً ، بعض الأوقات ، ولو من وجوده فقط . « فورشفيل » أجاب على هذه الكلمة الطائشة لـ « سانييت » بفظاظة بارزة ، وبدأ يشتمه ، ويتحمّس أكثر فأكثر بقدر ما كان يصرخ ، من خوف الآخر ، وعذابه ، وتوسّلاته ، لدرجة أن هذا المسكين بعد أن سأل السيّدة « فردوران » إذا كان يستطيع أن يبقى ، ولم يتلقّ أي جواب منها ، كان انسحب متمتماً ، والدموع تملأ عينيه . « أوديت » حضرت هذا المشهد بأعصاب هادئة ، ولكن عندما أقفل الباب وراء « سانييت » ، تأمّل « سوان » على وجهها ، كيف تتقلّص خطوط النبل ، شيئاً فشيئاً ، لتتساوى مع حقارة « فورشفيل » . بؤبؤا عينيها صارا يبرقان بضحكة مستترة تهنّئانه على جرأته بتهكّمه على من كان هو الضحية ، كانت قد ألقت عليه نظرة التواطؤ في الاساءة ، والتي كانت تعني : « هذا هو حكم بالاعدام ، أو انني لم أفهم . هل شاهدت مظهره المرتبك ؟ كان سيبكي » ، إنّ « فورشفيل » ، عندما عيناه قابلتا هذه النظرة لـ « أوديت » ، التي بدّدت غضبه أو تصنّعه الغاضب حيث كان ما يزال منفعلاً به ، ابتسم وأجاب :

ـ لم يكن مطلوباً منه سوى أن يكون لطيفاً ، ليبقى بيننا . عقاب جيّد قد ينفع في كلّ عمر .

في يوم ، كان « سوان » قد خرج فيه بعد الظهر بقليل ليقوم بزيارة ، وبما أنّه لم يجد الشخص الذي كان يودّ مقابلته ، فكّر بأن يذهب إلى منزل « أوديت » ، في هذا الوقت الذي لم يكن أبداً يذهب خلاله إلى عندها ، ولكن ، حيث يعلم ، بأنّها كانت دائماً في المنزل لتستريح قليلاً بعد الغداء أو لتكتب بعض الرسائل قبل موعد الشاي ، وحيث سيجد لذّة في أن يراها قليلاً دون أن يزعجها . البوّاب قال له إنّه يعتقد بأنّها هنا ، دقّ الجرس ، وتهيأ أنّه سمع ضجّة ، وأنّ أحداً يمشي ، ولكن الباب ظلّ مغلقاً . قلِقاً ، غاضباً ، ذهب إلى الشارع الصغير الذي يشرف عليه مدخل الفندق من الجهة الأخرى ، وقف أمام نافذة غرفة « أوديت » ، الستائر كانت تمنعه من أن يرى أي شيء . طرق بشدّة على الزجاج ، نادى ، لم يفتح أحد . لاحظ بأن الجيران كانوا ينظرون إليه . انصرف ، معتقداً بعد كلّ هذا ، بأنّه ربّما قد أخطأ عندما تهيّأ له أنه قد سمع وقع خطوات ، ولكنّه استمر قلِقاً لدرجة أنّه لم يعد يستطيع أن يفكّر بأيّ شيء آخر . ساعة ، من ثمّ ، عاد . وجدها ، قالت له بأنّها كانت في المنزل قبل قليل عندما دقّ الجرس ، ولكنّها كانت نائمة ، الجرس قد أيقظها ، أدركت بأنه كان « سوان » ، ركضت وراءه ، ولكنّه كان قد ذهب . ولقد سمعته جيداً يطرق على الزجاج . « سوان » ، اكتشف على الفور، من خلال هذا القول ، جزءاً مامن حادث

صحيح ، حيث عندما يفاجأ الكذّابون ، يُدخلونه في تركيب الحادث الباطل الذي يبتكرونه ، معتقدين بأنّهم ، على هذا الشكل ، سيخفون شبهه مع الحقيقة . دون شك ، عندما كانت « أوديت » تفعل شيئاً ما لا تودّ أن تكشفه ، كانت تخبّئه جيّداً في داخلها . ولكن عندما تجد نفسها أمام الشخص الذي تريد أن تكذب عليه ، كان يسكنها الاضطراب ، كل أفكارها تنهار ، قدراتها على الابتكار والتعقّل ، كانت تصاب بالشلل ، لم تكن تحسّ بغير الفراغ في رأسها ، مع أنّها يجب أن تقول شيئاً ، وكانت تصادف في متناولها ، بالضبط ، الشيء الذي كان بودّها أن تخفيه ، والذي ، بما أنّه حقيقي ، كان الوحيد الذي بقي هنا . كانت تفصل جزءاً صغيراً ، دون أهمية بذات نفسه ، قائلة إنّه ، على كلّ حال ، كان أفضل هكذا بما أنّه أمر طفيف ممكن أن تتحقّق منه ، والذي لا يشكّل أبداً الأخطار ذاتها التي يشكّلها أمر باطل . « هذا ، على الأقل ، هذا صحيح ، تقول لنفسها ، وهذا فريد من الكسب ، بإمكانه أن يستعلم عن صحّة أقوالي ، سيجد أنّها حقيقية . ليس هذا أبداً الذي سيفضحني » . لقد أخطأت ، هذا هو بالذات الذي كان يفضحها ، لم تكن تلاحظ بأنّ هذا الأمر الصحيح ، كانت له زوايا لا تستطيع أن تتداخل إلاّ في التفاصيل المتلاصقة للحادث الصحيح ، حيث كانت قد فصلته عن قصد ، والذي مهما تكن التفاصيل المبتكرة ، فانّها تنقّله بينها ، تفضح دائماً بالمادة الزائدة والفراغات غير الممتلئة ، إنّه لم يأتِ من بين هذه الأشياء . « تعترف بأنّها سمعتني وأنّا أدقّ

الجرس ، ومن ثمّ أطرق الباب ، وبأنّها قد اعتقدت بأنّني أنا ، وبأنّها كانت تودّ أن تراني ، يقول « سوان » لنفسه . ولكنّ هذا لا يتوافق مطلقاً مع حقيقة أنّها لم تفتح الباب .

ولكن لم يجعلها تلاحظ هذا التناقض ، لأنّه كان يعتقد بأنّها ، منصرفةً إلى ذاتها ، ستؤلّف « أوديت » ، بعض الأكاذيب التي ستكون برهاناً ضعيفاً عن الحقيقة ، كانت تتكلّم ، لم يكن يقاطعها أبداً ، كان يتلقّى بورع جَشِع وموجِع ، هذه الكلمات ، تقولها له ، والذي كان يشعرها (لهذا السبب بالذات أنّها كانت تتخبأ وراءها عندما كانت تتكلّم معه) تحتفظ بصورة مبهمة ، كما الحجاب المقدس ، ببصمة ما ، ويرسم هذه الصورة غير الواضحة لهذه الحقيقة الثمينة جداً ، ومع الأسف ! غير الموجودة : ـ ماذا كانت تفعل ، قبل قليل ، الساعة الثالثة عندما قد أتى ـ حيث لن يمتلك أبداً إلاّ هذه الكذبات ، هذه الآثار الالهية وغير المقروءة والتي لم تكن موجودة قطّ إلا في الذكرى المخبّئة لهذا الشخص الذي يتأمّلها دون أن يعرف قيمتها ، ولكن لم يكن يسلّمها لها . دون شك ، كان يشعر بعض الأوقات بأنّ أعمال « أوديت » اليوميّة ، بحدّ ذاتها ، لم تكن مهمّة لهذه الدرجة ، وبأنّ العلاقات التي من الممكن أن تكون لديها مع رجال آخرين ، لم تكن تبعث بصورة طبيعية وشاملة ، ولكلّ إنسان يفكّر ، حزناً مَرَضياً ، لدرجة أن تعطي حتّى الانتحار . كان يكتشف عندئذٍ أن هذه الأهمية ، هذا الحزن ، لم يكونا موجودين إلاّ فيه ، كمَرَض ، وأنّه عندما ستشفى هي ، أعمال « أوديت » ، القبلات التي كانت

تستطيع أن تقدّمها ، ستعود إلى كونها لا تضرّ مثل قبلات كثيرات غيرها . ولكنّ الحشرية الموجعة التي كان « سوان » يحملها الآن ، لم يجد لها سبباً إلّا في ذاته ، ولم تكن سبباً لأن يجد غير عاقل يعتبر هذه الحشرية مهمّة وأن يعمل كل جهده ليرضيها . لأن « سوان » ، كان قد وصل إلى عمره ، حيث الفلسفة ـ متوافقة مع فلسفة العصر ، وأيضاً مع فلسفة مجتمع « سوان » ، في الاجتماعات الحميمة لأميرة « دولُوم » ، حيث كان متّفقاً على أنّنا أذكياء بالنسبة ذاتها التي نشكّ من خلالها في كل شيء ، وحيث لا نجد حقيقياً وغير قابل للجَدَل ، إلا أذواق كلّ واحد منّا ـ لم تكن فلسفة الصبا ، ولكن فلسفة إيجابية ، تقريباً طبيّة ، لرجالٍ ، الذين عوضاً عن أن يُظهروا أهداف طموحاتهم ، يحاولون أن يستخرجوا من سنواتهم الماضية ، خلاصة ثابتة من العادات ، من الأهواء التي يعتبرونها ، في أنفسهم ، مميّزة وثابتة ، وحيث ، اختيارياً ، يستيقظون أولاً على أنّ نوع الحياة الذي يعتمدونه يستطيع أن يلبّي رغباتهم . كان « سوان » يجد أن من الحكمة ، لو يحسب في حياته حساباً للعذاب الذي كان يشعره ، في تجاهله لما قد فعلته « أوديت » ، كما عليه أن يحسب إلى أي حدّ يؤثر المناخ الرطب على مرضها « الاكزيما » . كما عليه أيضاً أن يقدّر في ميزانيته ، مبلغاً مهماً من المال ، ليحصل بواسطته على معلومات ، يشعر بدونها بأنّه تعيس ، عن كيفية قضاء « أوديت » لأيّامها ، وأيضاً كان يحتفظ ببعض المعلومات لأذواق أخرى ، حيث كان يعرف أنّ بإمكانه انتظار لذّة ما ، على الأقل ، قبل أن

يكون عاشقاً ، كما هو ، هاوي المجموعات ، أو الطهو الجيّد .

عندما أراد أن يودّع « أوديت » ليعود إلى منزله ، طلبت منه أن يجلس قليلاً بعد ، مدقّقة بشدة ، وممسكة بذراعه ، في الوقت حيث كان يهمّ بفتح الباب للخروج . ولكنّه لم يكترث ، لأنّه بكثرة الحركات ، بكثرة الكلمات ، وبكثرة الحوادث الصغيرة التي تملأ حديثاً ما ، لا مفر من أن نمرّ بالقرب من الذين يخبّئون حقيقة ، حيث شكوكنا ، تبحث عنها بالصدفة ، دون أن نلاحظ الشيء الذي يلفت نظرنا ، وأن نتوقّف بالعكس عند المواضيع التي لا تعني شيئاً . كانت تقول له وتكرّر كلّ الوقت : « أيّة تعاسة أنّك أنت الذي لا تأتي أبداً بعد الظهر ، لمرّة واحدة فعلت ، ولم أكن هناك . » كان يعرف جيّداً أنها لم تكن تعشقه ، بما فيه الكفاية ، لتتأسّف بهذا المقدار على كونها لم تكن موجودة حين زيارته لها ولكن ، بما أنّها طيّبة ، وتودّ ملاطفته ، وحيث إنّها كانت تحزن ، مراراً ، عندما كانت تُغضبه ، من خلال هذا كلّه ، رأى من الطبيعي أن تكون هذه المرّة حزينة ، لأنها حرمته من اللّذة الكبيرة جداً في أن يمضيا ساعة معاً ، ليس بسببها ولكن بسببه . لم يكن هذا الشيء مهمّاً لدرجة أن تستمرّ في حزنها ، وهذا ما قد استغربه . كانت تذكّره أيضاً ، أكثر من كلّ مرة ، بوجوه نساء رسّام « البريمافيرا » . كانت تجسّد ، في تلك اللحظة ، وجوههنّ المتعبة المؤسفة ، التي توحي بأنّها ترزح تحت ضغط وجع ثقيل جداً عليها ، ببساطة ، عندما يتركن الطفل يسوع يلعب برمّانة ، أو عندما ينظرن إلى موسى يسكب ماءً في المزود . كان قد لاحظ ،

قبل هذه المرة ، هذا الحزن ، ولكن لم يكن يعلم متى . وفجأة ، تذكّر : حدث هذا ، عندما كانت « أوديت » قد كذبت ، متحدّثة إلى السيدة « فردوران » ، في اليوم التالي لذاك العشاء ، حيث لم تكن قد أتت بحجّة أنّها مريضة ، وفي الحقيقة ، لتظلّ مع « سوان » . بالطبع ، لو كانت من أكثر النساء الموسوسات ، لما كانت قد ندمت بسبب كذبة بريئة لهذه الدرجة . ولكنّ الأكاذيب التي تلتجىء إليها بصورة مستمرة ، كانت أقلّ براءة أيضاً ، وكانت تستخدم لتمنع الاكتشافات ، التي قد تسبّب لها ، مع هؤلاء أو أولئك ، صعوبات رهيبة . هكذا ، عندما كانت تكذب ، خائفة وشاعرة بأنّها ليست محصّنة لتدافع عن نفسها ، وغير واثقة من النجاح ، كانت تشعر بأنّها في حاجة إلى البكاء ، مثل بعض الأطفال الذين لم يناموا . ومن ثم ، كانت تعرف أنّ كذبتها تؤذي عادة ، بقساوة ، الرجل الذي كانت تكذب عليه ، وقد تقع ، ربّما ، تحت رحمته ، إذا كذبت بصورة سيّئة . حينئذٍ ، كانت تشعر بأنّها خجولة ومذنبة أمامه . وعندما كانت تريد أن تمارس كذبة بسيطة واجتماعية ، باندماج الأحاسيس والذكريات ، كانت تحسّ بانزعاج مرهق وأسف على سوء نيّتها .

أيّة كذبة مثبّطة للعزيمة كانت تمارسها على « سوان » ، لكي تشعر بهذه النظرة المؤلمة ، هذا الصوت النائح اللذين كانا يوحيان بأنّهما ينحنيان تحت الجهد الذي تفرضه على نفسها ، وتطلب المغفرة ؟ فكّر بأنّه لم تكن ، فقط ، حادثة بعد الظهر ، التي كانت تحاول أن تخفيها عنه ، ولكن شيئاً قد يحدث من ثمّ ، والذي يمكن

أنّه لم يحدث بعد ، أو أنّه سيحدث قريباً جداً ، وهو الذي سيلقي الضوء على هذه الحقيقة . عندئذٍ ، سمع رنة جرس . لم تتوقّف « أوديت » عن الكلام ، ولكنّ كلماتها لم تكن سوى نواح : أسفها ، أنّها لم تكن قد رأت « سوان » بعد الظهر ، وانها لم تفتح له الباب ، وقد تحوّل هذا الشيء إلى يأس حقيقي .

باب المدخل يُقفل ، هذا ما سمعوه . صوت سيّارة ، كما لو كان شخص ما مغادراً ـ هذا الشخص ربّما هو الذي لا يجب أن يراه « سوان » ـ وهو الذي قد أعلموه بأنّ « أوديت » قد خرجت . عندئذٍ ، عندما فكّر « سوان » بأنّه إذا كان يأتي في الوقت الذي لم يكن ، من عادته ، أن يأتي خلاله ، كان سيبدّل أشياء كثيرة ، لم تكن « أوديت » تريد أن يعرفها . شَعَر باليأس ، بالشقاء ، تقريباً . ولكن ، لأنّه يحبّ « أوديت » ، وحيث كان قد اعتاد أن يحوّل كلّ أفكاره تجاهها ، عوضاً عن أن يشفق على نفسه ، فقد أشفق عليها ، متمتماً : « حبيبتي المسكينة ! » لحظة كان يغادرها ، تناولت رسائل عديدة كانت موجودة على طاولتها وطلبت منه أن يضعها في مركز البريد . حملها ، وعندما وصل إلى منزله ، لاحظ أنّها لا تزال معه . رجع إلى المركز ، سحبها من جيبه ، وقبل أن يرميها في صندوق البريد ، ألقى نظرة على العناوين . كانت كلّها موجّهة إلى تجّار ، باستثناء واحدة : إلى « فورشفيل » . أمسكها بيده ، قائلاً : « إذا اطلعت على مضمونها ، سأعرف كيف تناديه ، كيف تحدّثه ، وإذا كانت توجد علاقة ما بينهما . يمكن أيضاً ، إذا لم أطّلع عليها ، فهذا يشكّل برهاناً على قلّة الذوق تجاه

« أوديت » ، لأنّ هذا هو الشكل الوحيد لأن أنقذ نفسي من شكّ ، ربّما يكون افترائياً تجاهها ، وحيث سيعذّبها ، على كل حال ، والذي ، لا شيء سيزيله ، إذا ذهبت الرسالة ! » .

غادر مركز البريد ، عائداً إلى منزله ، وقد احتفظ بالرسالة الأخيرة ! أضاء شمعة ، قرّب منها الظرف الذي لم يجرؤ على فتحه من قبل . في البداية ، لم يستطع أن يقرأ شيئاً ، ولكن الظرف كان رقيقاً ، وعندما ألصقه بالبطاقة القاسية التي كانت في داخله ، استطاع ، من خلال شفافيته ، أن يقرأ الكلمات الأخيرة . كانت عبارة أخيرة ، باردة جداً . لو أنّ « فورشفيل » ، هو الذي اطلع على رسالة لـ « سوان » ، كان قد وجد كلمات أكثر حناناً ! كان يمسك البطاقة ، دون أن يحرّكها ، حيث كانت ترقص داخل ظرف أوسع منها ، ومن ثمّ ، بدأ يحركها بإبهامه ، مقرّباً الأسطر ، الواحد تلو الآخر ، تحت جزء من الظرف لم يكن مزدوجاً ، حيث المكان الوحيد ، الذي كان بإمكانه أن يقرأ من خلاله .

بالرغم من هذا كلّه ، لم يكن يستطيع أن يميّز جيّداً . على كلّ حال ، هذا ليس مهماً ، كان قد قرأ ، بما فيه الكفاية ، حتى يفهم أن « أوديت » كانت تعالج حادثة لا أهمية لها ، وليس فيها أية علاقة عاطفية ، كان هذا شيء مرتبط بعمّ ما لـ « أوديت » . كان « سوان » ، قد قرأ في بداية السطر : « كنت على حقّ » ، ولكن لم يفهم ، ماذا كان يحقّ لها أن تفعل ، عندما ، فجأة ، ظهرت ، كلمة لم يكن باستطاعته أن يقرأها في البداية وأوضحت معنى العبارة بكاملها : « كنتُ على حقّ عندما فتحت ، كان هذا

عمّي » . أن تفتح ! عندئذٍ ، كان « فورشفيل » هنا ، عندما رنّ « سوان » الجرس ، وجعلته يغادر المنزل ، وهذا هو مصدر الضجيج الذي كان قد سمعه . عندئذٍ ، قرأ كلّ الرسالة ، وفي النهاية اعتذرت عن أنّها تصرّفت معه ، هكذا ، بدون تكلّف ، وقالت له إنّه قد نسي علبة السجائر عندها ، الجملة ذاتها التي كانت قد كتبتها لـ « سوان » في إحدى المرات الأولى التي قد جاء خلالها إلى منزلها . ولكنها قد زادت لـ « سوان » : « ليتك تركت قلبك داخل العلبة ، لم أكن أتركك تعود لتأخذه » . أمّا لـ « فورشفيل » ، لا شيء من ذلك : ولا أي تلميح ، الذي قد يوحي بأنّه توجد أية علاقة بينهما . في الحقيقة ، على كلّ حال ، « فورشفيل » كان ، في كلّ هذا ، مخدوعاً أكثر من « سوان » ، بما أن « أوديت » كانت تكتب له لتجعله يصدّق أن الزائر كان عمّها ، في الوقت ، أنّه كان هو ، « سوان » بالذات ، الرجل الذي كانت تهتمّ به وبسببه قد صرفت الآخر . ورغم كل ذلك ، لو لم يوجد شيء بين « أوديت » و « فورشفيل » ، لماذا لم تكن تفتح الباب على الفور ، لماذا قالت : « فعلت جيّداً أنّني قد فتحت ، كان هذا عمّي ؟ » إذا لم تكن تفعل أيّ شيء سيّء ، في ذاك الوقت بالذات ، فكيف كان يفسّر « فورشفيل » أنها لم تفتح ؟ « سوان » ، كان هنا ، حزيناً ، مرتبكاً ، ورغم كلّ ذلك ، كان سعيداً ، أمام هذا الظرف الذي قد سلّمته له « أوديت » ، دون أي حذر ، بقدر ما كانت تثق برهافة شعوره ، ولكن ، من خلال شفافية عينيه ، تبينّ له ، رغم سريّة الحادثة التي لم يكن يعتقد بأنّه

ممكن أن يعرفها ، القليل من حياة « أوديت » ، كما فسحة ضيّقة ومضيئة على المجهول . عندئذٍ ، غيرته كانت تبتهج بذلك ، كما لو أنّ لديها حيوية مستقلة ، أنانية ، مفترسة لكل شيء يغذّيها، تنبت من هذه الغيرة ، ولو حتى على حسابه . الآن . صار عندها غذاء ، و « سوان » ، كان سيبدأ يقلق ، كل يوم ، من الزيارات لـ « أوديت » حوالى الساعة الخامسة ، ويبحث ليعرف أين كان « فورشفيل » في مثل هذا الوقت . لأنّ عاطفة « سوان » ، كانت لا تزال محتفظة بسمتها تلك ، التي قد طبعت منذ اللحظة الأولى ، وفي آن واحد ، جهله عن كيفية قضاء وقت « أوديت » ، والكسل العقلي الذي كان يمنعه من أن يعوّض عن هذا الجهل ، بالتخيّل . لم يكن يغار في البداية من مجمل حياة أوديت ، ولكن ، فقط ، من الأوقات ، حيث مصادفة ، يمكن أنّه أساء فهمها ، وكانت أوصلته إلى الاعتقاد بأنّ « أوديت » كانت تخونه . غيرته ، كما أخطبوط ينفث ، أولاً ، وثانياً ، وثالثاً ، السُمّ ، تمسّكت بشدّة ، في هذا الموعد ، الساعة الخامسة مساء ، في وقت آخر ، وآخر أيضاً . ولكنّ « سوان » لم يستطع أن يبتكر عذاباته . لم تكن سوى الذكرى ، استمرار لعذاب ما كان قد أتى من الخارج .

ولكن ، هنا كلّ شيء كان يجلب له العذاب . أراد أن يبعد « أوديت » عن « فورشفيل » ، يأخذها بعض الأيّام إلى الجنوب . ولكنّه كان يعتقد بأنّها كانت مشتهاة من كلّ الرجال في الفندق وبأنّها هي أيضاً ، كانت تشتهيهم . كذلك ، هو الذي كان في السابق ، وخلال السفر ، يبحث عن العلاقات الجديدة وعن

الاجتماعات الحاشدة ، كانوا يجدونه همجياً ، يتهرّب من مجتمع الرجال كما لو كان يسيء إليه بقساوة . وكيف لا يكون مبغضاً للبشر ، وهو الذي كان يرى في كلّ رجل ، عشيقاً محتملاً لـ « أوديت » ؟ وهكذا غيرته ، التي أثّرت عليه أيضاً أكثر من التذوّق الشهواني والمشرق الذي كان يشعره ، في البداية ، تجاه « أوديت » ، قد أفسدت طباعه ، وكانت تغيّر كليّاً ، في نظر الآخرين ، مظهر السِمات الخارجية حيث كانت تظهر أطباعه من خلالها .

بعد مضي شهر على قراءته رسالة « أوديت » الموجّهة إلى « فورشفيل » ، ذهب « سوان » إلى عشاء قدّمه « آل فردوران » في الغابة . في اللحظة التي كانوا يتهيّأون خلالها للذهاب ، لاحظ « سوان » ، بيت السيّدة « فردوران » وعدد من المدعوّين ، نوعاً من المظاهر السريّة للتآمر ، وقد فهم أنّهم يذكّرون عازف البيانو بأن يأتي ، في اليوم التالي ، إلى حفلة تتقدّم في « شاتو » ، حيث هو لم يكن مدعوّاً .

كان « آل فردوران » ، يتكلمون بصوت منخفض وبعبارات مبهمة ! ولكن الرسّام ، ساهياً دون شك ، صرخ :

ـ لن يكون هنالك أي نور ، ويجب أن يعزف في الظلام ، « سونات » « ضوء القمر » ، لكي نرى الأشياء مجلوّة بشكل أفضل .

السيّدة « فردوران » ، عندما رأت « سوان » على بُعد خطوتين ، تغيّرت ملامح وجهها ، حيث كانت رغبتها أن تُسكت

المتحدّث ، وهي تحتفظ على وجهها بمظهر بريء في نظر من يستمع إليها ، بشكل أنّ نظرها تجمّد ، ولدرجة ؛ أن أيّ تعبير قد غاب عنه ، وحيث علامة الذكاء الثابتة ، للتآمر ، كانت تختفي تحت الابتسامات المبتكرة ، والتي ، في النهاية ، كانت مشتركة مع كلّ الذين أخطأوا ، يفضحونها ، بصورة مفاجئة ، ليس بالنسبة لهم ، ولكن تجاه الشخص المقصود . مظهر « أوديت » ، تحوّل ، فجأة ، إلى حالة من فقدان الأمل ، تتنازل عن مواجهة الصعوبات الساحقة في الحياة ، و « سوان » ، كان يعدّ ، بقلق ، الدقائق التي تبعده عن اللحظة ، حيث ، عندما سيغادر هذا المطعم ، برفقتها ، ربّما يستطيع أن يطلب منها بعض التفسيرات ، وأن يقنعها بعدم الذهاب ، في اليوم التالي ، إلى « شاتو » ، أو ، على الأقل ، أن تجعله يُدعى معها ، ويهدّىء ، بين ذراعيها ، الضيق الذي كان يشعره . في النهاية ، أرسلوا بطلب العربات . السيّدة « فردوران » قالت لـ « سوان » :

ـ هكذا ، وداعاً ، سنراك في وقت قريب ، أليس كذلك ؟

كانت تحاول من خلال نعومة نظرها وابتسامتها المنفعلة ، أن تمنعه يفكّر بأنّها لم تكن تقول له ، مثلما كانت تفعل إلى الآن :

ـ إلى اللقاء غداً في « شاتو » ، وبعد غد عندي في المنزل .

السيّد والسيّدة « فردوران » أصعدا معهما « فورشفيل » . عربة « سوان » كانت قد صفّت وراء عربتهما ، حيث كان منتظراً أن يغادرا المكان ، لكي يُصعد « أوديت » في عربته .

ـ « أوديت » ، إنّنا نعيدك معنا ، قالت السيدة

« فردوران » ، لدينا مكان صغير لك بالقرب من السيّد « دوفورشفيل » .

- أجل ، يا سيّدتي ، أجابت « أوديت » .

- كيف ، ولكن اعتقدت بأنّني أنا الذي سأعيدكِ ، صرخ « سوان » ، قائلاً ، دون أي كتمان ، الكلمات الضرورية ، لأنّ باب العربة كان مفتوحاً ، والثواني كانت معدودة ، ولم يكن باستطاعته العودة بدونها ، بالنسبة إلى الحالة التي كان يعيشها .

- ولكن السيدة « فردوران » طلبت مني . . .

- هيّا ، بإمكانك أن تعود وحيداً ، إنّنا قد تركناها لك ، مرّات كثيرة ، قالت السيّدة « فردوران » .

- ولكن لديّ شيء مهم أقوله للسيّدة .

- فليكن ! ستكتبه لها . . .

- وداعاً ، قالت « أوديت » ، وهي تمدّ له يدها .

حاول أن يبتسم ، ولكنّ مظهره كان مضطرباً .

- هل رأيت الأساليب التي يتجرأ « سوان » ، الآن ، أن يستعملها معنا ؟ قالت السيّدة « فردوران » لزوجها عندما دخلا المنزل . اعتقدت بأنّه سيلتهمني ، لأنّنا كنّا نعيد « أوديت » معنا . هذه قلّة أدب ، حقّاً ! هكذا ، فليقل مرّة واحدة إنّ منزلنا مشرّع للقاءات ! لم أكن أفهم أن « أوديت » تتحمّل هذه الأساليب . بالضبط ، كأنّه يريد أن يقول : إنّك ملكي . سأقول ماذا أفكّر بهذا الشأن لـ « أوديت » ! وآمل بأنّها ستفهم .

بعد لحظة ، تابعت بغضب :

ـ غير معقول هل، ترون هذا الحيوان القذر ! مستعملة ، دون إدراك ، ويمكن ، خاضعة لذات الحاجة الغامضة لتبرّىء نفسها ـ كما « فرانسوز » في « كومبراي » ، عندما الدجاجة كانت ترفض أن تموت ـ الكلمات التي تنتزعها آخر انتفاضات حيوان أليف ينازع ، من القروي الذي يسحقه .

عندما غادرت عربة السيِّدة « فردوران » متقدِّمة عربة « سوان » ، نظر سائقه إليه وسأله إذا كان مريضاً أو إذا كان في حالة سيِّئة .

صرفه « سوان » ، كان بودّه أن يتمشّى . دخل المنزل ، سائراً على قدميه من الغابة . كان يتكلّم وحده ، بصوت مرتفع ، وباللهجة ذاتها ، المتصنّعة قليلاً التي كان قد استعملها ، حتى الآن ، عندما كان يعبّر عن ملذّات النواة الصغيرة ويشيد بشهامة « آل فردوران » . ولكن ، كما الكلمات ، الابتسامات ، قبلات « أوديت » صارت بالنسبة إليه كريهة بمقدار ما كان يلاقيها لطيفة ، إذا كانت متّجهة إلى سواه ، كذلك ، صالون « آل فردوران » ، الذي كان يجده ممتعاً ، منذ قليل ، كما كان يجد أن أصحابه يتذوّقون الفن بشكل صحيح ، وحيث كان يجد عندهم نوعاً من النبل الأخلاقي . . . الآن ، حيث شخص آخر ، تذهب « أوديت » لمقابلته عند « آل فردوران » ، لتحبّه بحريّة ، تحوّل هو أيضاً ، بنظره ، وصار يكشف أشياءه الساخرة ، غباءه ، وحقارته .

كان يتصوّر بقرف ، سهرة اليوم التالي في « شاتو » .

« أولاً ، هذه الفكرة أن يذهبوا إلى « شاتو » ! مثل تجّار بعد أن يقفلوا محلاتهم ! حقاً ، هؤلاء الناس ، لقد وصلوا إلى ذروة البورجوازية . ليس من الجائز أن يكونوا موجودين حقّاً ، فهم ، كأنّهم خارجون من مسرح « لابيش » ! »

سيكون موجوداً هناك ، « آل كوتار » ، ويمكن « بريشو » ، أيضاً « حقّاً ، هذا شيء مضحك ، هذه الحياة للناس الصغار الذين يعيشون فوق بعضهم البعض ، ويعتقدون بأنّهم ضائعون ، فعلاً ، إذا لم يتقابلوا جميعهم في « شاتو » ، في اليوم التالي ! » مع الأسف ! سيكون هناك أيضاً ، الرسّام . . . الرسّام الذي كان يحبّ «أن يزوّج الناس » ، والذي سيدعو « فورشفيل » ليأتي مع « أوديت » إلى محترفه . كان يتصوّر « أوديت » بملابس أنيقة جداً لهذه الحفلة في الريف ، « لأنّها عاميّة لدرجة . . . وبالأخص ، هذه الصغيرة المسكينة ، كم هي غبيّة !!! » .

كان يستمع إلى المزحات التي كانت تطلقها السيّدة « فردوران » بعد العشاء . المزاحات ، التي مهما يكن مملاً الشخص الذي تتجّه إليه،كانت دائماً تسلّيه لأن « أوديت » كانت تضحك معه . تضحك في داخله ، الآن ، إلى حدٍ ما . كان يشعر بأنّه ، ربّما ، سيُسخر منه مع « أوديت » . « ما هذه البهجة النتنة ! يقول ، وهو يعطي لفمه تعبير قَرَفٍ بارزٍ جداً ، لدرجة أنّه كان يحسّ ، هو بالذات ، بـ« الشعور العَضَلي » لتكشيرته ، وحتى بتقويس رقبته وهي تحتك بياقة قميصه . كيف لمخلوقة ، وجهها مصنوع على صورة الله ، بإمكانها أن تجد سبباً للضحك بهذا المُزاح

المقرف؟أيأنف حسّاس، بعض الشيء، يتحوّل عنها بهلع، لكي لاتمسّه مثل هذه العفونة. هذا، مستحيل التفكير به: إنسان ربما لا يفهم ، عندما يجيز لنفسه ابتسامة ما ، تجاه شخص آخر مثله ، كان قد مدّ له يده بإخلاص ، حيث ينحطّ من خلالها إلى مستوى الوحل ، وحيث يصير من المستحيل لأية إرادة في العالم ، مهما كانت قوية ، أن تنتشله . إنّني أسكن على ارتفاع شاهق فوق حثالة المجتمع : يطبطبون ويعوون بالهَذَر ، فكيف يكون ممكناً أن أمسّ . بمزاحات إحدى « الفردوران » ، صرخ رافعاً رأسه ، جاهلاً جسده ينتصب بكبرياء إلى الوراء . يشهد عليّ الربّ أنّني أردت بإخلاص انتشال « أوديت » من هنا ، ورفعها إلى جوّ أكثر نبلاً وطهارة . ولكن للصبر البشري حدود ، وبالنسبة لي ، فقد نفد » ، قال في نفسه ، كما لو أنّ هذه الدعوة لانتشال « أوديت » من جوّ السخرية كانت مستمرة منذ أبعد من بضع دقائق ، وكما لو أنّه لم يكن قد التزمها ، إلاّ فقط منذ أن فكّر بأن هذه السخرية كانت ، ربّما ، متجهّة ضدّه ، محاوِلة فصل « أوديت » عنه .

كان يرى عازف البيانو مستعداً لأن يلعب « سونات » « ضوء القمر » ، وحركات السيّدة « فردوران » ، تخشى من نتائج تأثير موسيقى « بتيهوفن » على أعصابها : « غبيّة ، كذّابة ! صرخ « سوان » . « هذه » ، تعتقد بأنّها تحبّ الفنّ ! « ستقول لـ«أوديت»، ملمحة لها بصورة لبقة، بعض الكلمات المقرّظة، عن « فورشفيل » ، كما كانت تفعل مراراً عنه : « ستفسحين مكاناً إلى جانبك للسيّد « دوفورشفيل » » . « في الظلام ! عاهرة ،

سمسارة ! » « سمسارة » ، هذا اللقب الذي كان يعطيه أيضاً للموسيقى التي تجعلهم يصمتون، أن يحملوا معاً ، ينظرون إلى بعضهم البعض ، وأيديهم متشابكة . كان يجد شيئاً جيداً ، هذه القساوة ، ضدّ الفنّ : قساوة « أفلاطون » ، « بوسُوْيّه » ، والمدرسة الفرنسية القديمة .

على كلّ حال ، الحياة التي كانوا يعيشونها عند « آل فردوران » ، والتي قدسمّاها مراراً « الحياة الحقيقية » ، صارت توحي له أسوأ الأنواع . ونواتهم الصغيرة صارت تمثّل أدنى المجتمعات . « هذا ، حقّاً ، يقول ، أسوأ درجات المجتمعات ، آخر دائرة لـ « دانتي » . دون شك ، النصّ المهيب لا ينطبق على « آل فردوران » ! في الحقيقة ، مثل كلّ الناس الاجتماعيين » ، حيث بإمكاننا أن نتحدّث عنهم بالسوء ، ولكن ، في الحقيقة ، إنهم شيء مختلف عن هؤلاءالأوغاد، يبرهنون عن حكمتهم العميقة عند ما يرفضون أن يتعرّفوا عليهم ، وأن يوسّخوا بـ «آل فردوران» حتى ، أطراف أصابعهم ! أية رؤيا ، في هذه «اللاتَلْمِسُوني»في«الغوبورسان ـ جرمان ! » كان قد عبر منذ وقت طويل ممّرات الغابة ، وبالكاد ، كان قد وصل إلى منزله ، حيث ، لم يكن قد خرج بعد من سكرة حزنه ومن هاجس قلّة الصدق ، حيث النبرات الكاذبة ، وحيث الرنين المصطنع لصوته ، من لحظة إلى أخرى ، يرشح بالسُكر أكثر فأكثر . كان مستمرّاً في ثرثرته المنفعلة عليهم خلال صمت الليل : « الناس الاجتماعيون لديهم سيّئاتهم ، ولا أحد يعرفهم أكثر مني ، ولكن ، على كلّ حال ،

هم أناس ، حيث معهم تغدو بعض الأشياء مستحيلة . إحدى النساء الأنيقات التي عرفتها ، لم تكن جيّدة كثيراً ، ولكن كنتَ تجد عندها ، رغم كلّ شيء ، شيئاً من الرقّة ، وإخلاصاً في معاملاتها يجعلانها ، مهما يحصل ، بعيدة عن الخيانة ، ويكفيان أيضاً أن يفصلاها بهوّة كبيرة عن امرأة شرسة ، مثل السيّدة « فردوران » . « فردوران » ! أيّ اسم هذا ! آه ! بإمكاننا القول إنّهم كاملون ، إنّهم رائعون في نوعهم ! شكراً لله ، كان قد حان الوقت حيث لم يعد يجوز أن أتنازل إلى مثل هذا الاختلاط ، مع هذه السَفَالة ، مع هذه الأقذار .

ولكن ، بما أنَّ النعوت التي نسبها منذ قليل إلى « آل فردوران » ، حتى لو انّهم حقاً يتلبّسونها ، ولو لم يكونوا قد أنعشوا حبّه وحضنوه ، لم تكن تكفي لتعكس لدى « سوان » هذه النشوة ، حيث كان يحنّ إلى شهامتهم ، وحيث هي تنتشر من خلال أناس آخرين ، ولكن لا تأتيه إلاّ من خلال « أوديت » - أيضاً قلّة الأخلاق ، حتى ولو كانت حقيقيّة ، التي يجدها ، حالياً ، عند « آل فردوران » ، كانت قد أصبحت غير فعّالة لو لم يكونوا قد دعوا « أوديت » ، بدونه ، مع « فورشفيل » ، وبعيدة عن إثارة غيظه وفَضْح « سفالتهم » . ودون شكّ ، كان صوت « سوان » ، يرى الأشياء أكثر منهم ، عندما كان يرفض أن يتلفّظ بهذه الكلمات المليئة بالقرف عن مجتمع « آل فردوران » مبتهجاً بأنّه قد تخلص منه بشكل صحيح ، ومثل كأنّهم مختارون بدّقة ليرووا غضبه أكثر من أن يعبّروا عن فكرته . هذه الفكرة ، فعلاً ،

حيث كان يوجّه إليهم الشتائم ، كانت ، يمكن ، دون أن يشعر ، مهمّة بشيء مختلف كلّياً ، لأنه حين وصل إلى منزله ، أول شيء فعله هو أنه أقفل الباب وراءه ، وفجأة ، ضرب على جبينه ، وعاد ففتح الباب ، ومن ثم خرج وهو يصرخ ، بصوتٍ طبيعي ، هذه المرة : « أعتقد بانني وجدت الوسيلة التي تجعلني أُدعى غداً إلى العشاء في « شاتو » ، ولكن الوسيلة كانت سيئة ، لأنّ « سوان » لم يُدعَ : الدكتور « كوتار » الذي ارسلوا في طلبه إلى القرية ، بسبب حالة خطرة ، لم يكن قد رأى « آل فردوران » ، منذ بضعة أيّام ، ولم يكن باستطاعته أن يذهب إلى « شاتو » ، قال ، في اليوم التالي على العشاء ، وهو يجلس إلى المائدة عندهم :

ـ ولكن ، ألن نرى السيّد « سوان » هذا المساء ؟ ها هو حقيقة ما تسمّونه صديقاً شخصياً لـ . . .

ـ طبعاً ، أتأمّل ، كلاّ ، صرخت السيّدة « فردوران » ، نجّنا يا ربّ ، إنّه مملّ ، غبيّ ، وقليل التهذيب .

عندما سمع « كوتار » هذا الكلام ، عبَّر عن استغرابه وخضوعه ، في آنٍ واحد ، كما أمام حقيقة ، لا تعكس كلّ ما كان قد آمن به حتى الآن ، ولكن واضحة بشكل لا يقاوَم ؛ وهو يخفض أنفه باتجاه صحنه ، بشكل منفعل وخائف ، اكتفى بالقول : « آه ! آه ! آه ! آه ! آه ! آه ! » تراجع إلى الوراء ، منسحباً بنظام إلى داخل نفسه ، بشكل متوازٍ مع تراجع نبرات صوته . . . وتوقّف الحديث عن « سوان » ، عند « آل فردوران » ، بشكل نهائي !

هكذا ، هذا الصالون الذي كان قد جمع « سوان » و« أوديت »، تحوّل إلى حاجز يمنع تلاقيهما . لم تكن تقول له ، مثلما في بداية حبّهما : « على كلّ حال سنتقابل غداً مساء في عشاء عند « آل فردوران » ، ولكن : لن نرى بعضنا غداً في المساء ، سيكون هنالك عشاء عند « آل فردوران » » . أو ، أنَّ « آل فردوران » ، كانوا سيأخذونها معهم إلى « الأوبرا كوميك » ، ليشاهدوا « ليلة لـ كليوباترا » . كان « سوان » يقرأ في عيني « أوديت » خشية من أن يطالبها بعدم الذهاب ، العينان اللتان ، في الماضي ، لم يكن باستطاعته إلاّ أن يقابلهما عندما يسافر نظره إلى وجه حبيبته، وحيث الآن، أصبح يغيظه هذاالوجه. مع أنّه، هذا ليس غضباً ، يقول في نفسه ، أن أشعر بأنّها تودّ الذهاب لتنقد من هذه الموسيقى البُرازية . هذا محزن ، ليس أكيداً بالنسبة لي ، ولكن بالنسبة لها . محزن أن تراها ، بعد أن عاشت على اتصال يومي معي أكثر مِن ستة أشهر ، لم تستطع أن تتحوّل ، بما فيه الكفاية ، لتحذف ، بصورة عفوية ، «فيكتور ماسّيه » ! وبالأخصّ ، لتصل إلى التفهّم ، في بعض السهرات ، وعندما يكون هنالك شخص حسّاس بعض الشيء ، يجب أن يعرف كيف يتخلّى عن لذّة ما ، عندما تُطلب منه . كان عليها أن تقول « لن أذهب » ، لو أنّها كانت ذكّية ، وعلى ردّها هذا ، سيحكم نهائياً على نوعية روحها » . لقد أقنع نفسه بأنَّ هذا الشيء ، كان ، فقط ، بسبب أن يستطيع الحكم ، بصورة مناسبة ، على نوعية القيمة الروحية عند « أوديت » حيث كان يودّ ، هذه الليلة

بالذات ، أن تبقى معه عوضاً عن أن تذهب إلى « أوبرا كوميك » . وكان يحاول إقناعها بمستوى قلّة الصدق ذاته ، الذي استعمله تجاه نفسه ، وحتى لدرجة أكثر ، لأنّه كان يخضع أيضاً لرغبته ، في أن يحرّك كبرياءها .

ـ أُقْسِمُ ، قال لها ، بضع لحظات قبل أن تذهب إلى المسرح ، بأنّني عندما أطلب منك عدم الذهاب ، كلّ طموحاتي ، لو كنت أنانياً ، كانت أن ترفضي لي طلب ، لأنَّ لديّ ألف شيء لأفعل هذا المساء ، وسأجد نفسي محرجاً ومنزعجاً إذا كنتِ ستجيبنني بأنّك لن تذهبي . ولكن أعمالي ، ملذّاتي ، ليسا هما كلّ شيء ، عليّ أن أفكّر فيك . سيأتي يوم ، ربّما إذا رأيتيني منفصلاً عنك كلّياً ، فسيكون معك حقّ بأن تعاتبيني لأنني لم أنذرك بالدقائق الحاسمة ، حيث كنت أشعر بأنّني كنت سأحكم عليك بصورة قاسية ، لأنَّ الحبّ لا يقاوم الحكم القاسي بما فيه الكفاية . هل ترين ، « ليلة كليوباترا » (ما هو هذا العنوان !) هو لا يعني شيئاً في هذه المناسبة . ما يجب أن نعرف جيداً ، هو إذا كنتِ أنتِ ، حقاً ، الشخص الذي يمثّل أنبل وأبعد مسافات الروح ، وكذلك الروعة ، أو أنّك هذا الشخص الحقير ، الذي ليس بإمكانه أن يتنازل عن لذّة ما . عندئذٍ ، إذا كنتِ أنت هكذا ، كيف يكون من الممكن أن يحبّك أحد ، لأنّك لست إنساناً ، حتى : إنّك شخص محدَّد ، غير كامل ، ولكن ، ربّما ، على الأقل ، قابلة للكمال ؟ إنّك ماء بدون شكل ، يجري كما المنحدر المرسوم . سمكة بدون ذاكرة وتفكير ، التي طالما هي

تعيش في « الأكواريوم » ، تصطدم ، مئة مرّة في النهار ، بالزجاج ، وتستمرّ ، وتستمرّ . . . تعتقده بأنّها الحياه . هل تفهمين أنّ جوابك ، الذي لم أقل أنّني تحت تأثيره ، لأتوقّف، فوراً ، عن حبّك . طبعاً لا ، ولكن ، سيتضاءل إعجابي بكِ ، عندما سأفهم أنّك لست شخصاً ، وأنّك دون مستوى كلّ الأشياء ، لم تعرفي أن تبتكري مكاناً فوق أي شيء ؟ ! بالتأكيد ، كنت أفضّل أن أطلب منك ، كما لو أنّه شيء دون أهمية ، أن تتنازلي عن رؤية « ليلة لكليوباترا » (ما دمتِ ستجبرينني على أن أدنّس شفتيّ بهذا الاسم القذر) آملاً بأن تذهبي مع ذلك . ولكن ، مصراً على أن أفعل هكذا ، وأن أستخلص هذه النتيجة من جوابك ، رأيت انني سأكون مخلصاً أكثر في أن أنبهك .

منذ وقت طويل ، كانت تبرز لدى « أوديت » بعض علامات التأثر والتردّد . إذا لم تكن تفهم معنى الحديث ، كانت تدرأ جيداً أنّه يصنّف من النوع المألوف ، وهو الخطاب ، على شيء من الملامة أو الرجاء ، حيث التفكير العملي الذي لديها عن الرجال ، كان يسمح لها ، بدون التدقيق في تفاصيل الكلمات ، أن تستنتج أنّهم لا يلقون مثل هذا الخطاب ، لو لم يكونوا عاشقين جداً . وعندما يكونون هكذا ، ضروري أن تخضع لارادتهم ، لأنّ عشقهم سيتضاعف في ما بعد . وهكذا كانت قد سمعت « سوان » ، في هدوء تامّ ، لو لم تكن قد رأت أنّ الوقت يمرّ ، وإذا تكلّم قليلاً بعد ، سيفوّت عليها ، كما أعلمته منِ ثمَّ ، من خلال ابتسامة عاطفية ولكن متصلّبة وخجولة « حضور الافتتاحية ! »

مرّات أخرى ، كان يقول لها إنَّ أكثر شيء سيجعله يكفّ عن حبّها ، هو أنّها لن تتخلّى عن عادة الكذب فيها . « حتى ولو على سبيل الدلال ، لا تفهمين كم تخسرين من إغوائك عندما تنزلين إلى مستوى الكذب ؟ من خلال اعتراف ما ، كم كان باستطاعتك أن تعوّضي عن أخطائك ، حقّاً إنّك أقلّ ذكاء بكثير مّما كنت أتصوّر ! » ولكن عبثاً كان يعرض عليها « سوان » كلّ العوامل التي لديها لمنعها من الكذب ؛ كان باستطاعة هذه العوامل أن تلغي عند « أوديت » « الجهاز العام » للكذب ، والذي لم يكن موجوداً عندها ! كانت تكتفي فقط ، في كلّ حالة ، عندما تريد أن يجهل « سوان » شيئاً ما قد فعلته ، بأن لا تقوله له . هكذا ، الكذب ، كان بالنسبة لها ، وسيلة من نوع خاص ؛ والشيء الوحيد الذي بإمكانه أن يقرّر إذا كان عليها استعماله ، أو أنَّ عليها إعلان الحقيقة ، كان سبباً من نوع خاصّ أيضاً . لكنّ « سوان » ، من خلال أمل كبير أو صغير ، كان باستطاعته دائماً اكتشاف أنَّ « أوديت » لم تقل الحقيقة .

جسدّياً ، كانت « أوديت » تجتاز مرحلة سيّئة : كانت تسمن . جاذبيتها المعبّرة والمنهكة ، نظراتها المستغرِبة ، المليئة بالأحلام ، والتي كانت لديها من قبل ، تبدو وكأنّها قد زالت مع صباها الأوّل. « سوان » ، صار يحبّها أكثر ، بالضبط ، خلال الوقت الذي يراها أقلّ جمالاً . كان ينظر إليها مليّاً محاولاً العثور مجدّداً ، على الجاذبية التي كان يألفها لديها . لكنّ أمله كان يخيب . ورغم كلّ شيء ، كان يعرف أنَّ تحت هذا « المولود

الجديد » ، موجودة « أوديت » بالذات ، التي تعيش دائماً ذات الإرادة العابرة ، التي لا تمسك ، والمتسترة ، والتي كانت تكفي لـ « سوان » ، لكي يستمرّ ، أن يعيش الانفعال ذاته ، ليبحث ، في ما بعد ، عن كيفية التقاطه . ومن ثَمَّ ، كان ينظر إلى صور لـ « أوديت » تعود إلى سنتين مضت ، تذكّره كم كانت جميلة . وهذا ما كان يعزّيه قليلاً ، لأنّه يهتم بها إلى هذه الدرجة .

عندما كان « آل فردوران » ، يأخذونها إلى « سان ـ جرمان » ، إلى « شاتو » ، إلى « مولان » ، مراراً ، كان هذا الشيء يحدث في الفصل الجميل ، كانوا يقترحون فوراً ، أنّهم سيمضون ليلتهم هناك ، ولن يعودوا إلاّ في اليوم التالي . السيّدة « فردوران » ، كانت تبحث عن تهدئة وساوس عازف البيانو ، حيث عمتّه ، كانت قد بقيت في باريس .

ـ ستكون مسرورة أن تتخلّص منك يوماً واحداً . وكيف ستقلق عليك ، وهي تعلم أنّك معنا ؟ على كلّ حال ، إنني أتحمّل مسؤولية كلّ شيء .

ولكنّها لم تنجح . السيّد « فردوران » ، ذهب إلى القرية بحثاً عن مكتب بريد أو رسولٍ سائلاً مَن من المؤمنين لديه شخص يريد أن يعلمه بأنه لن يعود إلى المنزل . « أوديت » ، كانت تشكره وتقول انّها ليس لديها أحد لتعلمه بأيّ خبر ، لأنّها كانت قد قالت لـ « سوان » ، مرّة نهائية ، إنّها إذا أرادت أن ترسل له خبراً أمام كلّ الناس ، فتسيء لسمعتها . مرّات ، كانت تغيب لعدّة أيّام ، كانت تذهب برفقة « آل فردوران » لتشاهد

مقابر « درو » ، أو إلى « كومبيان » لتتأمّل ، حسب نصيحة الرسّام ، غروب الشمس في الغابة ، وكانوا يصلون أيضاً إلى قرب قصر « بييريّفون » .

ـ فكّروا بأنّها تستطيع أن تزور نُصُباً تذكارية حقيقية معي ، حيث قد درست الهندسة المعمارية لمدّة عشر سنوات ، وحيث يتوسّلونني دائماً أن أرافق إلى « بوفيه » أو إلى « سان ـ لو ـ دو ـ نو » أناساً من أعلى المستويات ، ولم أكن لأفعل هذا إلّا لها بالذات ، وعوضاً عن هذا ، تذهب مع حثالة القوم وتنبهج ، على التوالي ، أمام بُراز « لويس ـ فيليب » ، وكذلك أمام بُراز « فيوليه ـ لو ـ دوك » ! يبدو لي أنّه ليس من الضروري أن تكون فنّاناً من أجل ذلك ، ولكن ، وحتى بدون الحاجة إلى بصيرة دقيقة جداً ، يجب ألّا يختاروا الاصطياف في المراحيض ، حتى يكون باستطاعتهم أن يتنشّقوا روائح البُراز !!

ولكن ، عندما كانت تذهب إلى « درو » أو إلى « بييريّفون » ـ للأسف ، دون أن يسمح لها بالذهاب ، كما بالصُدفة ، من جهته ، لأنَّ هذا « سينعكس بشكل مؤسف » ، تقول ـ كان يغوص في أكثر قصص الحبّ المُسكِرة ، وفي دليل سكّة الحديد ، الذي يجعلها تطلع على الوسائل التي تستعملها لتقابله بعد الظهر ، مساء ، هذا الصباح بالذات ! الوسيلة ؟ وأيضاً أكثر : السماح . لأنّه في النهاية ، الدليل والقطارات . . . هي بالذات ، لم تكن مصنوعة من أجل الكلاب ! !لو يعلنون للجمهور ، بواسطة أوراق مطبوعة ، أنّه في الساعة الثامنةصباحاً ، سيغادر قطارها ، ليصل

إلى « بيبريّفون » في الساعة العاشرة ، فهذا يعني أنَّ الذهاب إلى « بيبريّفون » ، هو شيء مسموح به ، ولا يحتاج إلى موافقة « أوديت » ، بما أنَّ الناس الذين لا يعرفونها ، كانوا يذهبون كلّ يوم بأعداد غفيرة ، فتدفأ القاطرات بهم .

في الواقع ، لم تكن تستطيع أن تمنعه من الذهاب إلى « بيبريّفون » إذا كانت هذه رغبته ! وقد صادف أنّه كان يودّ الذهاب ، وهو ، لو لم يكن يعرف « أوديت » ، لكان قد ذهب بالتأكيد . منذ مدّة طويلة ، كان يريد أن يتأكّد ، بدقّة ، عن أعمال ترميم « فيّوليه ـ لوـ دوك » . وفي هذا الطقس ، كان يشعر برغبة شديدة لأن يقوم بنزهة في غابة « كومبياني » .

لم يكن كسباً له أن تمنعه من الذهاب إلى المكان الوحيد الذي كان يرغبه هذا اليوم . اليوم ! لو كان يذهب بالرغم من رفضها ، فسيكون متيسّراً له أن يراها « اليوم » بالذات ! ولولا يَتمّ هذا ، لو كانت قد قابلت مثلاً في « بيبريّفون » شخصاً لا أهمية له ، كانت تقول له ببهجة : « ها ، أنت هنا ! » وكانت طلبت منه أن يذهب ليراها في الفندق حيث تنزل مع « آل فردوران » . بالعكس ، لو كانت قد قابلته ، هو ، « سوان »، بالذات ، فستكون منزعجة ، معتقدة بأنّها مطاردة ، وسيخفّ حبّها له ، وقد تشيح بوجهها عنه ، غاضبة ، في ما لو لمحته . « هكذا ، لم يعد لديّ حقّ في أن أسافر ! » ستقول له في طريق العودة ، ولكن ، في الواقع ، هو الذي لم يكن له حقّ أبدا في السفر !

كانت قد أتته الفكرة في لحظة ما ، أنّه حتى يتمكن من

الذهاب إلى « كومبياني » أو إلى « بييريّفون » ، دون أن يوحي بأنّه ذاهب لمقابلة « أوديت » ، عليه اصطحاب أحد أصدقائه معه ، « المركيز دوفورستيل » ، الذي كان يمتلك قصراً في الجوار . هذا ، الذي كان قد أخبره بذلك ، دون أن يعلمه بالسبب ، كان مسروراً جداً ومبتهجاً لأنّ « سوان » ، مرّة أولى ، منذ خمسة عشرة عاماً يقبل في النهاية أن يذهب لرؤ ية قصره ، ولأنّه لا يريد أن يتوقّف عنده فقط ، وعده بأنّهما سيقومان برحلات ونزهات معاً ، لمدّة بضعة أيّام . كان « سوان » يتصوّر نفسه بأنّه قد أصبح هناك مع السيّد « دوفورستيل » . وحتى قبل أن يرى « أوديت » ، حتى لو لم يستطع رؤ يتها ، أيّة سعادة سيشعر بها عندما تطأ قدماه تلك الأرض ، حيث ، لا يعرف مكانها بالضبط ، في تلك اللحظة من وجودها هناك ، ولكنّه سيشعر بنبْض رؤ يتها في كلّ مكان : في باحة القصر ، الذي قد أصبح في نظره ، شيئاً في منتهى الجمال ، لأنّه بسببها ، قد أتى ليراه ؛ في كلّ شوارع المدينة التي ستبدو له رومنسية ؛ على كلّ طريق في الغابة وقد أصبحت ورديّة اللون تحت تأثير المغيب العميق والحنون ؛ ـ منتجعات متتالية لا تُحصى ، حيث كان يأتي ، في الوقت نفسه ، ليحتمي ، في الحضور غير المؤكّد ، وفي أكثر من مكان لآماله ، قلبه السعيد ، الرحّال والمتكاثر . « على كلّ حال ، سيقول للسيّد « دوفورستيل » ، فلنكن متيقّظين من أن لا نعثر على « أوديت » و«آل فردوران» ؛ لقد علمت بأنّهم موجودون ، اليوم بالذات في « بييريّفون » . لدينا الوقت الكافي لكي نلتقي في باريس . ليس

من الضروري أن نغادر القصر ، لكي لا يعود باستطاعتنا أن نخطو خطوة واحدة ، بعضنا دون الآخر . لم يكن يفهم ، صديقه ، لماذا عندما سيكون هناك ، سيغيّر خططه عشرين مرّة ، يلقي نظرات على غرف الطعام في كلّ فنادق « كومبياني » دون أن يقدّر الجلوس في أيّة واحدة منها حيث ، مع ذلك ، لم يكن يُرى أي أثر لـ « آل فردوران » في أيّة واحدة منها . ومثل كأنّه يبحث عمّا قد يقول إنّه يهرب منه ، وفي النهاية ، سيهرب منه أوّل ما سيجده ، لأنّه لو كان قد قابل الجماعة الصغيرة ، كان قد تظاهر بالابتعاد عن أفرادها ، سعيداً ، فقط ، برؤ ية « أوديت » ، وفي أنّها قد رأته هي أيضاً ، وبالأخصّ ، أنّها ستتأكّد من أنّه ليس مهتماً بها . ولكن ، كلّا ، كانت ستدرك ، بالتأكيد ، أنّه جاء إلى هنا من أجلها » . وعندما سيأتي السيّد « دوفورستيل » ليأخذه معه ، فيقول له : « للأسف ! كلّا ، لا أستطيع الذهاب اليوم إلى « بييريّفون » ، إنّ « أوديت » موجودة هناك ، في هذا الوقت بالذات » . كان « سوان » سعيداً ، رغم كلّ شيء ، في أن يشعر بأنّه ، إذا كان هو الوحيد من بين كلّ الناس لم يكن لديه الحقّ في هذا النهار بالذهاب إلى « بييريّفون » ، لأنّه ، بالنسبة إلى « أوديت » شخص مختلف عن كلّ الآخرين . كان عشيقها . وهذا التقيد ، الموجّه إليه خاصة ، والذي هو أيضاً ضدّ القانون الشامل ، المرتبط بحرّية التجوّل ، لم يكن إلّا أحد أنواع العبودية الجميلة ، بسبب حبّه لـ « أوديت » ، الذي كان بالنسبة إليه ثميناً جداً . في الحقيقة ، كان من الأفضل ألّا يخاطر في افتعال

مخاصمتها . كان عليه أن يصبر وينتظر عودتها . كان يمضي نهاراته منحنياً فوق خريطة غابة « كومبياني » ، وكأنَّها كانت خريطة « التوندر » ، محاطاً بصور قصر « دو بييريّفون » . في بداية النهار ، حيث كانت عودتها ممكنة ، كان يفتح الدليل مجدّداً ، ليعرف أيّ قطار كانت قد أخذت ، وإذا كانت قد تأخرت ، وكان يبحث أيضاً عن أية قطارات لم تكن قد ذهبت بعد . لم يكن يغادر مكانه ، خوفاً من أن تفوته برقية ، ولم يكن ينام ، خوفاً من أنّه ، لو عادت « أوديت » ، في آخر قطار ، وأرادت مفاجاته بحيث تأتي إلى عنده خلال الليل . في هذه اللحظة ، بالضبط ، سمع طرقات على باب المدخل الرئيسي ، وقد بدا له أنّهم قد تأخّروا في فتح الباب . أراد أن يوقظ حارس البناية ، وأن يخرج إلى النافذة لينادي « أوديت » لو كانت هي الآتية ، لأنّه ، بالرغم من التوصيات التي كان قد نزل ووجّهها ، فربّما كانوا سيقولون لها بأنّه ليس موجوداً . ولكن ، أحد الخدم هو الذي كان يعود . كان يلاحظ رتلاً لا يتوقّف من العربات التي تمرّ ، بحيث لم يكن قد لاحظه فيها قبل . كان يسمع كلّ واحدة منها تأتي من بعيد ، تقترب ، تتجاوز بابه دون أن تتوقّف ، تحمل إلى أبعد من منزله رسالة لم تكن موجّهة إليه . كان ينتظر طوال الليل ، بدون فائدة ، لأنَّ « آل فردوران » ، بسبب أنّهم قدّموا موعد عودتهم ، فقد أصبحت « أوديت » في باريس منذ الظهر ، ولم يمرّ في ذهنها أن تعلمه ؛ وبما أنّها لم تكن تدري ماذا تفعل ، فقد ذهبت لتمضية السهرة في المسرح ، وكانت قد عادت منذ وقت طويل إلى المنزل ،

ونامت .

لم تكن قد فكّرت فيه . وهذه الأوقات ، التي كانت تنسى خلالها ، حتى وجود « سوان » بالذات ، كانت أكثر أهمية بالنسبة إليها ، لأنّها تجعل « سوان » متعلّقاً بها أكثر من كلّ ما تؤثر عليه أناقتها . لأن « سوان » ، هكذا ، كان يعيش وسط هذا الاضطراب المؤلم ، الذي كان ، من قبل ، قويّاً ، بما فيه الكفاية ، ليفتّح حبّه ، مثل ذلك المساء ، حيث لم يصادف « أوديت » عند « آل فردوران » ، وحيث صار يبحث عنها طيلة الليلة تلك . (ولكن ، لم يكن مثلي أنا ، مثلما حدث لي خلال طفولتي في « كومبراي » ، تلك الأيّام السعيدة ، حيث من خلالها ، ننسى الآلام التي ستولد ثانية خلال الليل) . كان « سوان » يمضي نهاراته بدون « أوديت » ، بعض الأوقات ، كان يقول لنفسه ، إنّه لو ترك امرأة جميلة مثل « أوديت » ، تخرج وحيدة في باريس ، كان هذا ، شيئاً معرّضاً للأخطار ، كما لو نضع مثلاً ، في وسط الطريق ، علبة مليئة بالمجوهرات . عندئذٍ ، كان يغضب من جميع المادّة ، كما لو كانوا كلّهم سارقون ! ولكنّ وجوههم « العامّة » ، الخفيّة عن أي تخيّل والتي لا شكل لها ، لم تكن تروي غيرته . كان فكر « سوان » يتعب عندما يمرّر يده على عينيه صارخاً : « كما يشاء الله » . مثل هؤلاء الذين يجدُّون في العمل ليستوعبوا موضوع واقعية العالم الخارجي ، أو موضوع خلود النفس ، يطابقون استرخاء فعل إيمان على عقولهم المتعبة . ولكن فكرة الغائبة ، كانت دائماً صعبة الانفصال عن

الأعمال اليومية البسيطة في حياة « سوان » : ـ أن يتناول الطعام ، أن يتلقى بريده ، أن يخرج ، أن ينام ـ بسبب حزنه هذا ، أن يفعل كلّ هذه الأشياء دونها ، كما هذه الحروف الأولى لاسم « فيليبيرلوبو » ، حيث في كنيسة « برُو » ، وبسبب تأسّفها عليه ، شَبكتها « مرغريت دوتريش » مع الحروف الأولى لاسمها . بعض الأيّام ، عوضاً عن أن يلتزم مكانه ، كان يذهب لتناول الطعام في أحد المطاعم بالقرب من منزله ، حيث كان قد تذوّق ، في الماضي ، الطعام الشهي ، وحيث الآن لم يكن يذهب إلاّ لسبب واحد ، في آنٍ واحد ، روحي وسخيف ، وهو ما ندعوه رومنسياً ؛ هذا المطعم (الذي ما زال موجوداً) يحمل الاسم نفسه للشارع الذي تسكنه « أوديت » : « لابيروز » أحياناً ، عندما كانت تقوم بتنقّل بسيط ، لم تكن تفكّر ، إلا بعد عدّة أيام ، بأن تعلمه بعودتها إلى باريس . وكانت تقول له ، بكل بساطة ، دون أن تلتجىء إلى أيّ تبرير أو أن تغطّي كذبتها بجزء من الحقيقة ، إنّها قد وصلت هذه اللحظة بالذات في قطار الصباح ! هذه الكلمات كانت كاذبة ، على الأقّل ، بالنسبة إلى « أوديت » : كانت كاذبة وغير متماسكة ، ولم يكن لها ، كما لو كانت صحيحة ، نقطة ارتكاز بذكرى وصولها إلى المحطة ؛ وحتى لم يكن باستطاعتها أن تراها أمام ناظريها في الوقت ، حيث كانت تلفظ هذه الكلمات ، بسبب الصورة المتناقضة والمختلفة كلياً عن الذي كانت قد فعلته في الوقت الذي نزلت فيه من القطار . ولكن ، بفكر « سوان » ، بالعكس ، هذه الكلمات التي لم تكن تقابل أي رفض . كانت تأتي وتثبّت ،

متخذة صورة حقيقة غير قابلة للعزل أو للشكّ لدرجة ، أنّه لو كان صديق ما قد أخبره عن عودته في القطار ذاته ، دون أن يرى « أوديت » ، كان « سوان » مقتنعاً بأنّ صديقه هو الذي قد أخطأ في اليوم أو في الساعة ، لأنَّ قوله لم يتفّق مع أقوال « أوديت » . هذه الكلمات ، لم تكن قد ظهرت له كاذبة ، إلاّ لو كان منذ قبل قد تحدّى نفسه أنّها حقاً كانت كاذبة . ليصدّق أنها كانت تكذب ، شكٌ سابقٌ ، كان شرطاً كافياً لذلك . عندئذٍ ، كلّ الذي كانت تقوله « أوديت » ، كان يظهر له قابلاً للشكّ . إذا كان يسمعها تذكر اسماً ما ، فهم بالتأكيد ، اسم لأحد عشّاقها ؛ وعندما يرد في ذهنه هذا الافتراض ، كان يمضي أسابيع عديدة ، حزيناً ؛ حتى أنّه مرّة ، اتصل بأحد مكاتب الاستعلامات ليعرف العنوان ، أو كيفية استعمال وقت هذا المجهول ، الذي لن يدعه يرتاح ، إلاّ عندما سيسافر ، وحيث قد عرف في النهاية ، أنّه عمٌ لـ « أوديت » كان متوفّياً منذ عشرين سنة .

بالرغم من أنّها ، كانت بوجه عام ، لا تدعو يقابلها في الأماكن العامّة ، قائلة إنَّ هذا الشيء سيدعو للثرثرة ، كان يصادف ، أنّه خلال سهرة ما ، حيث يكون مدعوّاً إليها مثلها - عند « فورشفيل » ، عند الرسّام ، أو إلى حفلة خيرية في إحدى الوزارات - كان يوجد معها في آنٍ واحد . كان يراها ، ولكن ، لم يكن يجرؤ أن يستمرّ في الحفلة خوفاً من أن يثير غضبها ، عندما تفكّر بأنّه يتجسّس على المباهج التي كانت تحياها مع غيره ، والتي - عندما كان يعود وحيداً ، ويذهب إلى فراشه ، قلقاً ، لينام ،

(كما قد شعرت أنا ، بعد بضع سنوات ، خلال الليالي حيث كان يأتي لتناول طعام العشاء ، عندنا ، في المنزل ، بـ « كومبراي»). ـ كانت تبدو له غير محدّدة ، لأنّه لم يكن يشهد نهايتها . ومرّة أو مرّتين ، تعرّف إلى هذه الملّذات خلال تلك السهرات ، التي يقال عنها إنّها لو لم تكن تخضع بتلك الشدّة للصدمة مقابل هذا القلق ، نتوقّف ، فجأة ، عن تسميتها ملّذات هادئة ، لأنّها تقوم على الهدوء : كان قد ذهب ليحضر حفلة اجتماعية عند الرسّام ، وكان على وشك أن يغادره ؛ كان يترك « أوديت » صامتة مثل شخص غريب ولامع ، بين رجال ، حيث فرحها ونظراتها ، التي لم تكن موجّهة له ، تبدو أنّها كانت تعبّر عن شيء من اللّذة ستتذوّقها هنا أو هناك (يمكن في « سهرة مفككّين » ، حيث كان خائفاً جداً أن تذهب إليها في ما بعد) ، والتي كانت تسبّب لـ « سوان » غيرة أشد من العمل الجنسي بالذات ، لأنه كان يتصوره بأكثر صعوبة ؛ كان جاهزاً لأن يعبر باب المحتَرَف عندما سمع ينادونه بكلمات (التي عندما تُحذَف من السهرة ، هذه النهاية التي ترعبه ، تعيدها في نظره وبالرجوع إلى الماضي ، بريئة ، وتجعل من عودة « أوديت » شيئاً ، ليس فائق التصوّر ومخيفاً ، ولكن ناعماً وذا حضور مميّز ، والذي يستمرّ بقربه ، قليلاً مثل حياته اليومية ، في عربته ، والتي تجدّد « أوديت » هي بالذات من مظاهرها ذات البريق الطاغي ، والفرحة ، مظهرة أنّ هذاالذي تلبّسته لفترة لم يكن سوى تنكّر له بالذات ، ليس بسبب الملّذات السرّية ، حيث كانت قد ضجرت منها) ، كانت أوديت تريد أن تستوقفه من خلالها ، عندما كان قد

وصل إلى عتبة المنزل : « ألاّ تريد انتظاري خمس دقائق ، إنّني سأذهب ، سنعود معاً ، ستوصلني إلى المنزل » .

صحيح أنّ « فورستيل » كان قد طلب أن يعود معهما ، ولكن عندما قد وصل إلى باب « أوديت » ، طلب السماح ، بالدخول أيضاً ، وقد أجابته « أوديت » مشيرة إلى « سوان » : « آه ! هذا يتوقّف على هذا السيّد ، إسأله . على كلّ حال ، أدخل إذا شئت ، ولكن ليس لمدّة طويلة ، لأنّني أنبّهك على أنّه يحبّ أن يتحدّث معي بهدوء ، ولا يحبّ كثيراً أن يجد زائرين عندما يأتي . آه ! لو كنت تعرف هذا الشخص بمقدار ما أعرفه أنا ! أليس هكذا ، يا حبيبي ، ليس سواي من يعرفك جيّدا ؟ »

كان يمكن لـ « سوان » أن يتأثّر أكثر ، عندما كان يراها توجّه ، هكذا ، بوجود « دوفورشفيل » ، ليس فقط كلمات الحنان تلك ، أو أن تظهر تفضيلها له مثلاً ، ولكن أيضاً بعض الانتقادات مثل : « أنا متأكّدة من أنّك لم تردّ بعد على أصدقائك . بخصوص عشاء يوم الأحد . لا تذهب إذا لم تكن تريد ، ولكن كن مهذّباً على الأقلّ » ، أو : « هل تركت هنا ، فقط ، دراستك عن « فيرمير » حتى تستطيع أن تعجّل فيها غداً ؟ يا لك من كسول ! سأجعلك تعمل ، أنا ! » التي تبرهن عن أنّ « أوديت » كانت مطلعة على دعواته في المجتمع وعلى دراساته في الفنّ ، وأنّهما ، كان لديهما حياة مشتركة . لحظة تقول ذلك ، كانت توجّه له ابتسامة ، كان يشعر بأنّها له ، بشكل كامل .

عندئذٍ ، في هذه اللحظات ، وهي تعدّ له عصير البرتقال ،

فجأة ، كما عاكس منظّم ، بصورة سّيئة في البداية ، يمرّر حول شيء على الجدار ، خيالات كبيرة وهميّة ، تعود من ثمّ ، فتُطوى وتتلاشى فيه ، كلّ الأفكار المرعبة والمتحرّكة التي كانت لديه عن « أوديت » تزول ، وتذوب في الجسَدَ الجذّاب الذي كان ماثلاً أمام عيني « سوان » . كان لديه شكٌ مفاجىء في أنَّ هذه الساعة التي يمضيها عند « أوديت » ، تحت الضوء ، يمكن أنّها لم تكن ساعة مصطَنعة . كانت بالنسبة له « مخصَّصة لتقنَع هذا الشيء المخيف والذي كان يفكّر فيه كلّ الوقت ، دون أن يستطيع تمثّله .

ساعة من الحياة الحقيقية لـ « أوديت » . من حياة « أوديت » عندما لا يكون ، هو ، موجوداً معها ، مع كلّ لوازِم المسرح وفواكه من الكرتون ! ولكن كانت ، ربّما ، ساعة حقيقية من حياة « أوديت » الحقيقية ، حيث لو لم يكن هنا ، كانت قد قدّمت لـ « فورشفيل » ، هذا المقعد ذاته ، وسكبت له ، ليس شراباً مجهولاً ، ولكن ، عصير البرتقال ، هذا ، بالذات ، حيث العالم الذي تسكنه « أوديت » ، لم يكن هذا العالم الآخر ، المفجع والروحي ، والذي كان يمضي وقته في تحديده ، والذي لم يكن موجوداً ، ربّما إلاّ في تخيّلاته ، ولكنّه عالم حقيقي ، لا يبعث أي حزن خاص ، يضمّ هذه الطاولة التي كان باستطاعته أن يكتب عليها ، وهذا الشراب ، الذي كان مسموحاً له بأن يتذوّقه ؛ كلّ هذه الأشياء التي يتأمّلها ، بنسب مختلفة من الحشرية والإعجاب ، تعادل عرفان الجميل ، لأنّه إذا كان وهو يجرع أحلامه ، كانت هي قد أنقذته منها . بالمقابل ، كانت هذه الأحلام قد تكثّفت .

كانت تجعله يلمس الحقائق، وكانت تمتّع فكره، وتظهر بصورة واضحة أمام نظره، في آنٍ واحدوهي تطمئن قلبه. آه! لو كان القدر قد سمح بألّا يكون له سوى منزل واحد يضمّه مع « أوديت »، وأنّه، عندما يكون موجوداً في منزلها، كأنّه في منزله بالذات، وإذ يسأل الخادم ماذا يوجد من طعام، فستكون الوجبة اليومية لـ « أوديت » التي يعلمونه عنها، وإذا أرادت « أوديت »، أن تذهب في الصباح، لتتنزّه في جادّة غابة بولونيا، فواجبه كزوج صالح كان يضطرّه، حتى ولو لم يكن يودّ الخروج من المنزل، أن يوصلها، حاملاً معطفها عندما تشعر بالحرارة. وفي المساء، بعد تناول طعام العشاء، إذا كانت تودّ أن تبقى في المنزل بثيابها الداخلية، كان عليه أن يجلس بقربها، ويفعل لها ما تشاء؛ عندئذٍ، كم كانت كلّ أشياء الحياة العادية لـ « سوان »، التي تبدو له حزينة جداً، معكوسة تماماً، لأنّها تشكّل جزءاً من حياة « أوديت » كانت قد انسكنت، حتى العادية منها، بالضبط ـ كما هذا المصباح، عصير البرتقال هذا، هذا المقعد الذي يحتوي الكثير من الأحلام، والذي كان يجسّد كثيراً من الأمنيات ـ شيئاً من الرقّة الزائدة وذات الكثافة النوعيّة الخفيّة!

بالرغم من أنّه كان يشعر جيّداً بأنّ الذي كان يتأسّف عليه، هكذا، كان هدوءاً، سلاماً، لم يكن بالنسبة إلى حبّه سوى جوٍّ مؤاتٍ. عندما ستتوقّف « أوديت » عن أن تكون له شخصاً ذا غياب دائم، مأسوفاً عليها، خيالية؛ عندما هذا الشعور الذي يحسّه تجاهها لن يكون هذا الانفعال الخفيّ ذاته،

الذي كانت تسبّبه عبارة « السونات » ، ولكن شيئاً من الحنان ، أو شيئاً من الاعتراف بالجميل ؛ عندما سيجد بينهما علاقات طبيعية ، تضع نهاية لجنونه وحزنه ، عندئذٍ ، ربّما ، ستبدو الأفعال في حياة « أوديت » ، بذات نفسها ، أقلّ أهمية ـ كما مرّات كثيرة كان لديه شكّ فيها ، مثلاً ، اليوم الذي كان قد قرأ فيه ، من خلال الظرف ، الرسالة التي كانت قد وجّهتها « أوديت » إلى « فورشفيل » . معتبراً وجعه ، من خلال الرؤيا والوضوح ، كما لو أنّه ، هو بالذات ، كان قد لقّح نفسه بهذا الوجع ليدرسه . يقول لنفسه أيضاً، إنه عندما سيشفى ، فالذي ستفعله«أوديت» ، سيكون ، بالنسبة إليه ، دون أهمية . ولكن من داخل حالته المرضيّة ، حقّاً ، كان يشّك مجدّداً تجاه الموت ، بأي شفاء ، حيث سيكون ، فعلاً ، موت كلّ ما هو موجود فيه حالياً .

بعد هذه السهرات الهادئة ، كانت تهدأ شكوك « سوان » ؛ كان يبتهج بـ « أوديت » ، وفي اليوم التالي ، منذ الصباح ، كان يرسل إليها أجمل قطعة مجوهرات ، لأنّ لطفها في المساء الماضي كان قد أيقظ ، إمّا عرفانه بالجميل ، وإمّا رغبته في أن يراها تجدّده ، وإمّا نوع من الحبّ الفائق الذي هو بحاجة إلى التفجّر .

ولكن ، في أوقات أخرى ، كان وجعه يتملكه مجدّداً . كان يتصوّر أنّ « أوديت » هي عشيقةُ لـ « فورشفيل » ، وأنّه عندما قد شاهداه من داخل عربة « آل فردوران » ، في الغابة ، في المساء الذي مرّ على حفلة « شاتو » ، حيث لم يكن مدعوّاً ، يرجوها دون فائدة ، بمظهر يائس ، حتى سائق عربته ، كان قد لاحظه ، بأن

تعود معه ، ولكنّه سار في طريقه وحيداً ومنهزماً ، كانت ، أكيداً ، قد تأخذ ، لتشير عنه إلى « فورشفيل » وتقول له : « ها ! كم هو حانق ! » النظرات ذاتها ، اللامعة الخبيثة المنخفضة والمتسترة ، التي كان « فورشفيل » قد تلبّسها عندما كان قد طرد « ساينيت » من عند « آل فردوران » .

عندئذٍ ، « سوان » كان يكرهها . « ولكن أيضاً ، إنّني غبيّ ، يقول لنفسه ، أدفع بنقودي ملّذات الآخرين . من الافضل لها أن تنتبه ولا تعقد الأمور معي ، لأنّني أستطيع أن لاأعطيها شيئاً قطّ.على كلّ حال ، من الأفضل أن نكفّ مؤقتاً عن اللطف الزائد ! أفكّر ، بأنّه البارحة ، عندما قالت إنّها تودّ أن تحضر الموسم في « بايْرُوْت » ، كنت غبّياً بما فيه الكفاية ، ، لأنّني اقترحت عليها أن تستأجر أحد القصور الجميلة للملك « دوبافيير » ، لنا نحن الاثنين ، في الضواحي . وعلى كلّ حال ، لم تكن تبدو أكثر بهجة ، وبعد هذا الشيء ، لم تجب بنعم أو بكلاّ . أتمنّى أن ترفض ، ياإله ! أن أستمع لـ « فاغنر » مدة خمسة عشرة يوماً معها ، وهي التي تهتمّ به كما تهتّم السمكة بالتفاحة ، سيكون هذا ممتعاً ! » كرهه ، مثل حبّه . ومحتاجاً إلى أن يعبّر عن حضوره وأن يفعل ، كان يتلذّذ أكثر فأكثر في أن يشغّل خيالاته السيّئة ، لأنّه بسبب الخداع الذي كان يُلبسه لـ « أوديت » ، كان يبغضها أكثر ، ومن الممكن إذا ـ وهذا ما كان يحاول أن يتصوّره ـ كان صحيحاً ، أن يكون لديه سبب لأن يعاقبها ويظهر لها غضبه المتزايد . استمرّ هكذا ، لدرجة جعلته يعتقد بأنّ رسالة ما ستصله

منها طالبة فيها نقوداً لتستأجر هذا القصر بالقرب من « بايْرُوت » ، ولكن ، منبئة إيّاه ، بأنّه لا يستطيع هو أن يأتي لأنّها ستدعو « فورشفيل » و « آل فردوران » . آه ! كم كان يتمنّى أن تجرؤ على تحقيق هذا الشيء ! وكم سيكون سعيداً في أن يرفض ، وفي أن يكتب الجواب الانتقامي ، حيث يتمتّع بأن يختار ويلفظ الكلمات بصوت مرتفع ، وكأنّه فعلاً ، قد تلقّى رسالة منها !

. . . وفعلاً ، هذا ما قد حدث في اليوم التالي ، بالضبط . فقد كتبت له تخبره أنّ « آل فردوران » وأصدقاءهم ، كانوا قد عبّروا عن رغبتهم في أن يحضروا العروض الأولى لـ « فاغنر » وانّه ، لو كان ممكناً ، أن يرسل لها نقوداً ، سيكون بإمكانها ، أخيراً ، وبعد أن كانت قد دُعيت مراراً إلى عندهم ، أن تحقّق رغبتها في دعوتهم ، بدورها . لم تكن تذكر عنه أية كلمة ، وكان واضحاً أنّ وجود « آل فردوران » قد يلغي وجوده عندها .

جواب مفجع ، حيث كان قد توقّف عند كلّ كلمة فيه ، الليلة السابقة ، دون أن يجرؤ على تأمّل أنّ جواباً كهذا سيتحقّق ، لكن ، كان لديه الفرح في أن يسلّمه بنفسه . مع الأسف ! كان يعرف جيّداً أن « أوديت » ، بالنقود التي تملكها ، أو تلك التي ستجدها بسهولة ، سيكون باستطاعتها ، بالرغم من كلّ شيء ، أن تستأجر قصراً في « بايْرُوت » ، وهذا ما كانت تتمناه ، هي التي لم تكن تستطيع التمييز بين « باخ » و « كلابيسون » . ولكن ، ستعيش هذه الأيام ، رغماً من كلّ ذلك ، في ضيق . لم تكن لتستطيع وكما لو أنّه قد أرسل لها بضعة آلاف من الفرنكات ، أن

تقيم ، كل ليلة ، في القصر ، تلك العشاءات الرفيعة ، ومن خلالها ، يمكن أنّها ستحقّق تلك النزوة ـ وحيث كان من المحتمل أنّها لم تكن قد حقّقتها ، أبداً ، من قبل ـ ان ترتمي بين ذراعي « دوفورشفيل » ! ومن ثم ، هذه السفرة الممقوتة ، لم يكن « سوان » ، هو الذي سيدفعها ! ـ آه ! لو كان باستطاعته أن يمنعها ! لو كانت قد « فكشت » ساقيها قبل أن تغادر منزلها . لو سائق العربة ، الذي سيوصلها إلى المحطّة ، كان قد قبل ، بأي ثمن كان ، أن يوصلها إلى مكان ما ، حيث تستمرّ بعض الوقت ، محتجزة . هذه المرأة الغدّارة ، ذات العينين البرّاقتين ، ومن خلال ابتسامة متواطئة ومتجهة لـ « فورشفيل » ، كانت ، هي بالذات ، منذ ثمانية وأربعين ساعة ، « ملكاً » لـ « سوان » !

ولكن لم تكن هكذا ، أبداً ، لوقت طويل ، وبعد أيّام قليلة ، كانت النظرة البرّاقة والماكرة ، تخسر من حدّتها ونفاقها . هذه هي الآن ، الصورة الصحيحة « لأوديت » المكروهة التي تقول لـ « فورشفيل » : « كم هو غاضب ! » وهي تبدأ بالشحوب . تبدأ في أن تُمحى . هكذا ، بالتالي ، كان يظهر ، كان يرتفع وهو يلمع قليلاً ، وجه « أوديت » الآخر ، التي كانت توجّه أيضاً ابتسامة لـ « فورشفيل » ، ابتسامة ، من خلالها ، لم يكن هنالك سوى الحنان ، لـ « سوان » ، عندما تقول : « لا تبقَ طويلاً هنا ، لأنّ هذا السيّد لا يحبّ كثيراً أن تكون لديّ زيارات عندما يرغب في أن يكون بقربي . آه ! لو كنت تعرف هذا الشخص مثلما أعرفه ! » هذه الابتسامة ذاتها ، التي كانت لديها ،

لتشكر « سوان » على بعض ملامح رقّة شعوره التي كانت تتذوّقها كثيراً ، وعلى بعض النصائح التي كانت قد طلبتها منه في أحد الأوقات الصعبة ، حيث لم تكن تثق بغيره .

عندئذ ، لهذه « الأوديت » بالذات ، كان يسأل نفسه ، كيف كان باستطاعته أن يكتب تلك الرسالة المهينة ، حيث دون شكّ ، لم تكن تصدّق أنّ باستطاعته أن يفعل هذا الشيء ، الذي كاد يجعله يهوي من قمّة المستوى الرفيع والفريد ، الذي كان قد حقّقه بسبب طيبته وإخلاصه ، اللذين كان قد اكتسبهما ، وحيث ، من خلالهما ، كانت تقدّره . كان حبّها له سيتضاءل دون شك ، لأنّ هذا الحبّ يعود إلى تلك الصفات ، التي لم تكن تجدها ، لا عند « فورشفيل » ولا عند أي شخص آخر ، وبسببها ، كانت تحبّه . كانت « أوديت » تبادله مرّات كثيرة ، بسبب صفاته ، لطفاً مميّزاً ، كان يستخفّ به في الوقت الذي كان يغار عليها ، لأنّ هذا اللطف ، لم يكن دليلاً عن رغبة ما . كان حناناً أكثر مما كان حبّاً . وعندما بدأ يشعر باهميّته ، شيئاً فشيئاً ، بدأت شكوكه تتزايد ، مراراً كثيرة ، من خلال اللهوة التي كانت تجلبها لـ « أوديت » ، مطالعة عن الفنّ أو حديث صديق لصديق ، وحيث كانت تجعل هواها ، أقل تطلّباً للمبادلة ! الآن ، بعد هذا التقلّب ، كانت « أوديت » ، بالتأكيد ، قد رجعت إلى النقطة ، حيث غيرة « سوان » ، كانت لفترة قصيرة ، قد أبعدته عنها . عادت إلى الاطار الذي كان « سوان » يراها جذّابة ، من خلاله . كان يتهيّأها ، مليئة بالحنان ، من خلال

نظرة قبول لديها ، وجميلة جداً ، حيث لم يكن بإمكانه أن يتمالك نفسه عن تقديم شفتيه باتجاهها ، كأنها كانت حاضرة هنا ، وباستطاعته أن يقبّلها ، وكان يحتفظ بهذه النظرة الساحرة والطيّبة ، بمقدار ما هي مخلصة ، كما لو أنّها كانت لديها فعلاً ، وليس تخيّله هو الذي كان قد رسمها ، تلبية لرغبة في نفس « سوان » .

كم يكون تأثّرها كبيراً ! بالتأكيد ، كان يجد أسباباً تلائم امتعاضه ضدّها ، ولكن هذه الأسباب ، لم تكن تكفي لأن يشعر بهذا الشيء ، لو لم يكن قد أحبّها إلى هذه الدرجة . ألم يكن قد شعر بتظلّم بهذه الأهمية ، ضدّ نساء أخريات ، حيث كان قد خدمهنّ ، كما فعل مع « أوديت » . لقد بدأ يتجانبهنّ ، دون غضب ، لأنّه توقّف عن حبّهن أيضاً ؟! لو كان سيجد نفسه يوماً ما ، في حالة اللامبالاة ذاتها تجاه « أوديت » ، سيفهم عندئذٍ ، أنّ غيرته كانت السبب الوحيد الذي يجعله يصادف أشياء رهيبة ، لا تُغتفر ، مُضافة إلى رغبة طبيعية في نفسه ، نابعة من سخافة ما ، وكذلك من خلال نوع من الشفافية الروحية ، أنّها تستطيع بدورها ، من خلال الفرصة السانحة التي قُدّمت لها ، أن تعيد لـ « آل فردوران » ما كانوا قد فعلوه معها ، وتلعب دور سيّدة المنزل .

كان يعود في وجهة النظر هذه ـ خلافاً لحبّه وغيرته ، متوقّفاً بعض المرّات ، بدافعٍ من شعور العدالة الروحية يميّز بين احتمالات مختلفة ـ حيث يحاول الحُكم على « أوديت » ، وكأنه لم

يكن قد أحبّها أبداً . كأنّها كانت بالنسبة له امرأة كباقي النساء ، ومثل كأنّ حياتها عندما لم يكن موجوداً داخلها ، لم تكن مختلفة ، تحيك مؤامرة بالسرّ عنه ، موجّهة ضدّه !

لماذا يعتقد بأنّها ستتمتّع هناك مع « فورشفيل » أو مع آخرين بملذّات مسكرة ، لم تكن قد تذوّقتها معه ، حيث غيرته فقط ، تبتكرها كليّاً ؟ في « بايْرُوْت » كما في باريس ، إذا صادف أنّ « فورشفيل » فكّر به ، لم يكن هذا إلا فقط ، كونه كان شخصاً مؤثراً في حياة « أوديت » ، حيث كان مفروضاً عليه أن يتخلّى عن مكانه ، عندما كانا يتقابلان في منزلها . من هنا ، لو توصّل « فورشفيل » و « أوديت » إلى أن يكونا هنالك ، رغماً عنه ، فهو الذي يكون قد أراد تحقيق هذا الشيء ، عندما سيمنعها ، دون فائدة ، من الذهاب إلى هناك . بينما لو كان قد وافق على مشروعها ، الذي ، على كل حال ، ليس شيئاً كليّاً ، وكأنّها ستذهب إلى هناك بناء على رغبته ، كانت قد شعرت ، دون شك ، بأنّه هو الذي قد أرسلها ، وبأنّه هو الذي قد استأجر لها القصر . وكانت ستعترف لـ « سوان » بهذه المبادرة ، بعد المتعة التي ستشعر بها من خلال استقبالها هؤلاء الناس ، الذين قد استقبلوها كثيراً في السابق .

وعوضاً عن أن تذهب وهي على علاقة سيّئة معه ، ودون أن تراه ، فإذا أرسل لها النقود ، وشجّعها على هذه السفرة ، باذلاً جهده لكي تتمتّع بها ، كانت ستسرع ، سعيدة ، وفيّة ، وستكون لديه ، طبعاً ، سعادة في أن يراها هكذا ، حيث لم يكن

قد تذوّق طعم السعادة منذ حوالى أسبوع ، وحيث لا شيء آخر ممكن أن يحلّ مكانها . لأنّه ، حالما استطاع « سوان » أن يتخيّل « أوديت » بدون كُره ، وأن يرى مجدّداً طيبة في ابتسامتها ، وأن ينتزعها من أيّ « رجل » آخر ، لم تكن مضافة على حبّه ، إلاّ بسبب الغيرة ، هذا الحبّ كان يُستعاد ، على الأخصّ ، وكأنّه نوع من التذوّق للاحساس الذي يمنحه له شخص « أوديت » ! للذّة التي يشعر بها في التأمّل ، كما لو أنّه منظر ، أو أن يسأل ، كما لو أنّه ظاهرة ، لشروق إحدى نظراتها ، لتكوين إحدى ابتساماتها ، لتسجيل إحدى نغمات صوتها . وهذه المتعة المختلفة عن كلّ مثيلاتها ، خلقت في نفسه حاجة إليها ، حيث ، فقط ، وحدها تستطيع أن ترويها بوجودها أو برسائلها ، مجرّدة ، تقريباً ، من أية غاية ، فنيّة إلى حد ما ، وأيضاً منحرفة ، كما أية حاجة أخرى ، التي تطبع هذه المرحلة الجديدة من حياة « سوان » ، حيث ، عوضاً عن الجفاف ، لاكتئاب السنوات الماضية ، أتى بعدها نوع من الفيض الروحي ، دون أن يعلم أكثر بسبب ماذا كان مَديناً لهذا الغنى الفائق التصوّر لحياته الداخلية ، حيث ينتعش شخص ما، تكون عافيته ضعيفة، انطلاقاًمن لحظة معينة، يسمن ، ويبدو لفترة مستمرة ، متوجّهاً نحو شفاء كامل : هذه الحاجة الأخرى التي كانت تنمو أيضاً خارج العالم الواقعي ، كانت هي في أن يعرف ويستمع إلى بعض الموسيقى .

هكذا في كيمياء وجعه بالذات ، بعد أن كان يتعامل بالغيرة مع حبّه ، يعود مجدّداً إلى افتعال الحنان والشفقة على « أوديت » .

عادت ، لأن تكون من جديد ، « الأوديت » اللطيفة والطيّبة . كان نادماً على قساوته تجاهها . كان يريد أن تأتي إلى قربه ، ولكن قبل هذا ، كان يودّ أن يبادلها بشيء من اللطف ، ليرى كيف يتكيّف عرفان الجميل مع وجهها وكيف يرسم ابتسامتها . « أوديت » ، أيضاً ، متأكدة من أنّها ستراه يأتي بعد أيّام ، حنوناً ومطيعاً ، كما في السابق ، يطلب منها المصالحة ، كانت قد اعتادت على عدم الخوف من ألاّ تعجبه ، وحتى من أن تغضبه ، وكانت ترفض له ، عندما كان هذا الشيء سهلاً بالنسبة لها ، الامتيازات التي كان متمسكاً بها كثيراً .

يمكن أنّها لم تكن تعلم ، كم كان مخلصاً معها ، عندما كانا متخاصمين . عندما مرّة قال لها إنّه لن يرسل لها نقوداً ، وإنّه سيتعمّد الاساءة إليها . يمكن أنها لم تكن تدرك أكثر ، كم كان مخلصاً ، ليس تجاهها فقط ، بل تجاه نفسه أيضاً ، وفي أحيان أخرى ، من أجل مستقبل علاقاتهما ، حتى يظهر لها أنّه يستطيع الاستغناء عنها ، وأن انقطاع العلاقات بينهما كان وارداً باستمرار ، وكان يتعمّد اتخاذ موقف بمقاطعتها ، حيث يستمرّ بعض الوقت دون الذهاب إلى منزلها .

مرّات ، بعد عدّة أيّام ، حيث لم تكن خلالها ، قد سبّبت له هموماً جديدة ، وبما أنّه ، من الزيارات اللاحقة التي سيقوم بها إليها ، كان يعرف جيّداً أنّه لم يكن باستطاعته أن ينال أيّة سعادة كبيرة ، ولكن ، من المحتمل ، بعض الكتابة التي تضع نهاية للهدوء الذي يعيشه . كان يكتب لها رسائل قائلاً لها فيها ، إنه لن

يستطيع رؤيتها في أيّ من الأيّام التي وعدها بها ، بسبب انشغاله ببعض الأمور . وفجأة ، إذا برسالة منها تتقابل مع رسالته ، تطلب منه فيها ، بدقّة ، أن يؤجّل أحد المواعيد الذي كان مرتبطاً به معها ! كان يسأل نفسه لماذا ، شكّه ، ألمه ، كانا يعودان مجدّداً . لم يكن يستطيع أن يفي ، من خلال حالته العصبية ، بتعهّداته التي كان قد ارتبط بها في الوقت السابق ، حيث كان خلاله أكثر هدوءاً . كان يسرع إليها ، فارضاً عليها أن يراها كلّ الأيّام التالية . وحتى لو لم تكن قد راسلته أولاً ، لو كانت قد أجابته فقط ، ولكنّها تقبل ، بناء على رغبته ، أن يفترقا لمدّة قصيرة ، كان هذا الشيء كافياً لكي يبعده عن رؤيتها باستمرار . لأنّه ، بعكس توقّعه ، موافقة « أوديت » قد غيّرت كل شيء فيه ! مثل كلّ هؤلاء الذين يملكون شيئاً ، حتى يعرفوا ماذا يحدث لو كانوا قد أضاعوا لمدّة قصيرة ، كان قد انتزع هذا الشيء من فكره ، تاركاً كلّ الباقي في الحالة ذاتها التي كانت عليها ، عندما كانت « أوديت » هنا . هكذا ، فقدان شيء ما ، لا يشكّل ضياعاً جزئياً بسيطاً ، بل هو تخريب لكلّ الباقي . إنّها حالة جديدة ليس باستطاعتنا أن نتراءاها من خلال الحالة القديمة .

ولكن ، مرّات أخرى أيضاً ـ « أوديت » كانت على استعداد لأن تقدم على سَفَر ـ كان هذا بعد خلاف صغير ، حيث كان « سوان » يختار السبب ، وحيث كان يقرّر ألاّ يكتب لها وألاّ يراها قبل عودتها ، مقدّماً ، هكذا ، الاحتمالات ـ وطالباً النتيجة ـ لخلاف كبير ، حيث ستظنّه « أوديت » نهائياً ، وإلى فراق ، حيث

أكبر جزء منه ، كان تجنّبه صعباً بسبب السَفر ، حيث كان يبتدىء ، فقط ، هذا الفراق ، قبل قليل . كان يتصوّر « أوديت » قلقة ، حزينة بسبب عدم زيارته لها أو تلقّي رسالة منه . وهذه الصورة ، وهي تهدّىء غيرته ، كانت لتسهّل عليه أن يعتاد على عدم رؤ يتها . دون شك ، في بعض الأوقات ، على امتداد حدود تفكيره ، حيث قراره كان يبعدها بسبب الأسابيع الثلاثة ، على طوال امتدادها ، عن هذا الفراق المقبول ، كان ينظر بسعادة إلى فكرة رؤ ية « أوديت » بعد عودتها : ولكن ، كان أيضاً ، مع لحظة من قلّة الصبر ، يبدأ يسأل نفسه عما إذا لم يكن يضاعف ، طوعاً ، مدّة هذا الامتناع عن رؤ يتهاالذي قد أصبح له سهلاً بهذا المقدار ! لم يكن هذا الامتناع مستمراً إلاّ منذ ثلاثة أيام فقط ، وهو وقت أقصر جداً من الذي أمضاه مراراً دون أن يرى « أوديت » ، ودون أن يكون قد تعمّده مثل الآن . بالرغم من ذلك ، ها هو تكدّر خفيف أو نوع من الانزعاج الجسدي ، قد سبّب له أن يعتبر الوقت الحاضر ، كما لو أنّه وقت استثنائي ، خارج القاعدة ، حيث الحكمة ، هي بالذات ، ستخضع للقاء الهدوء الذي تأتي به اللذّة ، وستريحه ، حتى العودة المفيدة للجهد ، وللارادة ـ كانت توقف فعل هذه الارادة التي تكفّ عن ممارسة ضغطها ، أو ، أقلّ من ذلك ، كان يتذكّر أنّه قد نسي أن يستعلم من « أوديت » ، عمّا إذا كانت قد قرّرت أن تختار اللون الذي ستدهن به عربتها من جديد ، أو عمّا إذا كانت قد استقرّت على أحد أسهم البورصة ، وفيما إذا كانت أسهماً عادية أو خاصّة ، تريد أن تشتريها (كان شيئاً

ممتعاً ، حيث يبرهن لها أنّ باستطاعته الاستمرار دون أن يراها ، ولكن إذا كان يضطرّ بعد ذلك ، إلى إعادة الدهان مجدّداً ، أو إذا لم تكن الأسهم تدرّ أرباحاً ، فسيكون ، كل ذلك ، بدون نتيجة له) ، هكذا مثل ، مطّاط مشدود عندما يُرخى ، أو هواء داخل آلة هوائية حيث تفتح قليلاً ، الفكرة أن يراها مجدّداً ، من خلال البُعد حيث هي الآن ، تأتي مجدّداً ، بشكل مفاجىء ، إلى مجال الحاضر والاحتمالات الفورية .

كانت هذه الفكرة تعود ، دون أن تجد أية مقاومة ، وكانت جذّابة ، لدرجة أنّ « سوان » نسي حزن انتظاره للأيّام الخمسة عشرة ، التي كانت تقترب يوماً بعد يوم ، حيث كان مضطراً خلالها أن يكون منفصلاً عن « أوديت » ، ولم يبق له إلاّ أن ينتظر الدقائق العشر ، التي يحتاجها سائقه ليقطر العربة التي ستوصله إلى عندها ، والتي كان يمضيها بنشوات من نفاد الصبر والفرح حيث كان يستعيدها ألف مرّة ليظهر لها حنانه ، هذه الفكرة أن يلتقيها مجدّداً حيث ، بعودة مفاجئة ، في الوقت الذي كان يعتقدها بعيدة جداً ، كانت مجدّداً إلى جانبه ، في أقرب مكان من ضميره ! فهي لم تكن موجودة ، لتمنعه عن رغبة البحث دون أي تأخير لمقاومتها ، التي لم تكن موجودة عند « سوان » منذ أن قد برهن لنفسه ـ هذا ما قد كان يعتقده على الأقلّ ـ أنّه كان باستطاعته هذا بكلّ سهولة ، لم يكن يرى مجدّداً أي مانع في ما لو أجّل تجربة انفصال ، حيث كان متأكّداً الآن من أنّه باستطاعته أن يحقّقه ساعة يشاء . هذا كان أيضاً ، أنّ هذه الفكرة في تصوّرها ثانية تتردّد ،

مزدانة بالتجدّد ، من أجله ، وبالاغواء ، موهوبة بهذه الحدّة ، حيث العادة كانت قد خففتها ، ولكنّها قد تنشّطت بهذا الحرمان ، ليس لمدّة ثلاثة أيّام ولكن من مدّة خمسة عشرة يوماً (لأنّ المدّة للتنازل يجب أن تُدرس مسبّقاً ! في الميعاد المحدّد) ، وفي كلّ شيء ، حيث هو حتى الآن ، لذّة منتظَرَة ، الذي نضحي فيه بسهولة ، كان قد ابتكر سعادة غير متوقّعة ، حيث نصير تجاهها ضعفاء . كانت هذه الفكرة تعود في النهاية أكثر جمالاً بسبب جهل « سوان » لما قد فكّرت به « أوديت » ، يفعل ربّما ، عندما يعرف أنّه لم يكن يتصل بها ، وما كان سيلاقيه ، كان كشفاً مشوّقاً لواحدة ، هي « أوديت » المجهولة تقريباً .

ولكن هي ، كما كان يتراءى لها ، أن رفضه لأن يعطيها نقوداً لم يكن سوى خدعة ، لم تكن ترى إلّا حجّة بهذا الاستعلام ، حيث « سوان » كان يأتي ليسألها عن العربة التي كان يريد أن يدهنها ، أو عن الأسهم التي كان يريد أن يشتريها . لأنّها لم تكن تستعيد ، مجدّداً ، المراحل المختلفة للأزمات التي كان يمرّ بها ، ووجهة نظره بها ، كانت ترفض استيعاب تطوّراتها ، غير معتقدة إلّابالذي كانت تعلمه من قَبْل،وبهذه النهاية الضرورية والمؤكّدة ودائماً المتطابقة . فكرة غير مكتملة ـ عميقة ربّما ـ لو كنّا ننظر إليها من خلال وجهة نظر « سوان » ، الذي كان ، دون شكّ ، قد رأى ، أن « أوديت » لم تفهمه ، مثل مدمن على المخدّرات أو مريض بالسلّ ، يقتنعان بأنّهما محتجزان ، أحدهما بسبب حادثة خارجية ، في الوقت حيث كان سيتخلّص من عادته

المزمنة ، والثاني بسبب تعب مفاجىء ، حيث كـان سيشفى أخيراً . يشعران بأنّ الطبيب لم يفهمها ، لأنّه لا يعطي الأهميّة ذاتها إلى هذه العوارض المزعومة . من دعات بسيطة بنظره ، يمارسها بدقّة ، فيشعر مجدّداً بتأثيراتها على مريضيه ، بسبب الغريزة والحالة المَرَضيّة التي ، في الواقع ، لم تكن قد توقّفت من الضغط عليهما دون أمل بالشفاء ، حيث كانا يعلّلان النفس بأحلام الحكمة أو الشفاء . وفعلاً ، حبّ « سوان » كان قد توصّل إلى هذه الدرجة ، حيث الطبيب ، وفي بعض الأمراض ، الجرّاح الأكثر جرأة ، يتساءلان ، إذا كان شيئاً عاقلاً أو حتى ممكناً ، أن يحرما مريضاً من علّته أو أن يستأصلا مرضه .

بالتأكيد ، امتداد هذا الحب ، لم يكن لدى « سوان » فكرة مباشرة عنه . عندما يحاول أن يقوّمه ، كان يتهيّأ له بعض المرات أنّه يتضاءل وتقريباً يتحجّم لغاية اللاشيء . مثلاً ، التذوّق القليل ، تقريباً القرف الذي كان يستوحيه ، قبـل أن يحبّ « أوديت » ، ملامحها المعبّرة ، سُحنتها غير النضرة ، كان يتذكّره في بعض الأيّام . « حقّاً يوجد تقدّم ملموس ، يقول لنفسه اليوم التالي ، أن يرى الأشياء بالضبط ، لم أكن أشعر بأيّة لذّة ، البارحة ، في أن أكون بسريرها ، هذا مستغرب ، كنت أجدها قبيحة أيضاً » . وبالتأكيد ، كان مخلصاً ، ولكن حبّه كان قد يمتد أبعد بكثير من مسافات الشهوة الجسدية . شخص « أوديت » ، بالذات ، لم يعد له أي حضور . عندما كان نظره يقابل صورة « أوديت » ، على طاولته ، وعندما كانت تأتي لتراه ، كان يتعرّف

بصعوبة على الشكل الملموس أو « المصنوع من ورق البريستول » مع الاضطراب الموجع والمستمرّ الذي يسكنه . كان يقول لنفسه بنوعٍ من الاستغراب : « هذه هي » ، كما لو أنّه ، فجأة ، كان يتوضّح أمامنا أحد أمراضنا ، والذي لا نجده مشابهاً لآلامنا . « هي » ، كان يحاول أن يعرف ماذا تكون ، لأنّها تتشابه مع الحبّ والموت ، أكثر منهما ، أكثر غموضاً منهما ، حيث نكرّرها دائماً ، نجعل الآخرين يسألوننا ، سابقاً ، خوفاً من أن تخفي واقعيتها ، سرّ الشخصية .

وهذا المرض الذي كان حبّ«سوان»، كان يتضاعف بحيث أنّه ، كان ممزوجاً بمقدار ما ، وبشكل ضئيل في كل عادات « سوان » ، في كل أفعاله ، في فكرته ، في صحّته ، في سُباته ، في حياته ، وكذلك في كلّ الذي كان يشتهيه بعد موته . لم يكن يشكّل معه ، إلى حدّ كبير ، سوى شخص واحد ، حيث لن يكون باستطاعتنا أبداً اقتلاعه منه بدون أن نهدمه ، هو بالذات ، تقريباً ، بشكل كامل : كما يُقال في الجراحة ، حبّه لن يكون أبداً قابلاً للجراحة .

بهذا الحبّ ، كان « سوان » قد تخلّص من كلّ الاهتمامات ، حتى أنّه عندما ، بالصُدفة ، كان يعود إلى المجتمع ، قائلاً بنفسه إنّ علاقاته كما المطيّة اللبقة التي لم تكن « أوديت » تعرف ، على كلّ حال ، أن تقدّرها حقّ قدرها . كان بإمكان ، هذه العلاقات ، أن تعيد له قليلاً من الاعتبار بنظر « أوديت » (وهذا من الممكن أن يكون صحيحاً ، بالفعل ، إذا لم

يكن ، هذا الاعتبار ، قد تحقّر بسبب هذا الحبّ بالذات ، حيث كانت « أوديت » تخفّف من وهج كلّ الأشياء التي يحقّقها ، بسبب أنّه كان يبوح ويعلن عنها بأنّها ذات قيمة بسيطة) . كان يشعر في هذا المجتمع ، في آن واحد ، بشقاء في وجوده بأمكنة ، وسط أناس لا تعرفهم « أوديت » ، وبهذه اللذّة المجرّدة التي كان قد أحسّها تجاه رواية أو لوحة فنيّة ، حيث تكون مرسومة ، داخلها ، التسليات لمجتمع بطّال ، كما ، عنده ، كان يتمتّع بمواجهة مجرى حياته المنزلية ، أناقة ملابسه وكُسوة الخدم ، التوظيف الجيّد لأسهمه ، بذات المقدار أن يطالع « سان ـ سيمون » ، الذي كان أحد كتّابه المفضّلين ، دورة الأيّام ، وجبة الطعام للسيّدة « دومَنتينون » ، أو البخل الحذِر ومستوى معيشة « لُوْلي » . وفي هذا المقياس الضعيف ، حيث التجرّد لم يكن مطلقاً ، سبب هذه اللذّة الجديدة التي كان يتذوّقها « سوان » ، كانت أن يستطيع السَفَر ، لحظة ما ، في أجزاء ذاته النادرة ، التي بقيت غريبة عن حبّه ، عن كآبته . على هذا الصعيد ، هذا اللقب الذي قد تمنحه له أخت جدّتي عندما تدعوه « ابن سوان » ، المختلف عن لقبه ، الأكثر فرديّة ، من كونه « شارل سوان » ، كان المفضّل لديه . ذات يوم ، في عيد مولد أميرة « دوبارْم » « وبسبب أنّها كان بإمكانها غالباً ، بصورة غير مباشرة ، أن تفيد « أوديت » ، حيث كانت تستطيع أن توجد لها أماكن في المهرجانات واليوبيلات) ، كان يريد أن يرسل لها فواكه ولم يعرف بالضبط كيف يوصي عليها ، فكلّف ابنة عمّ لأمّه ، التي سَعُدت بتلبية طلبه . كتبت

له ، تعلمه بأنها لم تكن تجلب كلّ الفواكه من مكانٍ واحد ، ولكن ، العنب من عند « كرابوت » ، وهو اختصاصه ، « الفريز » من عند « جوريه » ، « الاجاص » من عند « شُوْقي » ، حيث كان أفضلٍ ، الخ ، « كلّ ثمرة عاينتها ودقّقت فيها واحدة فواحدة » . وفعلاً ، من خلال شُكر الأميرة ، كان بإمكانه أن يحكم على رائحة « الفريز » ، ونعومة الاجاص . بل خصوصاً « كل ثمرة عاينتها ودقّقت فيها واحدة فواحدة » كانت سبباً لتسكين ألمه ، تنقل ضميره إلى منطقة حيث كان نادراً ما يذهب إليها ، بالرغم من أنّه كان يملكها كوريث لعائلة ثريّة ومن طبقة بورجوازية مميّزة حيث كانت تملك بالوراثة ، جاهزة أن توضع تحت تصرّفه حيث يشاء ، معرفة « العناوين الجيّدة » وفنّ اختيار الأشياء الرفيعة .

بالتأكيد ، كان قد نسي ، مدّة طويلة ، أنّه « ابن سوان » ، لكي لا يحسّ ، عندما سيعود إلى « هذا » ، للحظة ما ، ببهجة أكثر حيوية ممّا كان باستطاعته أن يشعرها بقيّة الوقت ، وحيث تجاه مجمل اللذّات ، كان دائماً يشعر باشمئزاز ، ولولا لطف البورجوازيين ، حيث كان تجاههم مستمراً في أن يكون « ابن سوان »، كان أقلّ حرارة من اللطف الارستقراطي (ولكن أكثر تزلّفاً على كلّ حال ، لأن عندهم ، على الأقل ، لا ينفصل اللطف أبداً عن التقدير) ، ورسالة من أحد الأمراء ، وبعض ملذّات خليقة بالأمراء تعرض عليه ، لم يكن يسعده ، كلّ ذلك ، بمقدار طلب « أوديت » إليه أن يكون شاهداً مثلاً ، أو ، فقط ، أن

يحضر حفلة زفاف في عائلة من الأصدقاء القدامى لأهله ، وحيث البعض منهم ، كانوا قد استمرّوا في رؤيته ـ مثل جدّي الذي كان قد دعاه ، السنة الماضية ، إلى حفلة زفاف والدتي ـ وحيث بعض الآخرين كانوا بالكاد يعرفونه شخصياً ، ولكنّهم كانوا يشعرون بواجب الاحترام تجاه الابن ، تجاه الخَلَف الجدير بالمرحوم السيّد « سوان » .

ولكن ، من خلال الالفة القديمة جداً التي لديه بينهم ، الناس الاجتماعيون ، من خلال مقياس معيّن ، كانوا يشكّلون جزءاً من منزله ، من خَدَمه ومن عائلته . كان يشعر في داخله ، عندما يتأمّل في صداقاته اللامعة ، بالعون ذاته خارج نفسه ، بالراحةذاتها ، أكثرمما يشعرعندمايتأمّل الأراضي الجميلة ، الفضيّات الجميلة ، البياضات الجميلة للمائدة ، التي كانت قد أتت إليه عن طريق أهله . وفكرة أنّه قد يصاب بنوبة في منزله ، وسيتواجد عنده ، بالطبع ، الدوق « دوشارتـر » ، الأمير « دوروس » ، الدوق « دولوكسمبورغ » والبارون « دوشارلوس » الذين سيسرع خادمه الخاص ليأتي بهم ، كـانت تمنحه العـزاء ذاته ، كـما « فرانسواز » العجوز عندما تعلم بأنّها ستكفّن بشراشفها الخاصّة الناعمة ، المحرّكة وغير المرتّاة (أو المرتّاة بصورة ناعمة جداً ، حيث كانت تعطي فكرة ممتازة عن عناية هذه العاملة) ، صورة مألوفة لكفنها هذا ، تجعلها تشعر بنوع من الارتياح ، وخصوصاً ، بتلبية رغبة كبريائها . ولكن بالأخصّ ، كما في كل أعماله وأفكاره التي ترتبط بـ « أوديت » ، كان دائماً مسكوناً وموجّهاً بهذا الشعور

غير المُباح ، وهو أنّه ، بالنسبة لها ، ليس أقلّ حبّاً ، ولكن أقلّ متعة من أي شخص آخر ، حتى من أيّ شخص مملّ عند « آل فردوران » ، ـ عندما كان يرجع بالذاكرة إلى عالمٍ ، حيث كان فيه الرجل الممتع بكل معنى الكلمة ، وحيث كانوا يفعلون كلّ شيء ليجذبوه إليهم ، ويأسفون جداً إذا لم يروه ، كان يبدأ التفكير ، مجدّداً ، بوجود حياة أكثر سعادة ، ويشعر بشهيّة تجاهها ، مثلما يحدث هذا الشيء مع مريضٍ يلازم فراشه منذ عدّة أشهر ، ويخضع لنظام معيّن من الطعام ، ويعثر في صحيفة على وجبة طعام لغداء رسمي أو إعلان عن رحلة إلى « سيسيليا » .

إذا كان مضطراً إلى الاعتذار لدى أناس من المجتمع ، لأنّه لا يستطيع زيارتهم ، كان ، بالمقابل ، يعتذر من « أوديت » لأنّه يزورها . وأيضاً ، كان يدفع ثمن تلك الزيارات (سائلاً نفسه في نهاية الشهر ، ولو كان قد استغلّ صبرها ، بعض الشيء ، وذهب ليراها مراراً ، إذا كان كافياً أن يرسل لها أربعة آلاف فرنك) ، ولكلّ زيارة كان يوجد سبباً : هديّة يحملها لها ، معلومات بحاجة إليها ، السيّد « دو شارلوس » ، الذي صادفه ذاهباً إلى عند « أوديت » وأصرّ عليه أن يوصله . وإذا لم توجد أيّة حجة مثلاً ، كان يرجع السيّد « دو شارلوس » الاسراعِ إلى عندها ، ويقول لها ، أثناء الحديث ، إنّه ، فجأة ، تذكر أن يتحدّث عن « سوان » ، وإذا أرادت ، فقد يطلب منه أن يمرّ عليها فوراً ، ولكن أكثر الأوقات ، كان « سوان » ينتظر دون نتيجة ، وفي المساء كان السيّد « دو شارلوس » يعلمه بأنّ وسيلته لم تنجح .

وإذا كانت ، في الوقت الحاضر ، تغيب مراراً ، حتى في باريس وتبقى فيها ، أحياناً ، فقد كانت تراه قليلاً ، وهي التي ، عندما كانت تحبّه ، كانت تقوله له : « إنّني دائماً لك » ، أو : « ماذا يعني لي رأي الآخرين ؟ » الآن ، في كلّ مرّة كان يريد أن يراها ، كانت تتذرّع بالخشية من كلام الناس أو تتحجّج بأنّها مشغولة . عندما كان يذكر أنّه سيذهب إلى حفلة خيرية أو إلى افتتاح معرض فنّي ، أو إلى عرض أوّل لحفلة ما ، حيث ستكون موجودة هناك ، كانت تقول له إنّه يريد المجاهرة بعلاقتهما ، وهو يعاملها وكأنّها « فتاة خفيفة » ، لدرجة أنّه كان يبذل جهده لئلا يكون محرّماً عليه مقابلتها في أي مكان . « سوان » ، الذي كان يعلم أنّها كانت متعلّقة كثيراً بشقيق جدّي « أدولف » ، الذي كان صديقه ، ذهب يوماً لمقابلته في شقّته الصغيرة بشارع « بيل ـ شاس » ليطلب منه أن يستعمل تأثيره على « أوديت » . كما كانت تأخذ دائماً ، عندما تتحدّث لـ « سوان » ، عن عمّي ، مظاهر شاعرية قائلة : « آه ! هو ليس مثلك ، هو شيء جميل حقاً ، كبير حقّاً ، بهي حقاً ، وصداقته لي ! ليس هو الذي يخفف اعتباره لي كثيراً ، حتى يقبل بالظهور معي في كلّ الأماكن العامة » . ارتبك « سوان » ، ولم يكن يعرف إلى أيّة درجة سيرفع لهجته ليحدّث عمّي عنها . أظهر ، في البداية ، وقبل كلّ شيء كلّ ما هو متفوّق عند « أوديت » : متمسكاً بمبدأ أنها شخص سامٍ وملائكي ، ومظهراً فضائلها التي ، لا توصف ، وحيث ، هي ، ليست حصيلة التجربة ! « أريد أن أتحدّث معك . أنت ، أنت تعرف أية امرأة فوق كلّ النساء ، أيّ شخصٍ خليق

بالعبادة ، أيّ ملاك هي « أوديت » . ولكن تعرف ما هي الحياة في باريس . كلّ الناس لم يعرفوا « أوديت » مثلما نعرفها أنت وأنا . من هنا ، البعض منهم يرون أنني ألعب دوراً مثيراً للسخرية بعض الشيء ؛ لم تقبل حتى بأن أقابلها ، خارجاً ، في المسرح . أنت ، حيث تحظى بثقتها ، أليس باستطاعتك أن تقول لها بعض الكلمات القليلة التي تناسبني ، أن تؤكّد لها أنّها تبالغ في الإساءة إلى نفسها بأنّ سلاماً منّي يسبّبها لها ؟ » .

نصح عمّي « سوان » بأن يبتعد قليلاً عن رؤية « أوديت » ، التي ستحبّه أكثر ، على هذا الشكل ، كما أصرّ على قبول « أوديت » بأنّ يراها « سوان » في كلّ مكان ، وحيث يشاء . بعد أيّام قليلة ، قالت « أوديت » لـ « سوان » إنّها قد فوجئت بخيبة أمل عندما اكتشفت أنّ عمّي كان متساوياً مع كلّ الرجال : كان قد حاول أن يغتصبها بالقوّة . هدّأت من روع « سوان » ، الذي أراد ، للوهلة الأولى ، أن يتحدّى عمّي ، ولكنه رفض أن يمدّ إليه يده عندما قابله . ندم على هذا الخلاف مع عمّي « أدولف » ، خصوصاً أنّه قد تأمّل فيما لو رآه بعض المرّات ، واستطاع أن يتحدّث معه بكلّ ثقة ،فسيحاول أن يلقي ضوءاً على ما قد يسمعه من همس حول « أوديت » ، في الفترة السابقة ، التي كانت خلالها تعيش في « نيس » ، وحيث كان عمّي يمضي فصل الشتاء فيها ، وقد اعتقد « سوان » بأنّه قد تعرّف على « أوديت » هناك . القليل الذي تسرّب عن شخص ما أمامه ، بالنسبة إلى رجلٍ من المحتمل أنّه كان عشيقاً لـ « أوديت » ، كان قد سبّب

الاضطراب لـ « سوان » . ولكنّ الأشياء ، التي كان قد رأى أنّ معرفتها هي الأكثر سوءاً ، والتي تشكّل إمكانية ضئيلة للتصديق ، عندما كان يطّلع عليها ، كانت تمتزج أبداً مع حزنه ، كان يقبلها ، ولم يكن يصدّق أبداً أنّها لم تكن موجودة . فقط ، كلّ شيء منها ، كان يجري على الفكرة المكوّنة عن عشيقته عملية تنقيح لا تمّحى . وقد اعتقد حتى أنّه فهم ، عندما ، لاحظ أنّ هذه الخفّة في أخلاق « أوديت » ، حيث لم يكن يشكّ بها ، كانت معروفة بما فيه الكفاية ، وأنّها ، في « باد » وفي « نيس » ، عندما قد أمضت في السابق عدّة أشهر ، قد اكتسبت عندئذٍ نوعاً من الشهرة المتهتّكة . وقد حاول ليستنطق تلك الأشياء ، أن يتقرّب من بعض « المستمتعين » ؛ ولكنّ هؤلاء كانوا يدركون أنّه يعرف « أوديت » ؛ وأنّه أيضاً كان خائفاً من أن يجعلهم يفكّرون مجدّداً بها ، وأن يضعهم ، ثانية ، على طريقها . ولكن هو ، حيث الآن ، لا شيء كان يوحي بالسَأم، له مثل الأشياء التي تتعلّق بالحياة العالميّة العامّة ، في « باد » أو في « نيس » ، عندما يعلم أنّ « أوديت » يمكن أنّها كانت في الأيّام الماضية قد تهتّكت في مدن الملذّات هذه ، دون أن يتوصّل أبداً لمعرفة أنّها فعلت هذا بسبب حاجتها إلى النقود ، وأنّ بفضله الآن لم تعد هذه الحاجة موجودة ، أو بسبب بعض النزوات ، حيث بإمكانها أن تولد مجدّداً . الآن ، كان ينحني قلقاً عاجزاً ، أعمى ودائخاً تجاه هوّة بلا قعر ، حيث كانت قد ذهبت وغرقت هذه السنوات في فترة السنوات السبع الذهبيّة ، حيث كانوا يمضون فصل الشتاء في « البروميناد

دوزنكليه » ، والصيف ، تحت أشجار الزيزفون في «باد» ، وكان يرى عمقاً حزيناً تلك الهوّة ، ولكن رائعاً كما يوحي بذلك لشاعر ؛ كان قد صاغ الأحداث الصغيرة ، مجدّداً،لوضع « الكوت دازور » ، في ذلك الوقت ، كما لو كان بأمكانها أن تساعده في أن يفهم شيئاً من ابتسامات أو نظرات ـ بالرغم أنّها شريفة وبسيطة ـ « أوديت » ، كأنّه كان أكثر ولعاً من اختصاصي بعلم الجمال ، الذي يبحث في الملفّات المتبقّية لفلورنسا من القرن الخامس عشر ، ليحاول التعمّق أكثر في جوهر « البريمافيرا » و« البلاّفانا » أو لـ « الفينوس » لـ «دوبوتيتشللي » . مراراً ، دون أن يقول لها شيئاً ، كان ينظر إليها ، ويفكّر ؛ كانت تقول له : « كم تبدو حزيناً ! » ليس من مدّة بعيدة أيضاً ، من خلال اعتقاده بأنّها مخلوقة طيّبة ، تشبه أفضل ما عرف من نساء ، كان قد مرّ بفكره أنّها امرأة ينفق عليها الرجال ؛ وبالعكس كان مراراً ، منذ ذلك الوقت ، بعودته إلى « أوديت دوكريسي » ، التي يمكن أن تكون ، ربّما ، معروفة ، بشكل جيّد ، من جانب « المتستمتعين » ، من رجالٍ يطاردون النساء ، يعود أيضاً إلى هذا الوجه المعبّر مرّات كثيرة ، الناعم ، وإلى هذه الطبيعة التي ترشح إنسانية . كان يقول لنفسه : « وما يهمّ إذا كان كلّ الناس في « نيس » يعرفون « اوديت دوكريسي » ؟ هذه الشهرة ، حتى لو كانت صحيحة ، فإنّها مصنوعة من أفكار الآخرين » ؛ كان يعتقد بأنّ هذه الخرافة ـ حتى إذا كانت صحيحة ـ كانت خارجة عن « أوديت » ، لم تكن مجذّرة فيها كما الشخصية المتصلّبة والمسيئة ؛ وإنّ الشخص الذي اضطر

إلى القيام بفصل شيء سيّء ، هو ، امرأة ذات عينين ترشحان طيبة ، وذات قلب يرشح عطفاً تجاه الألم،وذات جَسَدٍ مطيع كان قد ضمّه إليه ، حضنه بذراعيه وتمتّع بوهجه . امرأة ، حيث سيكون بإمكانه يوماً ما أن يمتلكها كليّاً ، إذا نجح في أن يصير ، بالنسبة إليها ، ضرورة لا تعوّض . كانت هنا ، متعبة مرارا ، وجهها خالٍ ، للحظة ، من انشغال البال المضطرب والفرح ، للأشياء المجهولة التي كانت تعذّب « سوان » ، كانت تبعد شَعرها بيديها ؛ جبينها ، ووجهها كانا يظهران أوسع ؛ عندئذٍ ، فجأة ، فكرة ما بسيطة بأنسانيتها ، بعض الشعور المخلص كما هو موجود عند كلّ المخلوقات ، عندما في لحظة ارتياح أو انطواء على نفسها تستسلم لذاتها ، كانت تنبت من عينيها مثل شعاع أصفر . وفوراً ، كلّ وجهها كان يضيء مثل قرية رمادية ، مغطاة بالغيوم ، حيث فجأة تبتعد ، فيتجلّى وجه « أوديت » مع غروب الشمس . الحياة التي كانت تسكن « أوديت » في تلك اللحظة ، وحتى المستقبل الذي كانت تحلم به ، كان بإمكان « سوان » أن يشاركها فيهما ؛ ويبدو أنَّ أيّ اضطراب سيّء لم يكن قد ترك أي أثر . بالرغم من أنّ هذه اللحظات كانت نادرة ، فقد كانت ذات أهمّية . من خلال الذكرى ، كان « سوان » يربط هذه الأجزاء ، يُلغي المسافات ، ويسبك ، كما في الذهب ، « أوديت » من الطيبة والهدوء ، حيث قد فعل في ما بعد لأجلها (كما سنرى في الجزء الثاني من هذا الكتاب) تضحيات ، حيث « أوديت » الأخرى ، لم تكن قد حصلت عليها . ولكن ، كم كانت هذه اللحظات

نادرة ، وكم كان يـرى « أوديت » ، قليلاً الآن ! وحتى في مواعيدهما المسائية ، لم تكن تعلمه إلاَّ في آخر لحظة عمّا إذا كان باستطاعتها أن ترتبط به ، لأنها ، معتبرة أنَّ وقته مكرّس دائماً لها ، كانت تريد أن تتأكّد ، في البداية ،أنَّ أي شخص آخر لن يأتي إلى عندها . كانت تدّعي أنّها مضطرة لانتظار جوابٍ مهمّ جداً بـالنسبة لهـا ، وحتى إذا كانت ، من ثمّ ، تفسـح المجـال لـ « سوان » لكي يأتي ، فإنَّ بعض أصدقائها كانوا يطلبون منها ، رغم أنَّ السهرة تكون قد بدأت ، أن تلحق بهم إلى المسرح أو إلى تناول طعام العشاء ، وكانت تقفز فرحة وترتدي ثيابها بسرعة . شيئاً فشيئاً ، كلّما كان تبرّجها يتكامل ، فكلّ حركة كانت تقوم بها ، كانت تقرّب « سوان » من اللحظة ، حيث عليه أن يتركها ، تسرع إلى أصدقائها باندفاع لا يقاوَم ، وعندما ، في النهاية تصبح جاهزة ، مركّزة في المرآة ، ولمرّة أخيرة ، نظراتها القلقة المضاءة بالتيقّظ ، كانت تضع قليلاً من أحمر الشفاه على شفتيها ، تثبّت خصلة من شعرها على جبينها وتطلب معطف السهرة ذي اللون الأزرق السماوي مع الشراريب المذهّبة . كان « سوان » يبدو حزيناً ، لدرجة أنّها لم يكن باستطاعتها ، إلاّ أن تعبّر عن شيء من الملل ، قائلة : « هكذا تشكرني لأنّني قد احتفظت بك حتى آخر لحظة ، وأنا التي كنت أعتقد بأنني فعلت شيئاً لطيفاً معك . هذا شيء ممتع يجب أن تعلمه في المرّة القادمة ! » بعض المرّات مجازفاً في إغضابها ، كان « سوان » يحلم بأن يتصادق مع « فورشفيل » حيث ، من خلال ذلك ، سيكتشف الكثير عنها . على كلّ حال ،

عندما يعلم مع مَن كانت تمضي السهرة ، كان من النادر جداً أنّه لا يستطيع أن يكتشف ، من بين صداقاته كلّها ، شخصاً واحداً يعرف ، ولو بشكل غير مباشر ، الرجل الذي خرجت معه ، وكان باستطاعته أن يحصل على هذه أو تلك من المعلومات . وعندما كان يراسل أحد أصدقائه ليستوضحه بعض النقاط ، كان يشعر بارتياح ، عندما كان يتوقّف عن طرْحِ أسئلة بدون أجوبة على نفسه ، محّولاً هذا الإجهاد لشخص آخر . صحيح أنّ معرفة « سوان » لم تكن تتوسّع أكثر عندما يحصل على بعض المعلومات : أن تعلم ، هذا لا يعني دائماً أن تمنع ، ولكن ، على الأقلّ ، الأشياء التي نعلمها ، نتمسّك بها ، إذا لم يكن بأيدينا فعلى الأقلّ بفكرتنا ، وننظّمها كما نريد ، وهذا ما يوهمنا بأنّنا نمتلك نوعاً من السيطرة عليها . كان « سوان » سعيداً كلّما كان السيّد « دوشارلوس » مع « أوديت » . بين الأثنين ، كان يعلم أن لا شيء ممكن أن يحدث ، وعندما كان السيّد « دوشارلوس » ، يخرج برفقة « أوديت » ، فهذا ، بسبب صداقته لـ « سوان » ، وأنّه لن يجد صعوبة في أن يخبره عمّا كانت قد فعلت . مرّات ، كانت قد اعترفت لـ « سوان » ، بصورة سلبية ، بأنّه كان مستحيلاً عليها أن تراه في ليلة ما ، كانت تبدو متمسّكة جداً بأن تخرج ، وكان « سوان » يهتمّ جداً بأنّ يكون السيد « دوشارلوس » حرّاً في مرافقتها . في اليوم التالي ، دون أن يجرؤ على طرح الكثير من الأسئلة على السيّد « دوشارلوس » ، كان يُكرهه ، متظاهراً بأنّه لم يفهم جيّداً أجوبته الأولى ، على أن يقدّم

له أجوبة جديدة ، حيث ، بعد كلّ جواب ، كان يشعر بارتياح أكثر ، لأنّه كان يعلم على الفور أنَّ « أوديت » قد أمضت سهرتها وسط الملذّات البريئة . « ولكن كيف ، يا جدّي الصغيرة ، أنا لم أفهم جيّداً . . . ، أليس عندما خرجتم من عندها أنّكم قد ذهبتم إلى « متحف غريفن ؟ » كنتم قد ذهبتم إلى مكان آخر من قبل . كلّا ؟ أوه ! كم هذا ساحر ! لم تعلم كم أنت تسلّيني ، يا جدّي الصغير . ولكن أية فكرة ساخرة لديها في أن تذهب ، حالاً ، إلى « الشانوار » ، هذه ، حقيقة ، فكرة منها . . . كلّا ؟ إنّها منك . هذا مدهش . على كلّ حال ، ليست فكرة سيّئة ، بالتأكيد ، إنّها تعرف هناك أناساً كثيرين ؟ كلّا ؟ ألم تكن تتحدّث إلى أحد ؟ هذا ليس معقولا . قد بقيتما هناك ، هكذا ، وحدكما : أنت وهي ؟ إنّني أتخيّل من هنا هذا المشهد . إنّك لطيف يا جدّي الصغير ، إنّني أحبّك جيّداً » . « سوان » ، شَعَر بارتياح . بالنسبة له ، حيث كان قد توصّل ، عندما كان يتحدّث مع أشخاص غير مكترثين ، بالكاد كان يصغي إليهم ، أن يسمع بعض المرّات ، بعض العبارات (هذه مثلاً) : « شاهدت البارحة السيّدة « دوكريسي » ، كانت برفقة رجلٍ لا أعرفه » ، عبارات ، كانت تتحوّل ، على الفور ، في قلب « سوان » إلى حالة ثابتة ، تتجمّد ، كما لو كانت محفورة ، تمزّقه ، لا تتحرّك أبداً . كم كانت هذه الكلمات ، بالعكس ، ناعمة : « لم تكن تعرف أحداً ، لم تكن قد تحدّثت إلى أحد » ، كما كانت تتجوّل بارتياح في داخله ، كم كانت ليّنة ، سهلة ، قابلة للتنشّق ! ورغم ذلك ، بعد

لحظة ، بدأ « سوان » يفكّر بأنَّ « أوديت » تجده مملا بشكلٍ أكيد لكي تفضّل الملذّات على عشرته . ومع أنَّ تفاهة تلك الملذّات ، كانت تطمئنه من جهة ، فرغم ذلك ، كانت تحزنه مثلما لو أنّها تشكّل خيانة !

(حتى إذا كان لا يستطيع أن يعلم أين ذهبت « أوديت » ، كان « سوان » يكتفي ، ليهدّىء القلق الذي كان يشعر به عندئذٍ ، وحيث تجاهه وجود « أوديت » والارتياح في أن يكون بجوارها كان هو الدواء الوحيد دواء ، حيث مع الوقت ، كان يضاعف الوجع ، ولكن على الأقلّ كان يهدّىء الألم بصورة مؤقتة) ، كان قد اكتفى ، لو كانت « أوديت » قد سمحت له بهذا فقط ، أن يبقى عندها طوال الوقت التي لم تكن هناك ، أن ينتظرها حتى ساعة عودتها ، حيث في هدوء تلك الساعة ، قد تأتي وتمتزج معها ساعات جديدة حيث روعة ، أو حيلة ساحرة ، كانتا تجعلانه يعتقدها مختلفة عن الأخرى . ولكن لم تكن تقبل ، كان يعود إلى منزله ، كان يُجبر نفسه خلال الطريقمعي أن يصمّم مشاريع كثيرة ومنوّعة ، كان يتوقّف عن التفكير بـ « أوديت » ، وحتى أنه كان يتوصّل ، وهو ينزع ملابسه ، أن ينزّه في ذاته أفكاراً مبهجة إلى حدّ ما ، وكان قلبه مليئاً بأمل أنّه سيذهب في اليوم التالي ليشاهد رائعة ما ، لحظة كان يدخل سريره ويطفىء النور ، ولكن ، حالما يبتدىء بتحضير نفسه للنوم ، كان يتوقّف عن ترويض نفسه على الانزعاج ، حيث لم يكن يشعر به بقدر ما أصبح لديه شيئاً مألوفاً ، في الوقت ذاته ، قشعريرة باردة كانت

تسري في داخله ، وتبتدىء الشهقة ! كان يرفض أن يعرف ، حتى ، لماذا . كان يمسح عينيه ويقول لنفسه ضاحكاً : « هذا شيء طريف ، لقد أصبحت مريضاً بالأعصاب » . أيضاً ، لم يكن يستطيع أن يفكّر دون سَأم كبير لأنَّه ، في اليوم التالي ، سيضطر إلى البحث مجدّداً ، ليستعلم عمّا قد فعلت « أوديت » ، وإلى أ ن يستعمل كلّ تأثيره ليتوصّل إلى أن يراها . هذا الاضطرار إلى نشاط دون انقطاع ، دون تنويع ، دون نتيجة ، كان ، بالنسبة إليه ، أليماً ، لدرجة أنّه ، في أحد الأيّام ، لاحظ انتفاخاً في بطنه ، وقد شَعَر بسعادة حقيقية عندما اعتقده وَرَماً مميتاً ، ولم يكن قطّ مضطرّاً لأن يعتني بأي شيء ، فالمرض هو الذي سيسيطر عليه ، سيجعل منه لعبته ، حتى النهاية المرتقبة . وبالفعل ، لو كان يتمنّى ، في هذا الوقت ، الموت مراراً دون أن يعترف بذلك ، كان هذا ، بسبب أن يهرب من نشاطه المملّ أكثر ممّا يوّد الهرب من آلامه .

وبالرغم من كلّ شيء ، كان يودّ أن يعيش ذلك الوقت ، حيث سيتوقف عن حبّها ، وحيث لن يكون لديها أيّ سبب لتكذب عليه ، وحيث في النهاية ، سيكون باستطاعته أن يعلم منها إذا كانت قد مارست الحبّ مع « فورشفيل » ، في ذلك اليوم الذي ذهب لرؤيتها بعد الظهر . مراراً ، خلال بعض الأيّام ، كان يبعده الشكّ في أنّها تحبّ شخصاً آخر ، عن هذا السؤال المتعلّق بـ « فورشفيل » ، يجعله غير مكترث تقريباً ، مثل هذه الأشكال الجديدة لحالة مَرَضية واحدة ، حيث تبدو لنا مؤقتاً ، أنّها

قد خلّصتنا من الحالات السابقة . وحتى في بعض الأيام ، حيث لم يكن يعذّبه أي شكّ . كان يعتقد نفسه ، عندئذٍ ، أنّه قد شفي . ولكن ، في صباح اليوم التالي ، عندما يستيقظ من النوم ، كان يشعر بالوجع ذاته ، في نفس المكان ، حيث ، خلال نهار الأمس ، كان كأنّه قد أضعف هذا الإحساس ، وسط سَيْلٍ من الانطباعات المختلفة . ولكن هذا الإحساس ، لم يكن يتحرّكُ من مكانه . وحتى ، أنّ شدّة هذا الوجع ، كانت هي التي أيقظت « سوان » .

بما أنّ « أوديت » لم تكن تقدّم له أية معلومات ، عن هذه الأشياء المهمّة جداً التي كانت تشغله إلى هذه الدرجة ، كلّ يوم (بالرغم من أنّه قد عاش بما فيه الكفاية ليعلم أنّه لن يحصل منها أبداً على أيّ شيء آخر غير الملذّات) ، لم يكن باستطاعته أن يغامر طويلاً ، وبالتتابع ، في تخيّلها ، كان فكره يعمل عبثاً ، آنذاك ، كان يمرّر إصبعه على جفنيه المتعبين كما لو أنّه يمسح زجاج نظّارته ، وكان يتوقّف كليّاً عن التفكير . ولكن ، فوق هذا المجهول ، كانت تطفو بعض الانهماكات التي كانت تظهر ثانية، من وقت إلى آخر ، مرتبطة ، بصورة غير مباشرة ، بواسطة « أوديت » ، بالتزام ما تجاه بعض الأقارب البعيدين أو بأصدقاء قدامى ، حيث ، لأنّهم كانوا الوحيدين الذين كانت تذكرهم أمامه ، مدّعية بأنّهم يشكّلون السبب الذي يمنعها من رؤيته ، يتراؤون لـ « سوان » وكأنّهم الإطار الثابت ، الضروري ، لحياتها . بسبب اللهجة التي كانت تستعملها عندما كانت تقول له أحياناً « اليوم ، حيث

سأذهب إلى ميدان سباق الخيل مع صديقتي » ، إذا شَعَر بأنّه مريض وفكّر : « يمكن « أوديت » ترضى بأن تمرّ عليّ » ، كان يتذكّر ، فجأة ، أنّه كان هذا اليوم بالضبط ، ويقول لنفسه : « كلاّ ، ليس ضرورياً أن أقول لها أن تأتي ، كان يجب أن أفكّر قبل الآن ، هذا اليوم حيث تذهب مع صديقتها إلى ميدان سباق الخيل . لنوفّر أنفسنا إلى وقت يكون فيه هذا الشيء ممكناً ، هذا ليس مجدياً أن نُرهَق باقتراح أشياء غير مقبولة ومرفوضة سابقاً » . وهذا الواجب الذي يُلقي على عاتق « أوديت » : أن تذهب إلى ميدان سباق الخيل ، وحيث أمامه كان « سوان » يخضع هكذا ، لم يكن فقط يبدو له حتمياً ، ولكن صيغة الاضطرار هذه ، التي تطبع تصرّفاته ، كانت تجعل ، مبرّراً وشرعياً ، كلّ شيء الذي يرتبط به من قريب أو بعيد . لو كانت « أوديت » تتلقى تحيّة في الشارع ، من أحد المارّة الذي كان قد أيقظ غيرة « سوان » ، كانت تجيب على أسئلته ، رابطة وجود هذا المجهول بأحد الاثنين أو الثلاثة ، حيث كانت تحدّثه عنهم ، إذ كانت ، مثلاً ، تقول : « هذا السيّد كان في مقصورة صديقتي التي أذهب معها إلى ميدان سباق الخيل » ، هذا التوضيح كان يهدّىء شكوك « سوان » الذي كان يرى فعلاً ، أن هذا الشيء كان لابدمنه : أن يكون مثلاًلدى صديقتها ، في المقصورة ، مدعوون آخرون غير « أوديت » ، ولكن لم يكن يبحث ، ولم ينجح في تصوّرهم . آه ! كم كان يتمنّى أن يتعرّف عليها ، تلك الصديقة التي تذهب إلى ميدان سباق الخيل ، وأن تأخذه مع « أوديت » ! كم كان مستعداً أن يستعيض

عن كلّ معارفه بشخص واحد معتادة على أن تراه « أوديت » باستمرار ، حتى ولو كان هذا الشخص « مانوكورست » أو بائعة في متجر ! كان قد فعل من أجلهنّ أكثر ممّا يفعل من أجل ملكات . ألسن كنّ يعلمنه بما كنّ يملكن من حياة « أوديت » : المهدىء الوحيد الفعّال لآلامه ؟ كم كان قد أسرع بفرح ليمضي النهارات عند هذه أو تلك من هؤلاء الناس البسطاء ، حيث « أوديت » كانت على علاقة بهم ، إمّا لمصلحة وإمّا من خلال تواضعها الحقيقي ! كم كان ، بكلّ فرح ، قد استقرّ في منزل للأبد في الطابق الخامس من ذاك البيت القذر والمُشتهى ، حيث « أوديت » لم تكن تأخذه معها وفيها ، لو كان قد سكن مع الخيّاطة الصغيرة المنعزلة ، موحياً ببهجة بأنّه عشيقها ، حيث كانت « أوديت » تزوره كلّ يوم تقريباً ! في هذه الأحياء الشعبية ، إلى حدّ ما ، أيّة حياة متواضعة ، رذيلة ، ولكن ناعمة ، ترشح هدوءاً أو سعادة ، كان قد اقتنع بأن يعيشها أبداً !

كان يحصل أحياناً ، أنها عندما كانت تقابل « سوان » ، كانت تشاهد شخصاً يقترب منها لا يعرفها أبداً ، حيث يلاحظ على وجه « أوديت » الحزن الذي قد لمحه يوم جاء ليزورها عندما كان « فورشفيل » في منزلها . ولكن هذا الشي كان نادراً ، لأنّها خلال الأيّام حيث ، بالرغم من كلّ مشاغلها وخشيتها من تفكير الناس بها ، كانت تتوصل إلى رؤية « سوان » ، والذي كان يسيطر الآن على تصرّفها ، هو تأكيد الارتياح لذلك : وهذا تناقض كبير ، ويمكن أنه انتقام ، بصورة غير مباشرة ، أو

ردة فعل طبيعية على شعور الخوف الذي كانت تحسّه بقربه في بداية معرفتها به ، وحتى إذا كانت بعيدة عنه ، عندما كانت تكتب رسالة تبدأ بهذه الكلمات : « ياصديقي ، إنّ يدي ترتجف إلى حدٍّ ، حيث بالكاد أستطيع أن أكتب » (كانت تدّعي ذلك على الأقلّ ، وقليل من هذا الشعور ، يمكن أن يكون صحيحاً لديها ، لكي تستطيع أن تتظاهر بالأكثر منه) . كانت ترغب « سوان » في تلك الفترة . لا يرتجف أحد إلاّ من أجل نفسه ، إلاّ من أجل هؤلاء الذين نحبّهم . عندما لا تعود سعادتنا بين أيديهم ، بأي هدوء ، بأي ارتياح ، باي جرأة نتمتّع بقربهم ! عندما تحدّثه ، عندما تراسله ، لم تعد لديها تلك الكلمات التي كانت تريد ، من خلالها ، أن تمنح الشعور لنفسها بأنّها تمتلكه ، تخلق المناسبات لتقول من خلالها « يا . . . » « لي . . . » ، عندما كانت تتحدّث عنه : « أنت ملكي ، هذا عبير صداقتنا ، إنّني أحتفظ به » . كانت تتحدّث معه عن المستقبل ، عن الموت حتى ، كما لو عن شيء واحد بالنسبة لكليهما . في هذا الوقت ، عن كلّ ما يقوله ، كانت تجيب بإعجاب : « أنتَ ، لم تكن أبداً مثل كلّ الناس » ؛ كانت تتأمّل رأسه الطويل الأصلع قليلاً ، حيث الناس الذين يعرفون « شعبية » « سوان » ، كانوا يفكّرون : « ليس هو جميل بصورة مستمرة ، إذا شئتم ، ولكنّه أنيق أبداً : هذه الحفلة من الشعر ، هذه النظّارة ، هذه الابتسامة ! » وبسبب حشريتها ، وهي تودّ أن تعرف من هو ، أكثر ممّا كانت تودّ أن تصبح عشيقته ، كانت تقول :

ـ ليتني أعرف ماذا يوجد في هذا الرأس !

الآن ، كانت تجيب ، مرّات ، على كلّ كلمات « سوان »
بلهجة منزعجة ، وأخرى بلهجة متسامحة :

ـ آه ! ان تكون إذا ، أبداً ، مثل كلّ الناس !

كانت تتأمّل هذا الرأس الذي كان يبدو متعباً ، ومسنّاً أكثر بسبب الهموم (ولكن ، حيث الآن ، الجميع يفكّرون بفعل هذه الكفاءة ذاتها ، التي تسمح بأن نكتشف أغراض معزوفة سمفونية ، حيث كنّا قد قرأنا البرنامج ، وشَبه طفل عندما نعرف نَسَبَهُ : «ليس هو حقّاً بشع فعلاً ، إذا شئتم ، ولكنّه يدعو للسخرية ؛ هذه النظّارة ، هذه الخصلة من الشَعر ، هذه الابتسامة ! » يحقّقون عبر خيالهم المُوحى له ، الحدّ الفاصل غير الملموس ، الذي يفصل ، على مسافة عدّة أشهر ، رأس عشيق محبوب عن رأس مقرون) ، كانت تقول :

ـ آه ! لو كان بامكاني أن أغيِّر ، أن أجعل عاقلاً ما يوجد داخل هذا الرأس .

دائماً كان مستعداً أن يصدّق ماذا كان يتمنّى ، لو كانت معاملة « أوديت » له تترك مجالاً للشكّ ، وكان على الأقلّ ، يتمسّك بهذه العبارة ملهوفاً .

ـ بإمكانك أن تفعل إذا كنت تريد ، تقول له .

وكان يحاول أن يبرهن لها أنّها إذا سكّنت آلامه ، وجّهته جيّداً ، وجعلته يعمل بجهد ، فهذه تكون رسالة نبيلة منها ، حيث كلّ النساء الأخريات يتمنّين أن يقمن بها ، ولكن ، هذا العمل النبيل ، لم يكن يبدو له ، بين أيديهنّ ، سوى تعدٍ

صريح ، لا يطاق ، على حرّيته . « لو لم تكن تحبّني قليلاً ، يقول لنفسه ، لم تكن تودّ أن تغيّرني . لتستطيع أن تغيّرني ، يجب أن تراني أكثر » . هكذا كان يجد في هذا اللوم ، الذي كانت توجّهه له ، نوعاً من البرهان على الاهتمام به ، ويمكن ، أن يكون حبّاً وفعلاً ، كانت تعطيه الآن ، حباً قليلاً ، لدرجة أنّه كان مضطراً لأن يعتبر الأشياء التي تمنعه عن تحقيقها ، برهاناً أكيداً عن الحبّ . ذات يوم ، اعترفت له بأنها لم تكن تحبّ سائقه ، وربما أنّه كان يحرّضه عليها ، وعلى كلّ حال ، فهو لم يكن دقيقاً في مواعيده معه ، ولم يكن يحترمه مثلما تريد هي : « لا تأخذه أبداً لتأتي إلى عندي » ، كما لو كان قد تمنّى قبلة منها ! بما أنّها كانت صافية المزاج ، قالت له ذلك ، وتحرّكت عواطفه ! في المساء ، متحدثاً مع السيد « دوشارلوس » ، حيث كان يشعر بمتعة في أن يتحدّث عنها بصراحة (لأنّ أقل التعابير التي كان يستعملها ، حتى مع الناس الذين لا يعرفونها ، كانت ترتبط ، بشكل أو بآخر ، بها) ، قال له :

ـ أظنّ ، رغم كلّ شيء ، أنّها تحبّني ؛ إنّها لطيفة جداً معي ، ما أفعله لم يكن في نظرها أكيداً ، شيئاً بلا أهمية .

لحظة يكون متجّهاً إلى عندها ، صاعداً في عربته مع صديق له ، حيث عليه أن يوصله في طريقه ، إذا قال له هذا الصديق : « ما الأمر ، أليس هو « لوريدون » الجالس على المقعد ؟ » ، بأيّة سعادة حزينة كان يجيبه « سوان » :

ـ أوه ! أوّاه ! كلاّ ! أقول لك لا أستطيع أن آخذ « لوريدون » عندما سأذهب إلى شارع « لابيروز » . إنّ

« أوديت » لا تحبّ أن آخذ « لوريدون » ، لا تجده جيّداً معي ، على كلّ حال ، ماذا تريد ؟ النساء ! تعرف ! أعرف أنَّ هذا سيزعجها كثيراً . آه ! أجل ! لو كنت قد أخذت « ريمي » ! أيّة مشكلة كانت قد افتعلتها معي !

هذه الأساليب الجديدة ، غير المبالية ، الهاذية ، المنفعلة ، حيث أصبحت الآن أساليب « أوديت » معه ، كانت تعذّب « سوان » بالتأكيد ، ولكن لم يكن يعرف حجم عذابه ، لأنّه كان يحصل تدريجياً ، يوماً بعد يوم ، حيث كان شعور « أوديت » قد خفّ تجاهه ، وكان ، فقط ، عندما يقارن بين « أوديت » اليوم و« أوديت » الماضية في بداية علاقتهما ، فسيكون بإمكانه أن يسبر عمق التغيير الذي قد حدث بينهما . غير أنَّ هذا التغيير ، كان جرحه العميق والخفيّ . كان يؤلمه ليل نهار . ولحظة يشعر بأنَّ أفكاره كانت تتقرّب منها بشكل بارز ، كان يوجّهها ، بشدّة ، ناحية أخرى ، خوفاً من أن يتضاعف عذابه . صحيح ، أنّه كان يقول لنفسه بصورة غامضة : « كان ، وقتاً ماضياً ، حيث « أوديت » كانت تحبّني أكثر » ، ولكنّه لم يكن يحيا مجدّداً هذا الوقت أبداً . كانت هنالك في مكتبه خزانة صغيرة ذات أدراج ، يتجنّب النظر إليها ، كان يحاول تجاهلها أثناء دخوله وخروجه من الغرفة ، ففي أحد أدراجها ، توجد زهرة الأقحوان التي قدّمتها إليه ، الليلة الأولى عندما أوصلها ، الرسائل التي قالت له فيها : « ياليتك تركت قلبك هنا ، لم أكن أتركك لتعود وتأخذه » و « في أية ساعة ، في الليل أو في النهار ، تحتاجين ، أعلمني بذلك وأجعل

حياتي بتصرّفك » ، وكذلك ، كانت توجد دائرة في ذاته ، يبعد أفكاره عن الاقتراب إليها ، تجبره على أن يسافر داخل ذاته بتعقّل ، لكي لا يضطّر على أن يمرّ أمامها : كانت هي الدائرة حيث تعيش داخلها ذكريات الأيّام السعيدة .

ولكن حذره الشديد هذا قد أفسد إحدى الأمسيات ، حيث كان قد ذهب بين الناس .

كان هذا عند المركيزة « دوسانت ـ أوفرت » ، خلال آخر سهرات تلك السنة ، حيث كانت تخلق المناسبات للاستماع إلى الفنّانين الذين كانوا يشاركون في حفلاتها الموسيقية الخيرية . « سوان » الذي كان يريد أن يذهب على التوالي إلى جميع الحفلات الماضية ولم يستطع ، كان قد تفاجأ ، وهو يرتدي ثيابه للذهاب إلى هذه الحفلة ، بزيارة البارون « دوشارلوس » الذي أتى إلى عنده ليطلب منه أن يعود معه إلى منزل المركيزة ، وربّما ، مرافقته هذه ، ستساعده على جعل السهرة أقلّ مللاً ، بالنسبة إليه ، وقد يتضاءل الحزن في ذاته :

ـ لا تشكّ في المتعة التي أشعرها في أن أكون برفقتك . ولكن أكبر خدمة تستطيع أن تؤدّيها لي ، هي أن تذهب وترى « أوديت » . تعلم جيّداً كم هو تأثيرك كبير عليها . أعتقد بأنّها لن تخرج هذه الليلة قبل أن تذهب إلى عند خيّاطتها القديمة ، وعلى كلّ حال ، أعتقد أيضاً ، بأنّها ستكون سعيدة في أن توصلها إلى هناك . دون شك ، ستجدها في منزلها قبل أن تذهب . حاول أن تسلّيها وأن تجعلها تتصرّف بتعقّل لو كنت تستطيع أن تحضر للغد

شيئاً ما يعجبها ، حيث نستطيع أن نقوم به نحن الثلاثة . . . حاول أيضاً أن تضع برنامجاً لهذا الصيف ، لو كانت تشتهي شيئاً ، رحلة سياحية نقوم بها نحن الثلاثة أيضاً ، لا أدري ؟ وبما يتعلّق بهذا المساء ، لست على استعداد لرؤ يتها ؛ ولكن إذا كانت ترغب في ذلك أو إذا استطعت الاتصال بي ، أعلمني حيث أكون موجوداً عند السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » حتى منتصف الليل ، وبعد ذلك في منزلي . شكراً على كلّ ما تفعله من أجلي ، تعلم جيداً كم أحبّك . وعده البارون بأن يقوم بالزيارة التي يرغبها ، بعد أن يوصله إلى مدخل فندق « سانت ـ أوفرت » ، حيث وصل « سوان » مطمئناً بفكرة أنَّ السيِّد « دوشارلوس » سيمضي السهرة في شارع « لابيروز » ، ولكن ، بحالة كئيبة وغير مكترثة بكلّ الأشيــاء التي لا تتعلّق بـ « أوديت » ، وبــالأخصّ الأشيــاء الاجتماعية التي كانت ممتعة ، ولأنّها لم تعد هدفاً لإرادتنا ، تبدو لنا مجدّدة . لحظة نزوله من العربة ، في طليعة هذه « الخلاصة الوهميّة » لحياتهنّ العائلية ، حيث سيّدات المنزل يتظاهرن بأنهنّ يقدّمنها إلى مدعويهنّ ، خلال أيّام الاحتفال ، وحيث يبحثن عن احترام حقيقة الزيّ وكذلك الشكل الخارجي ، « سوان » تمتّع بمشاهدة وَرَثـة « نمور » « بلزاك » . « الـوصفاء » ، التـابعون العاديّون للنزهة ، الذين يرتدون القبعات على رؤ وسهم والأحذية في أرجلهم ، يبقون خارجاً أمام الفندق على أرض الجدّة ، أو أمام الاسطبلات ، كما لو أنَّ عدد من أصحاب الحدائق يقفون في صف واحد على مدخل حدائقهم . الاستعداد الخاص الذي كان دائماً

لديه في أن يبحث الشَبَه بين الكائنات الحيّة ولوحات المتاحف ، كان يمارسه أيضاً ، ولكن بصورة مستمرّة وشاملة أكثر ، إنّها الحياة الاجتماعية بكاملها ، الآن ، حيث قد أصبح غير مكترث بها ، والتي صارت تظهر له مثل لوحات متتالية . في الممرّ ، حيث ، من قَبْل ، عندما كان اجتماعياً جداً ، كان يدخل مغطّى بمعطفه ، ليخرج بـ « الفراك » ، ولكن دون أن يعلم ماذا قد جرى ، وقد كان فكره مأخوذاً حيث الوقت القليل الذي كان يقيم خلاله عند أصدقائه في الفندق ، حتى في الحفلة التي كان قد غادرها لتوّه ، أو أيضاً حيث « قد صار » في الحفلة التي سيأخذونه إليها ، لأوّل مرّة لاحظ ، حذرة من مجيء غير منتظر ، لضيف متأخّر ، عصابة مشتّتة ، رائعة وكسولة ، من الخدم الكبار الذين ينامون هنا وهناك على المقاعد والصناديق الحديدية وحيث ، رافعين جوانب وجوههم ، النبيلة والحادّة ، مثل الكلاب السلوقيّة ، ينتصبون ، يتجمّعون ، ليشكّلوا دائرة حوله .

أحدهم ، منظره مفترس بنوع خاص ، أكثر من غيره ، يشبه الجلاّد في بعض لوحات عصر النهضة التي تمثّل العذابات ، اقترب نحوه ، بمظهر متصلّب ، ليأخذ منه حوئجه . ولكن قساوة نظره الفولاذي ، كان يعوّض عنها بنعومة قفّازه الحريري ، لدرجة أنّه عندما اقترب من « سوان » ، كان يبدو وكأنّه يحتقر شخصيته ويحترم قبّعته ! أخذ القبّعة بعناية ، حيث صحّة قياسها كانت تعطي نوعاً من الشيء المبالغ في دقّته ، ورقّةً تجعلها مؤثرة قليلاً على جهاز قوّته . ومن ثمّ ، مرّرها إلى أحد معاونيه ، جديد

وخجول ، يعبّر عن عمله من خلال الخوف الذي كان يشعر به وهو يجيل نظرات ملتهبة ، ويظهر انفعال حيوان أسير في الساعات الأولى من خدمته !

على بضع خطوات ، شخص قوي البنية يرتدي لباس الخدم ، كان يحلم ، لا يتحرّك ، كأنّه منحوتة لافائدة منها ، مثل هذا المحارب الصُوَري الذي نراه في اللوحات الأكثر صَخْباً لـ « مونتانيا » ، يفكّر ، متكّئاً على درعـه ، عندمـا يهجمون ويتناحرون بالقرب منه ؛ كان منفصلاً عن مجموعة رفاقه الذين كانوا يهتّمون بـ « سوان » ، كان يظهر عدم اكتراث بهذا المشهد ، بمقدار ما كان يتبع ، بنوع من السهو ، بعينيـه الخضراوين الضاربتين إلى الزرقة والقاسيتين ، كما لو كان المشهد يمثّل مجزرة الأبرياء أو استشهاد « القديس جاك » . كان يبدو أنّه يتحدّر من هذا النسل المتنافر ـ أو الذي يمكن أنّه لم يوجد أبداً إلاّ في المنحوتات المزخرفة لـ « سان زينو » ، والرسوم الجداريّة لـ « الإرميتانيين » ، حيث « سوان » كان قد اقترب منه ، وحيث كان ما زال يحلم ـ يتحدّر من تلقيح تمثال قديم بمثالٍ « بادواني » لـ « المعلّم » أو « سكسونيٍ » ما لـ «ألبير دورير » . خصلات شَعره الأصهب ، المجعّدة طبيعياً ، ولكن الملزّقة بزيت الشعر ، كانت معالجة براحة كما لو أنّها في النحت اليوناني الذي كان يدرسه بدون توقّف رسّام « مانتو » ، وحيث ، إذا كانت في التكوين ، تمثّل الرجل فقط ، فقد يعرف ، على الأقلّ ، أن يستخلص من أشكالها البسيطة غنى متنوعاً جداً ، وكأنّه استعارة عن الطبيعة الحيّة ،

حيث الشعر ، حيث التلفيف المالس والمناقير الحادّة لحلقاته ، أو في التراكب المثلّث والمزهّر لتاج ضفائره ، تشبه ، في آن واحد ، باقة طحلب ، فراخ عشّ الحمام ، عِصابة من الياقوتيّة وجديلة حيّات .

بعض الآخرين أيضاً ، هم أيضاً ضخام ، كانوا موضوعين على درجات سلّم ضخم ، حيث وجودهم التزييني وجمودهم المرمريّ كان ممكناً أن يجعلنا ندعوه مثل الذي يوجد في القصر الدوقي : « سلم العمالقة » ، وحيث « سوان » ، قد سلكه حزيناً ، وهو يفكّر بأنَّ « أوديت » لم تكن قد صعدته أبداً . آه ! بالعكس ، بأية سعادة كان قد صعد الطوابق السوداء ، المنتنة وذات المزالق الصعبة للخيّاطة الصغيرة المنعزلة ، في « الخامس » حيث كان قد أصبح سعيداً جداً بأن يدفع أكثر ممّا يدفعه في مقصورة أمامية من المسرح ، كلّ أسبوع ، في الأوبرا ، من أجل أن يمضي السهرةعندما كانت « أوديت » تأتي إلى هناك ، وحتى خلال ، الأيّام الأخرى ، لكي يمكنه أن يتحدّث عنها ، أن يعيش مع الناس الذين كان من عادتها أن تراهم عندما لم يكن هنا ، وحيث بسبب هذا يبدو له أنهم كانوا يكتمون عن حياة عشيقته ، شيئاً طبيعياً جداً ، صعباً جداً أن يصله وسرّياً جداً . عندما في هذا الدرج المنتن والمرغوب من الخيّاطة القديمة ، وبما أنّه لم يكن يوجد درج آخر للخدمة ، كنت ترى خلال الليل ، أمام كلّ باب ، علبة حليب قذرة ومحضّرة ، على ممسحة الأقدام ، على السلّم الرائع والمحتقر الذي كان « سوان » يصعده في تلك اللحظة ، من

الجهتين ، على ارتفاعات مختلفة ، أمام كلّ فجوة ، كانت تحدثها في الجدار نافذة مسكن البّواب ، أو باب لشقة ما ، وهو يمثّل الخدمة الداخلية التي كانوا يديرونها وهم يحيّون الضيوف : حارس بناية ، كبير خدم مسؤول مالي (أناس طيّبون ، كانوا يمضون بقية الاسبوع مستقلين قليلاً ، يتناولون العشاء في منازلهم ، مثل أصحاب حوانيت صغار ، والذين يصبحون ، ربما ، في الغد ، في خدمة طبيب أو صناعي) ، ساهرون على ألاّ يهملوا إحدى التعليمات التي قد قيلت لهم قبل أن يُلبسوهم ملابس الخدم الزاهية ، حيث لم يكونوا يرتدونها إلاّ في فترات نادرة ، وحيث بها لم يكونوا يشعرون بالراحة ، يتواجدون تحت القناطر المتتابعة تحت باب المدخل الرئيسي ، بمظهر فخم ملطّف بالطيبة الشعبية ، مثل القدّيسين داخل التجاويف الجداريّة ! بينهم ، سويسري ضخم ، يرتدي كما في الكنيسة ، يضرب البلاط بعصاه عند مرور كلّ قادم . عندما وصل إلى أعلى الدرج ، حيث كان يتبعه خادم ذو وجه شاحب ، شَعره مربوط بشريط ، يبدو مثل ذَنَب وراء رأسه ، مثل شمّاس لـ « غويا » أو مثل نوع من الموظّفين المسؤولين عن الفهارس في المؤسّسات ، « سوان » مرّ أمام مكتب ، حيث كان هنالك خَدَمٌ ، يجلسون مثل كتّاب العدل أمام سجلاّت كبيرة . وقفوا وسجّلوا اسمه . اجتاز ، عندئذٍ ، ردهة صغيرة حيث ـ مثل بعض الغرف الصغيرة المعدّة من قِبَل أصحابها لتشكّل إطاراً لعمل فني واحد ، حيث تُسّمى بأسمائهم ، مفرغة قصداً ولا تحتوي على أيّ شيء آخر ـ كان يبرز على مدخله ، شيء كأنّه نوع من صورة

ثمينة مرسومة على قطعة نقود لـ «بينفينيتو شيلليني » تمثّل رجل رقابة ، خادماً شاباً ، جسده منحنٍ قليلاً إلى الأمام ، رافعاً على قبّته العالية المنشّاة الحمراء وجهاً يفوق الياقة احمرارا ، حيث كان يشعّ منه فيض من الغار ، من الخجل والاندفاع ، والذي ، مخترقاً ظلال أقمشة سجّاد صنع اليد مفروشاً أمام الصالون حيث يصغي الناس إلى الموسيقى ، بنظره الحادّ ، اليقظ ، الضائع ، يبدو ، بجموده العسكري أو بإيمانه الخارق ـ متهيّئاً للإنذار ، مجسّداً للانتظار ، مذكّراً باستعداد للقتال ـ يترصّد ، كملاك أو كراصد ، من قمّة برج رئيسي أو من أعالي كاتدرائية ، ظهور العدو أو ساعة الحُكم . لم يكن يبقى لـ « سوان » إلاّ أن يدخل إلى قاعة العزف ، حيث حاجب مثقل بالسلاسل فتح له الأبواب منحنياً ، كما لو أنّه قد سلّمه مفاتيح المدينة ! ولكن كان يفكّر في المنزل ، حيث كان بإمكانه أن يكون موجوداً في هذه اللحظة ، لو كانت « أوديت » قد سمحت له بهذا ، وقد جعلته الذكرى العابرة لعلبة حليب فارغة على ممسحة الأرجل ، يشعر بانقباض في قلبه .

اكتشف « سوان » مجدّداً ، وبسرعة الإحساس بالبشاعة الذكورية عندما نظر إلى ما هو أبعد من الجدرانيّات القماشية ، بعد تتابع رؤية الخدم والمدعوين ! ولكن بشاعة هذه الوجوه بالذات ، بالرغم من أنّه كان يعرفها جيّداً ، بدت له جديدة حيث تكاوينها ـ عوضاً عن أن تكون علامات قد تُستعمل بصورة عملية ليتعرّف على شخص ما ، حيث كان يمثّل له حتى الآن مجموعة ملذّات يتابعها ، أشياء مملّة يتحاشاها ، أو واجبات يؤدّيها ـ كانت

تتركّز ، مرتبطة فقط بروابط جمالية ، بخطوطها الخاصّة . ومع هؤلاء الرجال ، الذين في وسطهم ، كان يشعر بنفسه مقيّداً ، وحتى بما يتعلّق بالنظّارات ، التي كان الكثيرون منهم يضعونها على أعينهم ، (وحيث من قَبْل ، كان قد عبَّر عنها « سوان » بقوله فقط إنّهم كانوا يضعون نظّارة) ، والتي الآن لم تعد تعني له مجدّد عادة عامّة لكلّ الناس ، ولكنها متعلّقة مباشرة بنفسية كلّ شخص بالذات . وربّما لأنّه لم يكن ينظر إلى الجنرال « دوفروبرفيل » وإلى المركيز « دوبروتيه » حيث كانا يتحدّثان على المدخل ، فقط ، كما لو أنّهما شخصان في لوحة ، وقد كانا بالنسبة إليه ولمدّة طويلة الأصدقاء المفيدين ، حيث كانا قد عرّفاه على « الجوكي » وساعداه في المبارزات . نظّارة الجنرال ، ثابتة بين جفنيه ، مثل بقايا شظيّة في وجهه الشعبي ، المشطّب والمنتصر ، في وسط الجبين حيث كان يظهره أعور ، وكأنّها العين الوحيدة التي توجد في وسط جبين عملاق أسطوري ، وقد ظهرت لـ « سوان » مثل كأنّها جرح هائل ، كان بإمكان الجنرال أن يكون ممجَّداً من خلالها ، ولكن كان من غير اللائق أن يعرضها . بينما نظّارة السيّد « دوبريوتيه » كانت تضيف ، لمناسبة الحفلات ، إلى القفّازات الرماديّة الفاتحة ، إلى لباس « الجيبوس » ، إلى ربطة العنق البيضاء وتُحل محلّ النظّارتين العاديّتين (كما كان يفعل « سوان » بالذات) ليذهب إلى المجتمع ، كان يحمل ، ملتصقاً بقفا النظّارتين ، كأنّه اختبار بيولوجي تحت المجهر ، نظراً دقيقاً جدّاً وعاجّاً باللطف ، الذي لا يكفّ عن أن يبتسم للسقوف ، لجمال الحفلات ، وللاهتمام

بالبرامج ولنوعية المرطّبات !

ـ ماذا ، ها أنت هنا ، ولكن منذ زمن طويل لم نعد نراك ، قال الجنرال لـ « سوان » الذي ، ملاحظاً تقاطيع وجهه المتعبة ، مستنتجاً أن مرضاً شديداً كان قد أبعده عن المجتمع ، تابع قائلاً : « تبدو بمظهر جيّد ، هل تعرف ! » عندما السيّد « دو بريوتيه » كان يسأل :

ـ كيف ، أنت ، يا عزيزي ، ماذا تفعل هنا ؟ كما روائي اجتماعي ، يضع نظّارته في زاوية عينه ، العضو الوحيد لأبحاثه البسيكولوجية وتحليلاته القاسية ، وأجاب بمظهر هادىء ومتشاوف ، وهو يركّز على حرف « الراء » :

ـ أتـ « ر » حدّ !

نظّارة المركيز « دو فورستيل » كانت صغيرة جداً ، لم يكن لديها أي إطار ، كانت تخضع ، لانقباض مستمرّ وموجع ، العين ، حيث كانت تلتصق مثل شيء إضافي ، حيث وجود النظّارة لا معنى له وحيث وجودها مفتعل ! كانت تعطي لوجه المركيز نوعاً من الرقّة الحزينة ، وتجعل النساء يعتقدنه بأنّه مؤهّل لاجتذاب أحزان من الحبّ كبيرة . ولكن نظّارة السيّد « سان ـ كنديه » ، محاطة بحلقة ضخمة ، مثل كوكب « ساتورن » ، كانت مركز الثقل لوجه يكيّف شكله في كلّ وقت نسبة لها ، حيث الأنف المرتجف والأحمر ، والفمّ المُرخى والساخر ، كانا يحاولان ، من خلال حركاتها ، أن يكونا على مستوى النار النفسية المتأجّجة حيث يشعّ قرص الزجاج ، وحيث هذه الزجاجة مفضّلة على أجمل

عيون العالم من قِبل النساء السنوبيّات والمنحطّات ، تجعلهنّ يحلمن بمتع سطحية وبتفنّن في الملذّات الجنسية ، السيّد « دو بالنسي » ، برأسه الضخم مثل سمكة « الشبّوط » ذات العينين المدوّرتين ، كان يتجوّل على مهل ، وراء نظّارته ، وسط الحفلات ، وهو يرخي ، من وقت إلى آخر ، فكّه الأسفل كما لو أنّه يبحث عن اتجاهه ، ويبدو كأنّه ينقل معه جزءاً عابراً ، فقط ، بالصُدفة ، ويمكن ، على الأقلّ ، بشكلٍ رمزي ، من زجاج « الأكواريوم » الذي يخصّه ، جزءاً مخصّصاً لتمثيل الكلّ ، الذي ذكّر « سوان » ، المعجب الكبير بـ « الرذائل » و « الفضائل » لـ « جيوتو » في « بادو » ، هذا الباغي الذي بقربه غصن صغير مورق بكثرة ، يذكّر بالغابات حيث تختبىء مغارته !

كان « سوان » قد اقترب ، بإلحاح من السيّدة « دو سانت ـ أوفرت » ، ليصغي إلى نَغَم لـ « أورفيه » الذي يقدّمه عازف ناي ، كان قد جلس في زاوية ، حيث كان لديه ، لسوء الحظّ ، كمنظر وحيد ، سيّدتان متقدّمتان في السنّ ، تجلسان متقاربتين جداً : المركيزة « دوكومبريمور » والفيكونتيس « دو فرونكوتو » ، اللتان ، كونهما بنات عمّ ، تمضيان وقتهما خلال السهرات ، تحملان جزدانيهما . ومتبعتان ببناتهما ، كانتا تبحثان عن بعضهما وكأنّهما في المحطّة ولا تطمئنان إلاّ عندما تشيران ، بمروحتهما أو بمنديلهما ، إلى مكانين متجاورين : السيّدة « دوكومبريمور » ، كونها ذات علاقات قليلة جداً ، كانت مسرورة لهذا السبب أن تكون لديها رفيقة ، السيّدة « دوفرونكوتو » ، التي كانت ،

بالعكس ، متداخلة جداً في المجتمع ، وهي تجد شيئاً أنيقاً ، مُبْتَكَراً ، أن تظهر لجميع معارفها البارزين أنّها تفضّل عليهم سيّدة مجهولة ، حيث كان لديهما بالتساوي ذكريات عن أيّام الصبا . مليئاً بسخرية حزينة ، « سوان » كان ينظر إليهما وهما تصغيان إلى فاصل موسيقي على البيانو : (القديس فرنسوا وهو يتحدّث إلى العصافير لـ « ليست ») الذي كان قد جاء بعد لحن الناي ، وتتبعان العزف المُسكر للعازف الرائع . السيّدة « دوفرونكوتو » ، قلقةً ، العينان شاردتان ، وكأنّ اللمسات ، التي يمارسها العازف برشاقة ، كانت وكأنّها سَفَر متتابع لأراجيح ، حيث يتعرّض ، من خلالها ، للسقوط بين لحظة وأخرى عن علو ثمانين متراً ، ولم تستطع إلاّ أن ترمي لجارتها نظرات من الاستغراب ، من النفي ، وهي تعني : « هذا شيء لا يصدّق ، لم أكن أعتقد بأنّ رجلاً باستطاعته أن يفعل ذلك » . السيّدة « دوكومبريمور » ، كامرأة ، حيث تلقّت تربية موسيقية عالية ، كانت تعيّن النغم برأسها الذي تحوّل ، بشكل بارز ، إلى رقّاص آلة لتعيين النغمات ، حيث من خلال الاهتزازات الصوتية وسرعة التذبذب ، من كتف إلى آخر ، توصّلت إلى هذه الدرجة (بهذا الشكل من التيه والاستسلام اللذين يسكنان النظر أثناء لحظات الأوجاع الكبيرة التي تنسى نفسها ولا تحاول حتى السيطرة على ذاتها ، تستسلم قائلة : ماذا تريدون أن أفعل !) انّها في كلّ لحظة كانت تعلّق بخواتمها شرائط صدر فستانها ، وكانت مضطرّة على أن تسوّي حبّات العنب الأسود التي تضعها في شعرها ، دون أن تتوقّف ، من أجل هذا

السبب عن تسريع حركاتها . من الجهة الأخرى للسيّدة « دوفرونكوتو » ، ولكن قليلاً إلى الأمام ، كانت تجلس المركيزة « دو غلاّردون » ، مهتمة بفكرتها الوحيدة : المصاهرة التي تربطها بـ « آل غِرمنت » ، حيث كانت تشكّل سبباً لتباهيها بنوع من المجد أمام الناس ممزوج ببعض الخجل ، بسبب أنّ الأكثر أهمية منهم كانوا يتحاشونها بعض الشيء ، ربّما لأنّها كانت مملّة ، أو لأنها كانت شريرة ، أو لأنّها كانت من مستوى أدنى ، أو بدون أي سبب . عندما كانت تجد نفسها بقرب شخص لا تعرفه ، كما في تلك اللحظة بالقرب من السيّدة « دوفرونكوتو » ، كانت تتعذّب ، حيث إدراكها لنَسَبِها مع « آل غرمنت » يجعلها تخشى أن تتظاهر بحروف واضحة ، مثل هذه التي توجد في فسيفساء الكنائس البيزنطية بقوة عمودية مكتوبة تحت بعضها البعض ، والمنقوشة بشكل ركن عمودي ، بقرب قديس ما ، الكلمات حيث مفروض أن يلفظها . كانت تفكّر في هذه اللحظة بأنّها لم تكن تتلقّى دعوة ولا زيارة من ابنة عمّتها الأميرة « دو لُوم » ، منذ ست سنوات ، حيث كانت قد تزوّجت . هذه الفكرة كانت تملؤها غضباً ولكن أيضاً كبرياء ، لأنّها ، بقدر ما كانت تقول للناس الذين كانوا يستغربون أنّهم لا يرونها عند السيّدة « دولوم » ، انّ هذا كان بسبب أنّها ستكون معرّضة لأن تقابل هناك الأميرة « ماتيلد » ، ـ وهذا الشيء إذا حدث ، فلن تسامحها عائلتها الشرعية المتطرّفة ـ ، كانت في النهاية قد اقتنعت بأن هذا هو السبب ، فعلاً ، حيث لم تكن تذهب إلى عند ابنة عمتها

الشابة . كانت تتذكّر رغم ذلك أنّها كانت قد طلبت عدّة مرات من السيّدة « دولوم » ماذا ستفعل لتقابلها ، ولكن لم تكن تتذكّر هذا الشيء إلاّ بصورة غامضة ، وعلى كلّ حال كانت تُبعد كثيراً هذه الذكرى المُذلّة بعض الشيء وهي تتمتم : « هذا ليس شأني على كلّ حال أن أقوم بالخطوة الأولى ، إنّني أكبرها بعشرين سنة » . بسبب هذه الكلمات الباطنية ، كانت تُعيد إلى الوراء بكبرياء ، كتفيها المبعدين عن صدرها ، حيث عليهما موضوع رأسها بشكل أفقي ، تقريباً ، وكانت توحي لك برأس « مُعاد » لِدِيك برّي متعجرف ، يقدّم على المائدة بكامل ريشه . ليست لأنّها كانت بطبيعتها قصيرة جداً ومكتنزة ، مسترجلة ومستديرة الجسم ، ولكن الإهانات كانت قد جلّستها مثل هذه الأشجار التي تنبت في أماكن سيّئة على شفير هاوية ، مرغمة على أن تنمو إلى الوراء لتحتفظ بتوازنها . مضطّرة لكي تعزّي نفسها في ألاّ تكون متساوية كلّياً مع الآخرين من « آل غِرمنت » أن تردّد أمام ذاتها دون توقّف ، أنه بسبب عدم التساهل في المبادىء والكبرياء ، لا تراهم إلاّ قليلاً ، وهذه الفكرة كانت في النهاية تؤثر على شكل جسمها وتولّد فيها نوعاً من المهابة ، حيث ، في نظر البورجوازيات ، كانت علامة على الأصالة ، وكانت تربك ، بعض المرّات ، من خلال رغبة عابرة ، النظرات المتعبة لرجال النادي ! لو كانوا قد أجروا بحوثات على حديث السيّدة « غلاردون » ، حيث يدقّقون عبرها في التكرار ، الأكثر أو أقلّ اتساعاً ، لكلّ كلمة تسمح لنا بأن نكتشف مفتاحاً للغة من

الرموز ، كانوا قد اكتشفوا أنّه ولا عبارة ، حتى الأكثر استعمالاً ، لم تكن تتكرّر بصورة مستمرّة كما هذه العبارة « عند أبناء عمي « دوغِرمنت » ، عند عمتي « دوغرمنت » ، « صحة » إليزِيار « دوغِرمنت » ، « مغطس ابنة عميّ « دوغِرمنت » . عندما كانوا يحدّثونها عن شخص مشهور ، كانت تجيب بأنّها ، دون أن تعرفه شخصياً ، كانت قد قابلته ألف مرّة عند عمتّها « دوغِرمنت » ، ولكن كانت تقول هذا الشيء بلهجة باردة جداً وبصوت مخنوق ، حيث كان واضحاً أنّها ، إذا لم تكن تعرفه شخصياً ، فإنّما هذا كان بسبب كلّ المبادىء المجذّرة والعنيدة ، حيث كتفاها يتلاصقان عندئذٍ وراء ظهرها ، مثل هذه السلالم التي يجعلك أساتذة الرياضة البدنيّة تتمدّد عليها ليوسّعوا صدرك !

غير أنّ أميرة « دولُوْم » ، حيث لم يكن أحد ينتظر أن يراها عند السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ، كانت قد وصلت على الفور . ولكي تبرهن أنّها لم تكن تبحث أن تجعل أحداً يشعر باستعلاء مركزها ، في صالون ما ، حيث لم تكن تأتي إلاّ بتنازل منها ، كانت قد دخلت بشكل متواضع ومحتجب ، بالرغم من أنه لم يكن هنالك أي جمهور مضطرة لأن تخترقه ولا أي شخص عليها أن تجعله يمرّ قبلها ، باقية عمداً في المؤخرة ، كما لو أنّ مكانها هناك ، كما لو أنّها مَلِكٌ ينتظر دوره على باب المسرح حتى يشعر المسؤولون بوجوده ؛ محدّدة ببساطة نظراتها ـ حتى لا يعتقد أحد بأنّها تريد أن يلاحظوا وجودها وأنّها تطلب تقديم الاحترام ـ لتأمُّل رسمةِ سجّادة أو تنورتها بالذات ، كانت قد استمرّت واقفة في المكان

الذي بدا لها أكثر تواضعاً (وبحيث كانت تعلم جيّداً أنّ صرخة تَعَجُّب وبهجة من قِبَل السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » كانت ستخرجها من هذا المكان في اللحظة التي ستراها فيها) ، بالقرب من السيّدة « دوكوبريمور » التي لم تكن تعرفها . كانت تتأمّل حركات جارتها المولعة بالموسيقى ، ولكنها لم تكن تقلّدها . ليس لأنّها ، لمرّة ما ، حيث كانت تأتي لتمضية خمس دقائق عند السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ، لم تكن الأميرة « دولوم » لطيفة مع السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ، لكي تتلقّى منها مجاملة مضاعفة ، ولكنّها بطبيعتها ، كانت تمتعت ما تسمّيه « المبالغات » ، وتودّ التوضيح دائماً أنّها « ليست مضطرّة على » الانصراف إلى التعبير حيث لا يكون هو بالذات من « نوع » الوسط الذي تعيش فيه ، ولكن ، من جهة ثانية ، لم يكن هذا الشيء بدون تأثير عليها بسبب هذه الروح للتقليد القريب من الخجل حيث ينمّي ، عند الناس الأكثر وثوقاً بأنفسهم ، جوّ وَسَط جديد ، حتى ولو كان هذا الوَسَط دون مستواهم . كانت تتساءل عمّا إذا كانت كلّ هذه الحركات ضرورية بسبب المقطوعة التي كانوا يعزفونها ، والتي لا تندرج تحت إطار الموسيقى التي كانت قد سمعتها حتى الآن ، وإذا لو كانت قد امتنعت عن المجيء ، أفلا يكون هذا برهاناً على قلّة فَهْم للمقطوعة وقلّة احترام تجاه سيّدة المنزل : بحيث إنّها ، لتعبّر ، « من خلال موقف ما » عن شعورها المتناقض ، كانت تكتفي مرّات برفع فستانها على كتفيها أو بترتيب الكرات الصغيرة في شَعرها ، من المرجان أو من الزجاج الزاهي ، المغطّاة بذرّات

من الألماس ، حيث تشكّل لها تسريحة بسيطة وجذّابة . متأمّلة بحشرية هادئة جارتها النشِطة ، كانت لفترة ما ، ومرّات عديدة ، تعيّن النغمات بمروحتها ، ولكن ، لكي لا تبدو أنّها قد تنازلت عن شخصيتها ، فقد كانت تعيّنها بالعكس . عندما كان عازف البيانو قد انتهى من عزف مقطوعة « ليست » وحيث كان قد بدأ « البريلود » لـ «شوبان » ، بادلت السيّدة «دوكومبريمور» السيّدة « دوفرونكوتو » ابتسامة مؤثرة ، مرتاحة ومعبّرة ، وذات ملامح تشير إلى الماضي . كانت قد تعلّمت في صباها كيف تداعب العبارات الموسيقية ، المتعرّجة مثل ممّرات الجبال الضيّقة التي بلا نهاية ، لـ « شوبان » ، الحرّة جداً ، الليّنة جداً ، الملموسة جداً ، حيث تبتدىء بأن تبحث وتجرّب مكانها خارجاً وبعيداً جداً عن وجهة انطلاقها ، بعيداً جداً أيضاً عن النقطة ، حيث كنّا نتأمّل بأن تصل لمساتها ، وحيث لم تكن تُلعب بهذه المسافة المتبكِرَة إلّا لتعود بحرّية أكثر ـ بعودة أكثر تصميماً ، أكثر دقّة كما على البلّور الذي يطنّ حتى حدود الصراخ ـ وتطعننا في القلب .

عائشة في عائلة قروية حيث لديها قليل من العلاقات ، لم تكن تذهب أبداً إلى السهرات الراقصة ، كانت قد سكرت بوحدة قصرها الريفي : أن تخفّف ، أن تعجّل رقعة كلّ هؤلاء الأزواج الخياليين ، أن تتخيّلهم بالتتالي مثل كأنّهم أزهار ، أن تغادر قليلا السهرة الراقصة لتصغي إلى صوت الريح في أشجار السّرو ، على ضفاف البحيرة ، وأن ترى فجأة ، يقترب ، مختلفاً جداً عن أيّ شيء كنّا قد حلمنا به في الماضي عن عشّاق الأرض ، شاباً نحيفاً

ذا صوت يغنّي ، غريب وغير متجانس ، مرتدياً قفّازات بيضاء . ولكن اليوم ، جمال هذه الموسيقى التي تخطّاها الزمن ، كان يبدو أنّه قد فقد نضارته . محرومة منذ بضع سنوات من تقدير العارفين ، كانت قد أضاعت مجدها وجاذبيتها . وحتى هؤلاء ذوي الأذواق السيّئة ، لم يجدوا فيها إلاّ لذّة ضعيفة ، لا يعترفون بها . السيّدة « دوكوبريمور » ألقت نظرة خفيّة وراءها . كانت تعلم أنّ كنّتها الشابّة (وهي ترشح احتراماً لعائلتها الجديدة ، إلاّ بما يتعلّق بأشياء الفكر حيث ، كانت تعرف التناغم الموسيقي ، وحتى اللغة اليونانية ، ولديها معارفها الخاصّة) كانت تحتقر « شوبان » وتتعذّب عندما تستمع إلى مقطوعاته . ولكن بعيداً عن رقابة هذه « الفاغنرية » التي كانت تقف أبعد قليلاً مع مجموعة من الأشخاص في مثل سنّها ، السيّدة « دوكوبريمور » كانت تحلم بأشياء رائعة . الأميرة « دولُوْم » كانت تشعر بها أيضاً . دون أن تكون بطبيعتها موهوبة للموسيقى ، كانت قد تلقّت منذ خمسة عشر سنة الدروس على يد أستاذة بيانو من « الفوبورسان ـ جرمان » ، وهي امرأة عبقرية كانت قد أُوْقِعت في البؤس في آخر أيّامها ، وكانت قد بدأت مجدّداً في سنّ السبعين بإعطاء الدروس إلى بنات وحفيدات تلميذاتها القديمات . كانت قد ماتت اليوم . ولكن طريقتها ، صداها الجميل ، كانت تخلق مجدّداً بعض الأوقات تحت أنامل تلميذاتها ، وحتى بالنسبة للواتي كنّ يظهرن ضعيفات بنظر الناس ، وقد تخلّين عن الموسيقى ولم يكنّ يفتحن تقريباً البيانو . هكذا السيّدة « دولُوْم » ، استطاعت أن تحرّك رأسها ،

من خلال كامل استيعابها للأشياء ، بتعبير صحيح عن كيفية لعب العازف لهذا « البريلود » ، حيث كانت تحفظه جيّداً . أكملت على شفتيها العبارة التي كان قد بدأها العازف ، وتمتمت : « إنّ هذا دائماً رائع » ، وهي تلفظ بشدّة أوّل حرف من « رائع » ، حيث كان هذا الشيء علاقة رقّة ، وحيث كانت شفتاها تشعران بتجعّد رومنسي مثل زهرة جميلة ، جاعلة نظرها ينسجم بصورة غير مباشرة معها ، وأعطت له في هذه اللحظة نوعاً من العاطفية المفرطة والشْرود . ولكن السيّدة « دوغلاّردون » كانت تقول في نفسها إنّ هذا كان من المؤسف أنّها لم تكن ترى الأميرة « دولُوم » إلاّ بصورة نادرة ، لأنّها كانت تودّ ألاّ ترد على تحيّتها لتلقّنها درساً . لم تكن تعلم أنَّ ابنة عمّتها كانت هنا . حركة من رأس السيّدة « دوفرنكوتو » قد كشفتها لها . على الفور ، اتّجهت بسرعة نحوها مزعجة كلّ الناس ؛ ولكن ، متمنيّة أن تحتفظ بمظهر متعالٍ وبارد حيث قد عبَّر لكل الناس عن أنّها لم تكن تودّ أن تكون لديها أية علاقة مع شخص بالإمكان أن تقابل عنده ، وجهاً لوجه ، الأميرة « ماتيلد » ، حيث لم يكن يجوز أن تتجه هي إليها لأنّها لم تكن « من جيلها » ، ولكنها أرادت أن تعوّض عن هذا المظهر المتعالي ، وعن تحفّظها ببعض العبارات التي ستبرّر مسعاها ، وقد أجبرت الأميرة على أن تأخذ المبادرة في الحديث ؛ وهكذا ، عندما وصلت بالقرب من ابنة عمّتها ، السيّدة « دوغلاردون » ، بوجهٍ قاسٍ ، ويدٍ ممدودة مثل بطاقة مفروضة علينا ، قالت لها : « كيف حال زوجك ؟ » بالصوت ذاته المهموم ، كما لو أنّ الأمير مريض جدّاً .

ضحكت الأميرة ، من خلال ابتسامة خاصّة بها ، حيث كانت مخصّصة ، في آن واحد ، لتبرهن للآخرين أنّها كانت تسخر من شخص ما ، وكذلك لتبدو الأميرة أكثر جمالاً وهي تركّز تقاطيع وجهها حول فمها الحيوي ونظرها البراق ، وقد أجابتها :

ـ ولكن في أحسن حال !

واستمرّت في الضحك . ولكن وهي تجلّس قامتها مع قليل من التحفّظ ، ورغم ذلك ما زالت مشغولة البال على الأميرة ، قالت السيّدة « دوغلاردون » لأبنة عمّها :

ـ « أوريان » (هنا السيّدة « دولُوْم » نظرت بشكل مستغرب وضاحك ، قليله واضح ، حيث تجاهه كانت تريد أن تبرهن أنّها لم تكن أبداً قد سمحت للسيّدة « دوغلاّردون » أن تناديها باسمها الصغير) ، إنّني أتمسّك جداً بأن تأتي غداً لحظة إلى عندي لتصغي إلى مقطوعة خماسية الأجزاء بالمزمار لـ «موزار » . أودّ أن أعرف رأيك .

كانت تبدو أنّها لم تكن توجّه إليها دعوة ، ولكنّها كانت تطلب خدمة ، وأنّها بحاجة إلى أن تعرف راي الأميرة حول « خماسية » « موزار » ، كما لو أنّ هذا الشيء كان طَبَقاً من صنع طبّاخة جديدة ، حيث من المهمّ أن تأخذ رأي ذوّاقة بكفاءتها !

ـ ولكنّني أعرف هذه « الخماسية » ، باستطاعتي أن أقول لك على الفور . . . إنّني أحبّها !

ـ تعرفين ، زوجي ليس بصحة جيّدة ، كبده . . . سيكون سعيداً جداً في أن يراكِ ، تابعت السيّدة « دوغلاّردون » ، مجبِرةً

هكذا الأميرة على أن تأتي إلى سهرتها باسم المحبّة !

لم تكن الأميرة تحبّ أن تقول للناس إنّها لا تريد أن تذهب إلى عندهم . يوميّاً ، كانت تبدي أسفها قد مُنعت ـ بسبب زيارة غير متوقّعة من حماتها ، أو دعوة من صهرها ، أو بسبب « الأوبرا » ، أو بسبب حفلة ريفية ـ في سهرة حيث لم تكن أبداً قد فكرت بأن تذهب إليها . كانت تمنح هكذا ، لأناس كثيرين ، الفرح في أن يعتبروها على علاقة بهم ، وأنّها كانت قد ذهبت بسرور إليهم ، وأنّها لم تكن ممنوعة من أن تفعل هذا إلاّ بسبب الظروف الأميرية الطارئة ، وحيث كان هؤلاء يتباهون بأن يلاحظوا أنَّ هذه الأسباب تنافس سهراتهم . وأيضاً ، بما أنّهم مرتبطون روحياً بمجموعة « آل غرمنت » ، حيث كان متبقياً فيهم بعد شيء من سرعة الخاطر مجدّد من الشعور والمفاهيم العامّة والمتّفق عليها ، تلك الروح التي تتحدّر مباشرة من « ميريمه » ، وقد وجدت آخر تعبير لها في مسرح « مياك » و «هاليفي» ، هذه الروح كانت تستعمله حتى في العلاقات الاجتماعية ، تنقله حتى بتهذيبه حيث تحاول أن يكون إيجابياً ، دقيقاً ، أن تتقرّب من الحقيقة الوضيعة . لم تكن تعبّر بصورة موسّعة عن رغبتها في أن تأتي إلى سهرتها ، كانت تجد أنّه من الألطف أن تقدّم لها بعض الوقائع الصغيرة حيث عليها يتوقّف رفضها أو ذهابها إلى منزلها .

ـ اسمعي ، سأوضح لك ، قالت للسيّدة « دوغلاّردون » ، يجب أن أذهب غداً مساءً إلى منزل صديقة كانت قد حدّدت هذا النهار منذ زمن . إذا دعتنا إلى المسرح ، فلن

يكون ممكناً ، حتى ولو بذلت أقصى جهدي ، أن أذهب إلى منزلك ؛ ولكن إذا بقينا عندها ، وبما أنّه سنكون وحدنا في المنزل ، فسيكون بإمكاني أن أتركها .

ـ بالمناسبة ، هل رأيت صديقك « سوان » ؟

ـ ولكن كلاّ ، هذا « الشارل » المحبوب جداً ، لم أكن أدري أنّه هنا ، سأحاول أن أجعله يراني .

ـ هذا شيء يدعو إلى السخرية أن يذهب حتى إلى « الأم سانت ـ أوفرت » ، قالت السيّدة « دوغلاّردون » . آه ! أعرف أنّه ذكي ، تابعت وهي تريد أن تعني بذلك أنّه دسّاس ، ولكن هذا لا شيء ، يهودي يذهب إلى منزل الشقيقة وزوجة الشقيق لرئيسي أساقفة !

أعترف بخجل بأنّني لم أكن مصدومة ، قالت الأميرة « دولُوْم » .

ـ اعرف أنّه اهتدى ، وحتى من قبله أهله وأجداده . ولكن يقال إنّ المهتدين يستمرّون متشبثين بدينهم أكثر من الآخرين ، وإنّ هذا الشيء ليس سوى خزعبلة ، هل هذا صحيح ؟

ـ لست مطّلعة على هذا الموضوع .

عازف البيانو الذي كان عليه أن يلعب مقطوعتين لـ «شوبان » ، بعد ما كان قد انتهى من عزف « البريلود » ، كان قد بدأ فجأة بـ « البولونيز » . ولكن منذ أن كانت السيّدة « دوغلاّردون » قد أبلغت ابنة عمّتها بوجود « سوان » ، لو بُعث « شوبان » حيّاً وعزف كلّ أعماله ، لم تكن السيّدة « دولُوْم » قد

تنبهّت له . كانت تشكّل جزءاً من أحد جزئي الإنسانية ، حيث الحشرية الموجودة في الجزء الآخر تجاه الناس الذين لم تعرفهم ، يحلّ محلّها الاهتمام بالناس الذين تعرفهم . مثل كثيرات من نساء « الغوبورسان ـ جرمان » ، الحضور في مكان ما ، حيث هي تكون موجودة ، لشخص من جماعتها ، وحيث على كلّ حال لم يكن لديها شيء خاص تقوله له ، كان يلفت نظرها كلياً على حساب كلّ الباقي . منذ هذه اللحظة ، وبأمل أن « سوان » سيلاحظها ، الأميرة لم تفعل ، مثل الفأرة البيضاء الأليفة حيث تقرّب منها قطعة السكّر وتعود تسحبها من جديد ، إلاّ أن تدير رأسها ، المليء بألف إشارة تواطؤ خالية من أية علاقة مع شعور « البولونيز » لـ «شوبان » ، باتجاه « سوان » وإذا كان يغيّر مكانه ، كانت تنقل ابتسامتها الممغنطة بشكل متوازٍ .

ـ « أوريان » ، لا تغضبي ، تابعت السيّدة « دوغلاّردون » التي لم يكن أبداً باستطاعتها أن تمنع نفسها عن التضحية بآمالها الاجتماعية الكبيرة وتبهر الناس يوماً من أجل لذّتها الغامضة ، الفوريّة والخاصة ، بأن تقول شيئاً سيّئاً : بعض الناس يقولون إنّ السيّد « سوان » هذا ، هو شخص من غير الممكن أن نستقبله عندنا ، هل هذا صحيح ؟

ـ ولكن . . . إنّك تعلمين جداً أنّ هذا صحيح ، أجابت الأميرة « دولُوْم » حين دعوته خمسين مرّة ولم يأتِ أبداً إلى منزلك .

ـ مغادرةً ابنة عمّها المتألمة ، انفجرت مجدّداً بضحكة حيث صدمت الناس الذين كانوا يصغون إلى الموسيقى ، ولكن لفتت

انتباه السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ، التي كانت تجلس ، مجامَلةً ، بقرب البيانو والتي كانت قد رأت الأميرة في هذه اللحظة فقط . سرور السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » تضاعف عند رؤ ية السيّدة « دولُوْم » لأنّها كانت تظنّها لا تزال في « غِرمنت » ، للعناية بوالد زوجها المريض .

ـ ولكن كيف أيتّها الأميرة ، أنت كنت هنا ؟

ـ أجل ، كنت أجلس في زاوية صغيرة ، استمعت إلى أشياء جميلة .

ـ كيف ، أنت هنا منذ مدّة طويلة !

ـ ولكن أجل ، مدّة طويلة ، بدت لي قصيرة جداً . إنّها طويلة فقط لأنّني لم أكن أراك .

السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » أرادت أن تقدّم مقعدها للأميرة التي أجابت :

ولكن أبداً . لماذا ؟ أنا مرتاحة في أي مكان ! ولكن ، قاصدة ، لكي تبرهن أكثر عن تواضعها كسيّدة مهمّة ، مقعداً صغيراً بدون ظهر .

ـ هذا « البُوف » هو كلّ ما أحتاجه . هذا يجبرني على أن أقعد جالسة . آه ! يا إلهي ، إنّني أفعل أيضاً ضجّة ، سيستخفّون بي علناً .

لمّا بدأ عازف البيانو بمضاعفة سرعة عزفه ، وعندما بلغ الانفعال الموسيقي الذروة ، كان خادم يمرّ بمرطّبات على صِينيّة ويخشخش بالملاعق ، وكما في كلّ أسبوع ، السيّدة « دوسانت

ـ أوفرت » كانت ، دون أن يراها ، تشير له بالانصراف . عروس جديدة ، كانوا قد أخبروها بأنّ امرأة شابّة مثلها لا يجوز أن يكون مظهرها غير مبالٍ ، كانت تبتسم بفعل المتعة ، وتبحث بعينيها عن سيّدة المنزل لتعبّر لها بنظرها عن شكرها لأنّها قد « فكّرت فيها » وجعلتها تحضر حفلة رائعة كهذه . ولكن بالرغم من أنّها أكثر هدوءاً من السيّدة « دوفرنكوتو » ، فلم تكن تتابع المقطوعة بدون قلق ؛ ولكنّ قلقها كان يتجّه نحو البيانو عوضاً عن اتجاهه نحو العازف ، حيث عليه كانت توجد شمعة تختلج كلّما كان يتصاعد العزف ، وكانت تخشى من أنّها إذا لم تُشعل النار ، فقد تترك بقعاً على خشب « الباليسندر » . في النهاية ، لم تعد السيّدة « دوفرونكوتو » تستطيع أن تتمالك نفسها . صعدت إلى المنصّة حيث يوجد البيانو ، متجّهة بسرعة لترفع أسطوانة الشمعدان حيث يتجمع الشمع داخلها . ولكن على الفور ، قبل أن تلامس يداها طرفها ، خلال آخر إئتلاف موسيقي ، انتهت المقطوعة وانصرف العازف . مع ذلك ، هذه المبادرة الجريئة لهذه المرأة الشابّة ، والاختلاط القصير الذي نتج عنها بينها وبين عازف البيانو ، تركت انطباعاً عامّاً وجيّداً .

ـ هل لاحظت ماذا قد فعلت هذه المرأة أيّتها الأميرة ، قال الجنرال « دوفروبرفيل » للأميرة « دولُوْم » حيث كان قد أتى ليحيّيها ، وحيث السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » كانت قد تركته للحظة . هذا شيء طريف . هل هي امرأة فنّانة ؟

ـ كلاّ ، إنها فقط السيّدة « دوكومبريمور » الصغيرة ،

أجابت الأميرة ببلاهة ، وتابعت بحرارة : أعيد عليك ما سمعته ، ليس لديّ أية فكرة عمن تكون . سمعت البعض يقول إنهم جيران السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » في الريف ، ولكن لا أظنّ أن أحداً يعرفهم . يجوز أنهم « أناس من الريف » ! على كلّ حال ، لا أعرف إذا كنتَ على معرفة واسعة بالمجتمع اللامع الذي يوجد هنا ،ولكن ليست لديّ أية فكرة عن أسماء جميع هؤلاء الأشخاص العجيبين . كيف تعتقد بأنهم يمضون حياتهم خارج سهرات السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ؟ يبدو أنّها قد أتت بهم مع العازفين والمقاعد والمرطّبات . إعترف بأنّ هؤلاء « المدعوّين من عند بيلوار » رائعون . هل حقّاً لديها الجرأة أن تستأجر هذه النكرات في كلّ أسبوع ؟ هذا ليس ممكناً !

ـ آه ! ولكن « كومبريمور » ، هو اسم أصيل وعريق ، قال الجنرال :

ـ لا أجد أيّ سوء أن يكون عريقاً ، أجابت الأميرة بجفاء ، ولكنّه على كلّ حال ليس متناغماً ، تابعت ، وهي تركّز على كلمة « تناغم » وكأنّها بين مزدوجين ، ببعض التصنّع في الحديث يتعلّق بجماعة « غِرمنت » .

ـ هل تجدين ذلك ؟ إنّها جميلة جداً ، قال الجنرال الذي لم يغب نظره عن السيّدة « دوكومبريمور » ، أليس هذا هو رأيك أيّتها الأميرة ؟

ـ إنّها تريد أن تُلفت النظر كثيراً ، أرى أنّ هذا ، عند امرأة شابّة ، هو شيء غير لطيف ، لأنّني لا أعتقد أنها تجايلني

عمداً ، أجابت السيِّدة « دولُوْم » (وهذه العبارة هي شيء خاص بـ « آل غلّاردون » وبـ « آل غِرمنت ») .

ولكن الأميرة ، ملاحظة أنَّ السيِّد « دوفروبرفيل » كان مستمراً في النظر إلى السيِّدة « دوكومبريمور » ، تابعت ، من جهة لتسيء إلى تلك ، ومن جهة أخرى لتتودَّد إلى الجنرال : « ليست لطيفة . . . لزوجها ! أنا آسفة لأنّني لا أعرفها بما أنّها تهمّك ، كنت قد عرفتك عليها » ، قالت الأميرة التي ، أكيداً ، لم تكن قد فعلت شيئاً لو كانت على معرفة بالمرأة الشابّة . « سأضطر إلى أن أودّعك ، لأنّ اليوم عيد مولد إحدى صديقاتي وعليّ أن أعيّدها ، قالت بلهجة متواضعة وصحيحة محوّلة الحفلة الاجتماعية التي ستذهب إليها ، إلى مجرّد زيارة مجاملة مملّة ، ولكن حيث هو شي هو شي اضطراري ومؤثر أن تذهب إليها . على كلّ حال ، عليّ أن أقابل هنالك « بازان » ، حيث ، أثناء وجودي هنا ، ذهب ليرى أصدقاءه الذين تعرفهم أنت ، أعتقد أنّهم يحملون اسم جسر ، « الّيينا » .

ـ كان هذا في البداية « اسم انتصار » ، أيتها الأميرة ، قال الجنرال ، ماذا تريدين ، من محارب قديم مثلي ، تابع وهو ينزع نظارّته ليمسحها ، وكأنّه يغيّر ضِماداً ، بينما الأميرة كانت تحوّل نظراتها بصورة عفويّة ، هذه النَبالة من عهد الأمبراطورية ، هي طبعاً شيء آخر ، ولكن على كلّ حال ، هو شيء جميل جداً في نوعه ، ولا يُنتظر منه أكثر من ذلك ، هؤلاء هم أناس حاربوا كالأبطال .

ـ ولكنّي أحترم الأبطال جداً ، قالت الأميرة ، بلهجة

ساخرة قليلاً : إذا لا أذهب مع « بازان » إلى منزل هذه الأميرة « دويينا » ، لم يكن أبداً لهذا السبب ، بكلّ بساطة ، لأنّني لا أعرفهم . « بازان » يعرفهم ، متمسّك بهم . أوه ! ليس مثل ما تفكّر ، ليست هي مغازلة ، ليس لي أن أعترض على هذا الشيء ! على كلّ حال ، حتى لو أردت أن أعترض ، فلن يؤدّي ذلك إلى نتيجة ! تابعت بصوت كئيب ، لأنَّ كلّ الناس كانت تعرف أنّه في اليوم الثاني من زواجها ، حيث الأمير « دولُوْم » كان قد تزوَّج ابنة عمّه الرائعة ، لم يتوقّف عن خيانتها . ولكن في النهاية ، هذه المرّة ، ليست هي الحالة ذاتها ، إنّهم أشخاص قد تعرّف عليهم منذ مدّة طويلة ، إنّه يستفيد منهم ، أرى هذا جيّداً كثيراً . في البداية ، سأقول لكَ فقط ما قاله لي عن منزلهم . . . فَكِّر أنَّ كلّ أثاثهم يعود إلى الزمن « الأمبراطوري » !

ـ ولكن ، أيّتها الأميرة ، بالتأكيد لأنّه أثاث أجدادهم .

ـ أنكر هذا ، ولكنّه ليس أقلّ قبحاً لهذا السبب . أفهم جيّداًألاّتكون لدى بعض الناس أشياء جميلة،ولكن على الأقلّ ألاّتكون مضحكة. ماذاتريد؟لاأعرف شيئاً أكثر بورجوازية من هذا الطراز المفخّم المرعب ، مع الخزائن الصغيرة ذات الأدراج برؤوس إوزّ شبيهة بالمغاطس !

ـ ولكن أعتقد أنَّ لديهم أشياء جميلة ، ومن ضمنها هذه الطاولة الشهيرة من الفسيفساء حيث عليها قد وقّعوا معاهدة . . .

آه ! أن تكون لديهم أشياء مهمّة من الناحية التاريخية ، لا أنكر ذلك عليك . ولكن لا يمكن أن يكون هذا الشيء

جميلاً . . . بما أنّه مرعب ! أنا أيضاً لديّ بعض الأشياء مثل هذه ، حيث « بازان » قد ورثها عن « آل مونتسكيُوْ » . ولكنّها موجودة في تسقيفات البيت في « غِرمنت » حيث لا يراها أحد . في النهاية ، على كلّ حال ، ليس هذا هو السؤال ، سأسرع إليهم مع « بازان » ، وسأذهب لأشاهدهم حتى في وسط تماثيلهم ونحاسهم لو كنت أعرفهم ، ولكن . . . ولكن لا أعرفهم ! أنا ، كانوا دائما يقولون لي عندما كنت صغيرة أنّه ليس من التهذيب أن أذهب عند أناس لا أعرفهم ، قالت بلهجة طفولية . هكذا ، أفعل الآن ما قد علّموني إيّاه . تصوّر هؤلاء الناس الطيّبين ، لو كانوا يرون شخصاً يجهلونه ويدخل إلى منزلهم ! يجوز أن يستقبلوني بشكل سيّء ! قالت الأميرة .

وبغنج ، جملت ابتسامتها حيث ذاك الافتراض كان قد سبّبها ، وهي تعطي لنظرها الأزرق المركّز على الجنرال تعبيراً دائماً حالماً وناعماً .

ـ آه ! أيتها الأميرة ، تعرفين جيّداً أنّهم سيكونون سعداء جداً . . .

ـ كلّا ، لماذا ؟ سألته بحيوية زائدة ، إمّا لكي لا تظهر عِلمها بأنّها من أهمّ سيّدات فرنسا ، وإمّا لكي تُسعد بأن تسمع الجنرال يقول ذلك . لماذا؟ماذاتعلم؟يجوز أنّ هذاسيكون غير سارّ أبداً بالنسبة إليهم . أنا لا أعرف ، ولكن إذا حكمت بالنسبة إلى ما أشعره ، هذا قد يزعجني أن أرى الناس الذين قد أعرفهم ، أعتقد بأنّني إذا اضطررت أن أرى أناساً لا أعرفهم ، « حتى لو

كانوا أبطالاً » ، سأصبح مجنونة . مع ذلك ، فلنرَ ، باستثناء أصدقاء قدامى مثلك حيث نعرفهم بعيداً عن ذلك ، لا أعرف إذا كانت البطولة ذات حجم باستطاعتنا أن نتنقّل به في المجتمع . هذا قد يزعجني مراراً بما فيه الكفاية أن أقيم حفلات عشاء ، ولكن لو كان عليّ أن أقدّم ذراعي لـ « سبارتاكوس » لأتوجّه إلى المائدة . . . كلّا ، فعلاً ، لن أدعو أبداً « فيرسان جيتوريكس » ليكون الرابع عشر إلى المائدة . أشعر بأنّني سأحتفظ به للسهرات الكبرى . وبما أنّني لا أحيي هذا النوع من السهرات . . .

ـ آه ! أيتها الأميرة ، أنتِ لست « غِرمنت » عبثاً . هل حقّاً تملكينها ، روح « الغرمنت » هذه !

ـ ولكن يقولون دائماً روح « الغرمنت » ، لم استطع أبداً أن أعرف لماذا . هل تعرف « آخرين » حقّاً لديهم روح ، تابعت بضحكة ترشح رنيناً وفَرَحاً ، تقاطيع وجهها مركّزة ، متزاوجة مع شبكة حيويتها ، عيناها مشعّتان ، متوهجتان بضياء ساطع من البهجة حيث ، فقط ، تجعلهما الكلمات تشعان هكذا ، وحتى لو قالتها الأميرة بالذات ، حيث كانت ثناءً على روحها أو على جمالها . أنظر ، هذا هو « سوان » الذي يبدو أنّه يحيّي « كومبريمور » هذا ، هنا . . . إنّه بقرب الأمّ « سانت ـ أوفرت » ، ألا ترى ! إسأله أن يقدّمك . ولكن عجّل ، سيذهب !

ـ هل لاحظتِ مظهره الرهيب ؟ قال الجنرال .

ـ يا « شارلي » الصغير ! آه ! في النهاية قد أتى ، بدأت

أعتقد بأنّه لا يريد أن يراني !

« سوان » كان يحبّ الأميرة « دولُوْم » كثيراً ، وايضاً ، كانت رؤيتها تذكّره بـ « غِرمنت » : وهي أرض مجاورة لـ « كومبري » . كلّ هذه البلاد التي يحبّها كثيراً ، وحيث لم يكن يذهب إليها لكي لا يبتعد عن « أوديت » . مستعملاً أساليب تتنزّه بين الفنّ واللطف والاحترام ، يعرف أنّها ستعجب الأميرة ، وحيث كان يعود إليها طبيعياً عندما يستعيد وَسَطه القديم ـ ويريد من جهة أخرى أن يعبّر لنفسه عن حنينه إلى الريف :

ـ آه ! قال بصورة غير مباشرة ، بحيث أن يكون مسموعاً في آن واحد من السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » التي كان يتحدّث معها ومن السيّدة « دولُوْم » التي كان يعينها ، ها هي الأميرة اللطيفة ! انظروا ، تعد أنت قصداً من « غِرمنت » لتصغي إلى « سان فرانسوا الأسّيزي » من « لِيست » ، ولن يكون لديها وقت ، مثل طائر صغير جميل ، إلّا أن تقطف بعض الثمار الصغيرة من شجرة الخوخ ، لتضعها على رأسها ، مع بعض العصافير ، وبعضٍ من الزعرور البرّي ؛ وستجد أيضاً بعض قطرات الندى ، وقليلاً من صقيع الفجر حيث سيجعل الدوقة تئنّ. هذا شيء جميل جداً ، يا عزيزتي الأميرة .

ـ كيف ، هل أتت الأميرة قصداً من « غِرمنت » ؟ ولكن هذا شيء رائع ! لم أكن أدري ، أنّني خجولة ، صرخت ببراءة ، السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ، التي لم تكن معتادة على نوعية هذه الروح عند « سوان » . ومدقّقة في تسريحة الأميرة : « ولكن هذا

صحيح ، هذا تقليد . . . كيف سأعبّر ، ليس الكستناء ، كلاّ ، هذه فكرة رائعة ! ولكن كيف يمكن للأميرة أن تعرف برنامجي ؟ الموسيقيون لم يكونوا قد أعلموني به أنا بالذات » .

« سوان » ، معتاداً ، عندما يكون بقرب امرأة حيث كان قد احتفظ معها بعادات من الكلام الرقيق ، أن يقول أشياء رقيقة حيث كثير من أفراد المجتمع الراقي لم يكونوا يفهمونه ، لم يتنازل ويفسّر للسيّدة « دوسانت ـ أوفرت » أنه لم يكن قد تكلّم إلاّ بصورة استعارية .

بينما الأميرة ، بدأت تقهقه ، لأنّ روح «سوان» هذه كانت محبّذة في وَسَطه ، وأيضاً ، لأنّها لم يكن باستطاعتها أن تصغي إلى مجاملة تتعلّق بها دون أن تجدها رقيقة وظريفة وساحرة جداً .

ـ ها أنذا ! مسرورة جداً ، يا « شارل » ، إذا أعجبتك ثمار الزعرور الصغيرة هذه . لماذا تحيّي هذه « الكومبريمور » ، هل أنت أيضاً جارها في الريف ؟

عندما رأت السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » أن الأميرة كانت مسرورة بحديثها مع « سوان » ، ابتعدت .

ـ ولكن أنتِ أيضاً جارتها أيّتها الأميرة .

ـ أنا ، هل لديهم قرى في كلّ مكان ، هؤلاء الناس ! كم سأحبّ أن أكون مكانهم !

ـ ليسوا هم « الكومبريمور » ، كانوا أهلها هي ؛ هي الآنسة « لوغروندان » حيث كانت تأتي إلى « كومبراي » . لا أدري إذا كنتِ تعلمين أنّك الكونتيسة « دوكومبري » وأنّ مجلس

الرهبان عليه أن يقدّم لك الضريبة ؟

ـ لا أدري ماذا يجب أن يدفع لي مجلس الرهبان ، ولكنّني أعرف أنَّ كاهن الرعيّة يستدين مني كل سنة مئة فرنك ، أكون بغنى عنها . في النهاية ، هؤلاء « الكومبريمور » لـديهم اسم مستغرب جداً . ينتهي في الوقت المناسب ، ولكن بصورة سيّئة ! قالت ضاحكة .

ـ لا يبتدىء أفضل أجاب « سوان » .

ـ فعلاً ، هذا الاختصار المزدوج ! . . .

ـ هو شخص مغتاظ جداً ومهذّب جداً ، حيث لم يجرؤ أن يصل إلى نهاية أوّل كلمة .

ـ ولكن بما أنّه لم يستطع الاستغناء عن البدء بالكلمة الثانية ، كان من الأفضل له أن ينهي الكلمة الأولى لينتهي دفعة واحدة . مِزاحنا لطيف ، يا « شارلِ » الصغير ، ولكن كم هو مؤسف أنّني لا أراك أبداً ، تابعت بلهجة مدلّلة ، إنّني أحبّ كثيراً أن أتحدّث معك . فكّر أنّني لم أكن أستطيع أن أُفهم هذا « الفروفربيل » الغبي أنّ اسم « كومبريمور » يدعو للاستغراب . اعترف بأنّ الحياة شيء رهيب . فقط عندما أراك أكفّ عن المَلَل .

ودون شكّ ، هذا لم يكن صحيحاً . ولكن « سوان » والأميرة كانا لديها الأسلوب ذاته للحكم على الأشياء الصغيرة حيث نتائجها ـ أو أسبابها ـ تتشابه في طريقة التعبير وحتى في اللفظ . هذا التشابه لم يكن يلفت النظر لأنّ لا شيء كان مختلفاً

أكثر مما كان عليه صوتها . ولكن لو استطعنا أن نحذف ، بفكرنا ، من كلمات « سوان » الرخامة التي تغلّفها ، الشاربين ، حيث بينهما تخرج الكلمات ، كان بإمكاننا أن نلاحظ أنّها هي العبارات ذاتها ، التحوّلات ذاتها ، وطابع جماعة « آل غِرمنت » بالذات . في الأشياء المهمّة ، لم تكن لدى « سوان » والأميرة الأفكار ذاتها أبداً . ولكن منذ أن أصبح « سوان » حزيناً ، شاعراً دائماً بهذا النوع من الرجفان الذي يسبق اللحظة التي سنبكي خلالها ، كانت لديه الحاجة ذاتها في أن يتكلّم عن الحزن ، كما قاتل أن يتكلّم عن جريمته . عندما استمع إلى الأميرة تقول له إنّ الحياة هي شيء رهيب ، شَعَر بذات الغبطة كما لو كانت حدّثته عن « أوديت » .

ـ أوه ! أجل ، الحياة هي شيء رهيب . يجب أن نلتقي يا صديقتي العزيزة. ما هو رائع معك ، أنّك لست فرحة . بإمكاننا أن نمضي سهرة معاً .

ـ ولكن أعتقد ذلك ، لماذا لن تأتي إلى « غِرمنت » ، حماتي ستكون في منتهى الفرح . يقال إنّ « غِرمنت » بشعة جداً ، ولكن سأقول لك إنّ هذه المنطقة تعجبني . إنّني أكره المناطق « الرائعة » .

ـ أظنّ ذلك ، هذا رائع ، أجاب « سوان » ، جميل جداً إلى حدّ ما ، كثير الحيوية بالنسبة لي ، في هذه اللحظة ، هذه منطقة توحي بالسعادة . ربّما أشعر بهذا لأنّني عشت هناك ، حيث الأشياء تكلّمني إلى حدّ كبير ! مَعَ أوّل هبّة ريح ، حيث تبدأ السنابل بالتمايل ، أشعر وكأنّ أحداً آتٍ من الوصول ، وكأنّني

سأتلقّى نبأً ما ؛ وتلك البيوت الصغيرة على أطراف المياه . . . إنّني سأكون في منتهى التعاسة !

ـ أوه ! يا « شارلي » الصغير ، كن يقظاً ، ها هي « رومبيون » الرهيبة حيث شاهدتني ، خبّئني ، ذكّرني إذاً : ماذا حصل لها ، إنّني لا أميّز ، إنّها زوّجت ابنتها أو عشيقها ، لم أعد أعلم ، ربّما الإثنين . . . ومعاً ! . . . آه ! كلاّ ، إنّني أتذكّر ، إنّها مطلّقة من أميرها . . . تظاهر بأنّك تتحدّث معي ، لكي لا تأتي وتدعوني ، هذه « البيرينيس » ، إلى العشاء . على كلّ حال إنّني مسرعة في الذهاب . إسمع ، يا « شارلي » الصغير ، لمرّة واحدة أراك ، ألا تريد أن أخطفك وأذهب بك إلى الأميرة « دوبارم » التي ستكون مسرورة جداً ، وكذلك « بازان » الذي سيلحق بي إلى هناك . لو لم تأتنا أخبارك بواسطة جدّتك . . . فكّر إنّني لا أعود أراك أبداً .

« سوان » رفض ؛ لأنّه كان قد أعلم السيّد « دوشارلوس » بأنّه عندما سيترك السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ، سيعود فوراً إلى منزله ، لم يكن مهتمّاً عندما يذهب إلى الأميرة « دوبارم » بأن يخشى من أن تفوته كلمة ، حيث كان طوال الوقت قد عاش على أمل أن خادماً ما ليسلّمه إيّاها خلال السهرة ، وربّما كان سيجدها عند حارس بنايته. هذا « السوان » المسكين ، قالت هذا المساء السيّدة « دولوم » لزوجها ، هو دائماً لطيف ، ولكنّه يبدو تعيساً جداً . ستراه ، لأنّه قد وعدنا بتناول طعام العشاء مرّة ما عندنا . أجد في الحقيقة أنّ هذا شيء مثير للسخرية ، أنّ رجلاً في ذكائه يتعذّب

من أجل شخص من هذا النوع ، وحتى أنّه ليس مهماً ، لأنّه يقول عنها «إنّها غبيّة » ، تابعت بحكمة الناس غير العاشقين ، حيث يجدون أنّ رجلاً يتمتّع بالذكاء لا يجوز أن يكون تعيساً إلاّ من أجل شخص ذي أهمية ؛ تقريباً ، مثل كأنّ الناس يستغربون أنّ شخصاً ما يتنازل ويتعذّب من الكوليرا ، بسبب شخص صغير جداً كما جرثومة صغيرة جداً بحجم الفاصلة .

كان « سوان » يريد أن يرحل ، ولكن في اللحظة التي كان خلالها سينصرف ، طلب منه الجنرال « دوفروبرفيل « أن يعرّفه على السيّدة « دوكومبريمور » ، وقد اضطر أن يدخل معه إلى الصالون ليبحثا عنها .

ـ قل لي إذاً يا « سوان » ، أفضّل أن أكون زوجاً لهذه المرأة من أن تهشّمني الوحوش ، ماذا تقول ؟ هذه العبارة « تهشّمني الوحوش » ، اخترقت بألم قلب « سوان » ، وعلى الفور ، شَعَر بحاجة إلى متابعة الحديث مع الجنرال :

ـ آه ! قال له ، هنالك قصص كثيرة وجميلة جداً حيث انتهت على هذا الشكل . . . هكذا تعلم . . . هذا البحّار حيث « ديمون دورفيل » أعاد رماده ، « لابيروز » . . . (و « سوان » كان قد شَعَر بسعادة مثل كأنّه قد تحدّث عن « أوديت ») . هذه سمة طيّبة تهمّني جداً وهي سمة « لابيروز » ، تابع بمظهر كئيب .

ـ آه ! بكلّ تأكيد ، « لابيروز » ، قال الجنرال ، هذا اسم معروف . له شارعه الخاص .

ـ هل تعرف أحداً في شارع « لابيروز » ؟ سأل « سوان »

بانفعال .

ـ لا أعرف سوى السيّدة « شونليفول » ، شقيقة هذا « الشوسبير » الطيّب . لقد أقامت لنا سهرة هزلية ذاك اليوم . هو صالون سيصبح يوماً ما أنيقاً جداً ، سترى !

ـ آه ! هي تقيم في شارع « لابيروز » . إنّه شارع ممتع وجميل ، ولكنّه حزين .

ـ ولكن كلاّ ، يبدو أنّك لم تذهب إلى هناك منذ بعض الوقت ؛ لم يعد حزيناً ، لقد بدأوا ببناء كلّ هذا الحيّ .

عندما قدّم « سوان » في النهاية السيّد « دوفروبرفيل » ألى السيّدة « دوكومبريمور » الشابّة ، رسمت ابتسامة الفرح والمفاجأة لأنّها كانت تسمع باسم الجنرال للمرّة الأولى ، كما لو أنّ أحداً قد لفظ أمامها من قبل أيّ اسم آخر إلاّ هذا الاسم ، لأنّها بسبب عدم معرفتها بأصدقاء عائلتها الجديدة ، كانت تعتقد بأنّ كلّ شخص يقدّمونه لها ، هو واحد منهم ، وكانت تعتقد أيضاً بأنّها تبرهن عن تهذيب عندما تُظهر أنّها قد سمعت عنه كثيراً منذ زواجها ، كانت تمدّ يدها بتردّد لتُظهر أيضاً نوعاً من التحفّظ ، من المفروض أن تسيطر عليه ، وحيث كان الاستلطاف الفوري هو الذي يتغلّب في النهاية . وأيضاً ، عائلة زوجها ، حيث كانت لا تزال تعتقد بأنّ أفرادها هم الناس الأكثر أهمية في فرنسا ، يقولون عنها إنّها ملاك ؛ وبالأخصّ إنّهم كانوا يفضّلون ، عندما زوّجوها ابنهم ، أن يُظهروا أن ذلك كان بسبب صفاتها وليس بسبب ثروتها الكبيرة .

ـ يبدو أنّك موسيقية بالروح ، يا سيّدتي ، قال لها الجنرال ، وهو يذكر بصورة غير مباشرة « حادثة أسطوانة الشمعدان » .

ولكن العزف قد بدأ مجدّداً ، وقد استنتج « سوان » أنّه لن يكون باستطاعته أن يغادر قبل آخر هذا الجزء الجديد من البرنامج . كان يتعذّب من ان يبقى محتَجزاً بين هؤلاء الناس ، حيث غباؤهم وسخفهم كانا يؤلمانه كثيراً ، خاصة وأنّهم كانوا يجهلون حبّه حتى لو كانوا قد علموا به ، فهم على كلّ حال غير جديرين بتقديره ، كانوا قد سخروا منه كأنّه شيء صبياني يرفضونه مثل كأنّه جنون . كانوا يصوّرونه وكأنّه حالة شخصية حيث لم تكن موجودة إلاّ لديه بالذات ، وحيث لا شيء من خارجه باستطاعته ان يؤكّد وجوده ، كان يتعذّب بنوع خاص ، لدرجة أنّ ، حتى أصوات آلات الموسيقى كانت تنعكس عليه وتوسّع رغبته في الصراخ ، ومن إطالة منفاه في هذا المكان ، حيث « أوديت » لن تأتي أبداً ، حيث لا أحد ، حيث لا شيء كان يعرفها ، وحيث كانت غائبة كليّاً .

وفجأة ، شعر وكأنّها دخلت ، وقد جعله هذا التصور يحسّ بأنّه يتمزّق من الألم ، لدرجة انّه اضطرّ إلى ان يضع يده على قلبه . لأنّ الكمان كان قد صعد إلى اعلى النغمات ، حيث كان قد استمرّ كما لانتظارٍ ما ، انتظار كان لا يتوقف خلاله عن عزفها ، وبحالة حماس كانت تحيطه عند قد تصوّر سبب انتظاره هذا يقترب منه ، قائماً بجهد يائس ليحتفظ باستمراروجودها حتى تصل ،

يستقبلها قبل أن تختفي ، وأن يحتفظ لها أيضاً ، في هذا الوقت من أواخر قدراته ، بالطريق مفتوحة لكي تستطيع أن تعبر ، كما ندعّم باباً لئلا يقع . وقبل ان يكون لدى « سوان » الوقت الكافي ليستوعب ، وأن يقول في نفسه : « هذه هي عبارة « سونات » « فينتوي » الصغيرة ، علينا ألاّ نسمعها ! » كلّ ذكرياته عن زمنٍ كانت تعشقه خلاله « أوديت » ، والذي كان قد نجح حتى اليوم في أن يخفيها في أعماق ذاته ، منخدعة بهذا الشعاع المفاجىء من زمن العشق حيث اعتقدت بأنّه عاد ، وقد استيقظت من جديد ، وبرؤ يا واحدة ، صعدت ، لتغنّي له بوله ، دون شفقة على تعاسته الحاليّة ، نغمات السعادة المنسيّة .

عوضاً عن عباراتهالمجرّدة (مكرّر) مثل : « الأوقات الذي كنت خلالها سعيداً » ، الأوقات حيث كنت خلالها محبوباً » ، حيث كان قد لفظهامراراًحتى الآن،ودون أن يتعذّب كثيراً،لأن عقله لم يكن قد خبّأ من الماضي إلاّ مقاطع مزعومة ، حيث لم تكن محتفظة بشيء منها ، مستعيداً كلّ الذي قد رسّخ للأبد الجوهر الخاص والمتبخّر لهذه السعادة الضائعة ؛ رأى كلّ شيء من جديد : تويجات أزهار الأقحوان المجعّدة والمغطّاة بالثلج ، حيث قد رمتها له في عربته ، التي كان قد احتفظ بها على شفتيه ـ العنوان البارز لـ « البيت المذهّب » على الرسالة حيث قد قرأ : « يدي ترتجف جداً وأنا أكتب لك » ـ تقطيب حاجبيها عندما قالت له بتوسّل: « ألن تتأخر كثيراً عندما تؤشرلي ؟ » ، تنشّق رائحة مكواة الشعر حيث كان المزّين يرفع له بواسطتها شعره ، حينما كان

« لوريدون » يذهب ليأتي بالخيّاطة الصغيرة ، أمطار العواطف التي هطلت مراراً كثيرة هذا الربيع ، العودة الباردة في عربته « الفيكتوريا » ، تحت ضوء القمر ، كلّ حلقات العادات الفكرية ، ذات التأثير الموسمي ، ذات الاستجابات الجلديّة ، حيث كانت قد انتشرت على أسابيع متتالية شبكة موحّدة حيث داخلهاجَسَدهكان منجذباً إليها من جديد . في هذه الأوقات ، كان يلبّي رغبة شهوانية عندما يكتشف ملذّات الناس الذين يعيشون من الحبّ . كان يعتقد بأنّه سيكتفي بهذا ، بأنّه لن يكون مضطّراً لأن يكتشف العذاب ؛ كم تمثّل الآن جاذبية « أوديت » شيئاً قليلاً بالنسبة إلى هذا الرعب الرهيب ، حيث كان يمدّده مثل هالة مزدوجة ، هذا القلق الهائل الناتج عن عدم معرفته ، في كلّ لحظة ، ماذا قد فعلت ، وعن ألاّ يمتلكها في كلّ مكان وأبداً ! مع الأسف ، تذكّر اللهجة حيث كانت قد صرخت من خلالها :
« ولكن باستطاعتي أن أراك دائماً ، إنّني دائماً لك ! » هي التي لم تكن أبداً حرّة ! الاهتمام ، الرغبة في اكتشاف حياته والتوق المتقد إلى أن يقبل ـ خائفاً ، بالعكس ، في ذاك الوقت ، كما لو أنه سبب إزعاج مملّ له ـ ويسمح لها بالدخول ؛ كما قد كانت مضطرة لأن تتوسّله ليقبل بأن يرافقها إلى منزل « آل فردوران » ، وعندما كان يأتي بها إلى منزله ، مرّة في الشهر ، كم كانت تضطر ، قبل أن يقنع بذلك ، أن تكرّر له المتعة التي تنتج عن هذه العادة بأن يلتقيا يومياً ، حيث كانت تحلم بها ، عندما لم تكن تبدو في نظره سوى هَمّ مملّ ، ومن ثمّ حيث قد ملّت هذه العادة وتخلّصت منها ، أمّا

بالنسبة إليه ، فقد أصبحت حاجة موجعة لا تقاوَم . لم يكن يعتقد بأنّه سيكون محقّاً ، عندما رآها للمرّة الثالثة ، وعندما كانت تكرّر له : « ولكن لماذا لم تكن تسمح لي بأن آتي مرّات أكثر ؟ » ، كان قد أجاب مبتسماً بتودّد : « لأنني أخشى العذاب » . الآن ، مع الأسف ! كان يحصل أيضاً ، أحياناً ، أنّها تكتب له من مطعم أو من فندق على أوراق مطبوع عليها اسم المكان ، ولكنّها مثل حروف النار التي كانت تلهبه . « إنّها مُرسلة من فندق « فوييمون » ؟ ماذا يا ترى ذهبت لتفعل هناك ؟ مع مَن ؟ ماذا جرى هناك ؟ » تَذَكَّر مصابيح الغاز حيث كانوا يطفئونها في « جادّة الإيطاليين » ، عندما كان قد قابلها ، ولم يكن لديه أيّ أمل وسط الظلال التائهة ، في ذاك الليل ، الذي قد بدا له روحانياً بعض الشيء ، والذي بالفعل ـ ولكن منذ ذاك الوقت ، حيث لم يكن مضطراً حتى أن يسأل نفسه إذا كان سيزعجها فيما لو بحث عنها ، عندما كان يلتقيها من جديد ، بقدر ما كان متأكّداً من أنّها ستكون سعيدة جداً بأن تراه وتعود معه ـ كانت تنتمي حقّاً إلى عالم سري حيث لا يكون باستطاعتنا أن نعود إليه عندما تصبح أبوابه مغلقة . « سوان » أبصر ، جامداً أمام هذه السعادة المستعادة ، تعيساً ، أوحى له بالشفقة لأنّه لم يعرفه على الفور ، بحيث إنّه اضطَر إلى أن يخفض بصره لكي لا يلاحظ أحد أنّهما مليئتان بالدموع . كان هو بالذات !

عندما اكتشف ذلك ، زالت شفقته ، ولكن بدا حسوداً من ذاته الأخرى ، حيث كانت « أوديت » قد أحبّتها . حسوداً من

هؤلاء حيث قال لنفسه عنهم مراراً دون أن يتعذّب كثيراً ـ « ربّما تحبّهم » ، الآن ، حيث استبدل فكرة الحبّ الغامضة ، والخالية من العشق ، بتويجات أزهار الأقحوان و « عنوان » « البيت المذهب » ، حيث هما ، كانا مسكونين به . من ثمّ ، عندما تصاعد ألمه ، مرّر يده على جبينه ، وقعت نظّارته ومسح زجاجتها . ودون شكّ ، لو كان قد شاهد نفسه في هذه اللحظة ، كان قد أضاف لمجموعة هؤلاء الذين لاحظهم ، النظّارة التي كان ينقلها لما لو أنها فكرة مزعجة ، وعلى زجاجها المغشّى ، حيث بمنديله كان يحاول أن يمحي الهموم .

يوجد في الكمان ـ إذا لم نرَ الآلة ، لا نستطيع أن ننسب ما نسمعه إلى صورتها ، التي تغيّر الصوت ـ لهجات تتشابه إلى درجة كبيرة مع بعض الأصوات النسائية المنخفضة ، حيث يتهيّأ لنا أنّ مغنيّة أضيفت إلى الآلات . نرفع أعيننا ، لا نرى سوى بيوت ثمينة للآلات الموسيقية ، تشبه العلب الصينية ، ولكن بعض المرّات ، ننخدع أيضاً بنداء صفارة الإنذار الذي يخيّب أملنا ؛ ومرّات أيضاً ، يتراءى لنا أنّنا نصغي إلى جنّي أسير يتخبّط في عمق « علبة معرفته » ، المسحورة والمرتعشة ، مثل شيطان داخل جرن الماء المقدّس ، بعض المرّات اخيراً ، هذا شيء في الهواء ، كأنّه مخلوق نقيّ من عالم آخر ، يعبر وهو يفكّك رسالته الخفيّة !

كأنّ العازفين ، كانوا ينفّذون الشعائر المطلوبة من العبارة الصغيرة ، لتظهر أكثر ممّا كانوا يعزفونها ، ويستعملون التعاويذ المفروضة لينالوا ويطيلوا لبضع لحظات أعجوبة استعادتها .

« سوان » الذي لم يستطع أن يراها وكأنّها من عالم « ما فوق البنفسجي » ، والذي كان يتذوق التحوّل المنعش من خلال عمى » أصابه بصورة موقّتة عندما قد اقترب منها ، كان يشعر بأنّها كانت موجودة ، مثل إلهة راعية ونجيّة لحبّه ، ولكي تتمكّن من الوصول إليه أمام الجمهور وتنفرد به لتحدّثه ، كانت قد ارتدت قناع هذا المظهر الرنّان . كانت تعبر ، خفيفة ، مهدّئة وناعمة مثل العطر ، قائلة له ماذا تريد ، كان يتقصّى كلّ الكلمات ، آسفاً على أنّها تتطاير بهذه السرعة . كان دون أن يشعر ، يرسم بشفتيه إشارةً ، وكأنّه يقبّل الجسد المنسجم والعابر أثناء مروره . لم يكن يشعر بنفسه أبداً أنّه منفي ووحيد لأنّها ، هي التي تتوجّه إليه ، كانت تحدّثه بصوت منخفض عن « أوديت » . لأنّه لم يكن يشعر ، كما في الماضي ، بأنّه و « أوديت » مجهولان من العبارة الصغيرة ، حيث كانت مراراً قد عاشت سعادتهما ! ولكن مراراً أيضاً ، كانت قد نبهّته إلى أنّها سريعة العطب . وحتى ، عندما كان يشعر في ذاك الوقت ، بشيء من الألم في ابتسامتها ، بنبرة في صوتها النقي والمتحرّر من الأوهام ، كان اليوم يجد فيه ، نعمة اقتناع تلامس بعض السعادة . عن هذه الأحزان التي كانت تحدّثه عنها في الماضي ، وحيث كان يشاهدها مبتسماً ودون أن تؤثر عليه ، كانت « أوديت » تضعها في مجرى حياته الملتوي والسريع ، عن هذه الأحزان حيث أصبحت الآن أحزانه ، دون أن يكون لديه أيّ أمل في التخلّص منها ، والتي تبدو كأنّها تقول له ، كما في الماضي ، عن سعادته : « ما هذا ؟ كل هذا لا يساوي شيئاً » . أفكار « سوان » اتجهت للمرّة الأولى ، وثّابة

من خلال الشفقة والحنان ، نحو هذا « الفنتوي » ، هذا الشقيق المجهول والنبيل الذي قد تعذّب كثيراً هو أيضاً ، ترى ، كيف كانت حياته ؟ من عمق أيّة أحزان كان قد استمدّ هذه القوّة الإلهية ، هذه القدرة اللامتناهية على الخَلق ؟ عندما كانت العبارة الصغيرة تحدّثه عن عذاباته الباطلة ، كان « سوان » يلاقي نوعاً من العزاء ، في تلك الحكمة بالذات ، حيث كانت قد بدت له لا تطاق قبل قليل ، عندما كان يتراءى له بأنّه يقرأها على وجوه اللامبالين حيث كانوا يعتبرون حبّه هذياناً لا أهميّة له . لأنّ هذه العبارة الصغيرة ، بالعكس ، مهما كانت وجهة نظرها في المدّة القصيرة لحالات النفس هذه ، كانت ترى شيئاً ما ، ليس مثلما كان يفعل كلّ هؤلاء الناس ، أقلّ رصانة من الحياة الإيجابية ، ولكن بالعكس أرقى كثيراً منها ، حيث هي فقط تستحق أن يُعبَّر عنها . هذا السحر الحزين الخاصّ ، كان يحاول أن يقلّدهم ، يخلقهم من جديد ، وحتى عمق جوهرهم ، حيث هم ، بالرغم من صعوبة ملامسته ، يبدون دون أهمية لأيّ شخص آخر ما عدا الشخص الذي يشعر به ، كانتالعبارة الصغيرة قد التقطته وجعلته مرئياً . لهذه الدرجة أنّها كانت تجعلهم يعترفون بأهميتها ويتذوّقون عذوبتها الإلهية ، لكلّ هؤلاء الحاضرين ذاتهم ـ لو كانوا فقط موسيقيين إلى حدّ ما ـ الذين في ما بعد سيتجاهلونه ، في كلّ حبّ خاص سيرونه يولد بقربهم . دون شكّ الصيغة حيث كانت قد قدمتها لهم ، لم يكن ممكناً التعبير عنها بطريقة التعقّل . ولكن منذ أكثر من سنة حيث ، كاشفة له الكثير من غنى روحه ، حبّه للموسيقى كان لمدّة قليلة قد وُلد معه ،

« سوان » كان يعتبر المواضيع الموسيقية وكأنّها أفكار حقيقية ، من عالم آخر ، من نوعٍ آخر ، أفكار مغشّاة بالظلمات ، مجهولة ، مغلقة في وجه الذكاء ، ولكن ليست هي ، لهذا السبب ، وبكلّ تأكيد ، أقلّ تمايزاً : إحداها عن الأخرى ، غير متساوية فيما بينها قيمة ومعنى . وعندما ، بعد سهرة « آل فردوران » ، طلب أن يعزفوا له مجدّداً العبارة الصغيرة ، كان قد بحث كيف كانت مثل العطر أو المداعبة ، تراوغه ، تحيط به ، مكتشفاً أنّ هذا الشيء كان بسبب المدى ما بين العلامات الموسيقية الخمس التي كانت العبارة تتألّف منها ، ومن خلال التكرار المستمرّ لاثنتين منها ، ينبت هذا الشيء الذي يسبّب شعوراً بالنعومة المنقبضة والباردة ، ولكن في الحقيقة كان يعلم أنّه يستدلّ هكذا ، ليس على العبارة نفسها ، ولكن على قيم بسيطة ، كان قد استبدلها لملاءمة ذكائه بالكيان السّري الذي كان قد شَعَر به ، قبل أن يتعرّف على « آل فردوران » ، في تلك السهرة ، حيث استمع للمرّة الأولى إلى « السونات » . كان يعلم أنّ ذكرى البيانو هي بالذات التي قد تفسد التصميم ، حيث من خلاله كان ينظر إلى أشياء الموسيقى ، وأنّ المجال المهيّأ للموسيقي ، ليس هو « صف ملامس » حقير ، مكوّنٍ فقط من سبع علامات موسيقية ،ولكنّه « صَف ملامس » لا حدود له ، غيره ، تقريباً ، كلّه مجهول ، حيث فقط هنا وهناك ، منفصلة بظلمات سميكة غير مكتشفة ، بعض الملايين من لمسات الحنان ، من العشق ، من الشجاعة ، من الصفاء ، وهي التي تكوّنه ، كل واحدة منها مختلفة عن مثيلاتها بنسبة اختلاف عالمٍ عن عالمٍ آخر ،

مكتَشَفَة بواسطة بعض كبار الفنّانين الذين يقدّمون لنا هذه الفائدة ، ميقظين في دواخلنا الموضوع المناسب الذي قد اكتشفوه ، ومظهرين لنا أيّ غنى ، أيّ تنوّع ، يخبّىء في غفلة منّا هذا الليل العظيم لأرواحنا الذي لم يخترقه أحد ، يوحي باليأس ، وحيث نعتقده فراغاً وزوالاً . « فينتوي » كان أحد هؤلاء الموسيقيين . وعبارته الصغيرة ، بالرغم من أنّها كانت تقدّم مسافة غامضة للعقل ، كنّا نشعر بمحتوى مكتنز إلى حدٍّ كبير ، واضح بمقدار كبير ، حيث كانت تمنحها قوّة جديدة ومبتكرة جداً بحيث إنّ هؤلاء الذين كانوا قد استمعوها ، كانوا يحتفظون بها في أنفسهم ، بالصورة ذاتها كما لو كانت هي تعابير فكرية . كان « سوان » يلتجىء إليها كما لو إلى مفهوم للحبّ والسعادة ، حيث على الفور كان يعرف بماذا تتميّز ، كما كان يعرف ذلك بالضبط عن « الأميرة دوكلاف » أو عن « رينه » ، عندما كان إسماهما يعبران ذاكرته . وحتى عندما لم يكن يفكّر في العبارة الصغيرة ، كانت توجد مستترة في ذهنه بالصورة ذاتها ، كما بعض المبادىء الأخرى بالتساوي ، كما تَصَوُّرٌ عن الضوء ، عن الصوت ، عن النتوء ، عن الملذات الجسديّة ، التي هي المكاسب الفنيّة ، حيث يتنوّع ويتزيّن بها عالمنا الداخلي . ربّما سنفقدها ، ربّما ستمحّى ، إذا عدنا إلى اللاشيء ! ولكن طالما نحن أحياء ، لا نستطيع أن نتجاهلها ، كما ليس باستطاعتنا أن نفصل لأيّ شيء موجود : إنّنا مثلاً لا نستطيع أن نشكّ بضوء المصباح الذي نضيئه أمام الأشياء التي تتحوّل في غرفتنا ، وحيث إنه حتى فكرة الظلام قد زالت من هنا ، عبارة « فينتوي » ، كما هذا

الموضوع لـ « تريستان » مثلاً ، الذي يمثّل لنا أيضاً نوعاً من الامتلاك العاطفي ، كانت قد تزوجت وضعنا الزائل ، أخذت شيئاً ما إنسانياً مؤثراً بعض الشيء . مصيره كان مرتبطاً في المستقبل ، في حقيقة روحنا حيث كانت أحد الزخارف الأكثر خصوصيّة ، الأكثر تنوّعاً . ربّما الزوال هو الحقيقة ، وكلّ أحلامنا ليست موجودة ، ولكن عندئذٍ نشعر بأنّه لا بدّ من أنّ هذه العبارات الموسيقية ، هذه المبادىء التي توجد بالنسبة إليه هي لا شيء أيضاً . سنهلك ، ولكن لدينا رهائن هؤلاء الأسرى المؤلّهين الذين سيتابعون مصيرنا . سيصبح الموت معهم أقلّ مرارة ، ممزوجاً بالمجد بعض الشيء ، وربّما أقلّ احتمالاً .

لم يكن « سوان » إذا على خطأ عندما كان يؤمن بأنّ عبارة « السونات » موجودة فعلاً . بالتأكيد ، كانت إنسانية من خلال وجهة النظر هذه ، كانت تنتمي رغم ذلك إلى نظام مخلوقات روحانية ، حيث لم نكن نراها أبداً ، ولكن نتعرّف إليها بكلّ بهجة عندما ، رحّالة ما غير مرئي ، يتوصّل أن يتمسّك بإحداها ، وأن يأتي بها ، من العالم الإلهي حيث بإمكانه أن يصل إليه ، ويجعلها تسطع بعض لحظات فوق عالمنا . هذا ما قد فعله « فينتوي » للعبارة الصغيرة . كان « سوان » قد شَعَر بأنّ المؤلّف كان قد اكتفى ، مع آلاته الموسيقية ، بأن يكشفها ، بأن يجعلها مرئية ، بأن يحترم ويتبع التصميم كثيراً ، بيدٍ حنونة ، حذرة ، دقيقة وأكيدة ، حيث إن الصوت كان ينخفض في كلّ لحظة ، مختفياً ليرسم ظلاً وراءه ، يحيا مجدّداً عندما كان يحاول أن يركّز على تسوير نطاقها . لم يكن يخطىء

« سوان » عندما كان يؤمن بالوجود الحقيقي لهذه العبارة ، لأنَّ البرهان على ذلك أنّ كلّ هاوٍ مرهف الإحساس قليلاً ، كان على الفور قد اكتشف الخداع ، لو أنّ « فينتوي » كانت لديه مقدرة ضعيفة ليرى ويعبّر عن الأشكال . كان قد حاول أن يخفي ، وهو يضيف هنا وهناك ملامح من ابتكاره ، نقطاً في رؤ يته أو ضعفاً في يده .

كانت قد اختفت . كان يعلم « سوان » أنّها ستظهر من جديد في نهاية آخر المقطع ، وبعد مقطع طويل ، حيث عازف البيانو عند السيّدة « فردوران » كان يمر عليها دائماً دون أن يلعبها . كانت موجودة هنا أفكار رائعة ، حيث « سوان » لم يكن قد ميّزها في الاستماع الأوّل ، وحيث كان يكتشفها الآن ، وكأنّها ، في أعماق ذاكرته ، قد تخلّصت من الأقنعة الموحّدة والمستعارة للحداثة ! كان « سوان » يصغي إلى المواضيع المتفرّقة التي كانت ستدخل في تكوين العبارة ، كما المقدّمات للنتائج الضرورية ، وكان يشاهد مراحل تكوينها . « أية جرأة نابغة كهذه ، ربّما يقول في نفسه هي جرأة « لافوازييه » هذا ، جرأة « أومبير » هذا ، جرأة « فينتوي » ، يختبر ، يكتشف القوانين السّرية لقدرة مجهولة ، ويمرّر من خلال الشيء اللاَّمُكتشف ، تجاه الهدف الممكن الوحيد ، العربة المجرورة غير المرئية حيث يعتمد عليها ولن يراها أبداً ! » الحوار الجميل الذي أصغى إليه « سوان » بين البيانو والكلمات في بداية آخر مقطوعة ! حَذْف الكلمات الإنسانية ، عوضاً عن أن تترك النزوات تسيطر ، كما كنّا نعتقد ، كانت قد حذفتها ؛ اللغة المحكية لم تكن كما الآن

ضرورية بهذه الشدّة ولم تكن أبداً قد عرفت بهذه الحدّة حقيقة الأسئلة الملائمة ووضوح الأجوبة . في البداية البيانو المتوحّد ، قد اشتكى ، مثل عصفور هجرته صديقته ؛ سمعه الكمان ، أجابه وكأنّه على شجرة مجاورة . كان : كأنّها بداية الخليقة ، كما لم يوجد بعد على الأرض غيرهما ، أو بالأحرى في هذا العالم المغلق على كل شيء آخر ، مبني بمنطق خالق ، وحيث لن يكون أبداً سوى هذين الاثنين : هذه « السونات » . هل هي عصفور ، هل هي روح ناقصة بعد للعبارة الصغيرة ، هل هي جنيّة ، هذا المخلوق غير المرئي والنائح حيث البيانو في ما بعد كان يعيد الأنين بحنان؟ كانت صرخاته مفاجئة بمقدار كبير ، حيث أنّ عازف الكمان كان مضطراً أن يرمي بنفسه على القوس ليتلقّاها . يا له من عصفور رائع ! كان العازف يبدو وكأنّه يريد أن يسحره ، أن يجعله أليفاً ، أن يستميله . حينذاك ، كان قد عبر روحه . حينذاك العبارة الصغيرة المردّدة كانت ترتعش : كأنّه « وسيط جسد » عازف الكمان الممسوس حقاً من الشيطان ! كان « سوان » يعرف أنّها ستتكلّم مرّة أخرى . وكانت شخصيته قد ازدوجت إلى حدّ كبير : حيث انتظار اللحظة المداهمة ، عندما سيجد نفسه أمامها ، قد هزّه من خلال إحدى شهقاته ، كما يحدثه فينا بيت شِعر جميل أو نبأ حزين ، ليس عندما نكون منفردين ، ولكن عندما نخبرهما إلى أصدقاء ، ونكتشف كما لو أنّنا شخص آخر أنّ التأثّر المحتمل يحرّك عواطفهم . لاحت مجدّداً ولكن هذه المرّة لتعلق في الهواء ولتعزف للحظة فقط ، وكأنّها ثابتة ، ولتنقضي في ما بعد . هكذا « سوان » لم يكن يفقد شيئاً من الوقت

القصير جدّاً حيث كانت ستتوسّع . كانت بعد هنا مثل فُقاعة متلوّنة بألوان قوس قزح وحيث استمرّت هكذا . كما قوس قزح ، تتضاءل نضارته ، يخف ثمّ يرتفع ، وقبل أن ينطفىء ، يوهج لحظة ما كما لم يكن يفعل هذا أبداً من قبل : إلى اللونين ، اللذين كانت قد جعلتهما يظهران حتى الآن ، مضيفةً أوتاراً أخرى مختلفة الألون ، كلّ تلك التي ينكسر عبرها الضوء . جعلتها تغني . لم يجرؤ « سوان » على التحرّك ، كان يودّ أن يجعل الآخرين أيضاً مثله ، وكأنّ أقلّ حركة ، من الممكن أن تسيء إلى الروعة الروحية المبهجة والدقيقة جداً ، التي كان معرّضة للاختفاء . لا أحد ، حقّاً ، كان يفكّر بأن يتكلّم . الكلمة الفائقة الوصف لشخص غائب ، ربّما لميت (« سوان » لم يكن يعلم إذا كان « فينتوي » لا يزال على قيد الحياة) ، وهي ترتفع فوق شعائر المحتفلين ، كانت تكفي أن تخيّب انتباه ثلاثمائة شخص ، وتجعل من هذه المنصّة ، حيث روحٌ ما كانت هكذا مستعادة ، أحد أنبل المذابح ، التي بإمكانها أن تقيم احتفالاً لا يوصف ، وحيث عندما كانت العبارة الصغيرة قد تفكّكت في النهاية ، تتطاير ممزّقة في المواضيع التالية التي كانت قد أخذت مكانها ، لو أنّ « سوان » قد انفصل في اللحظة الأولى عندما رأى الكونتيسة « دومونتيرنيدير » ، المشهورة ببساطتها تنحني تجاهه لتخبره عن انطباعاتها ، حتى قبل أن تنتهي « السونات » ، لم يكن باستطاعته أن يتمالك نفسه عن الضحك ، وأن يلاحظ أيضاً معنى عميقاً لم تلاحظه ، في الكلمات التي استعملتها . مندهشة ببراعة العازفين ، صرخت الكونتيسة متوجّهة إلى « سوان » : « هذا شيء

رائع ، لم أكن أرى أبداً شيئاً عنيفاً لهذه الدرجة . . . » ولكن وسواس الدقّة جعلها تصحح هذا الادّعاء الأوّل ، أضافت بحذر : « لم أكن أرى أبداً شيئاً عنيفاً لهذه الدرجة . . . منذ الطاولات الدوّارة ! »

منذ هذه السهرة ، أدرك « سوان » أنَّ شعور « أوديت » تجاهه لن يعود من جديد ، وأنَّ أمله بالسعادة لن يتحقّق أبداً . وخلال الأيّام ، حيث بالصُدفة ، كانت لا تزال لطيفة وحنونة معه ، وإذا كانت قد أظهرت قليلاً من الاهتمام به ، كانت تبدو له هذه العلامات وكأنّها عودة بسيطة إليه ، مع عناية ممزوجة بالحنان والشكّ ، مع فَرَحٍ يائس لأولئك الذين يقنون بصديق وصل إلى الأيّام الأخيرة من مرض مستعصٍ ، يرون ، وكأنّها أعمال مهمّة : « البارحة ، قام بنفسه بمراجعة حساباته ، وهو بالذات الذي لاحظ خطأً في الجمع حيث كنّا نحن قد قمنا بذلك ؛ تناول بيضة بمتعة ، إذا استطاع أن يهضمها جيّداً ، سنجرّب غداً بقطعة من الضلع » . بالرغم من أنّهم يعرفون أنّ كلّ هذا الشيء لا قيمة له عشيّة موت مؤكّد . «سوان»كان متأكداًدون شكّ من أنه لوكان قدعاش الآن بعيداً عن « أوديت » ، كانت قد أصبحت في نظره دون أهمية ، بحيث إنّه كان قد شَعَر بسرور لو أنّها غادرت باريس إلى الأبد ؛ كانت لديه الجرأة إذاً على أن يستمرّ في باريس ؛ ولكن لم تكن لديه الجرأة على أن يغادرها .

كان قد فكّر مراراً بهذا الأمر . الآن . حيث قد بدأ من جديد دراسته عن « فيرمير » ، كان بحاجة إلى أن يعود على الأقلّ لبضعة

أيّام إلى « لاهاي » ، إلى « دريسد » ، إلى برنسويك » . كان مقتنعاً بأنّ « تواليت دوديان » التي كان قد اشتراها « موريزويس » في مبيع « غولد شميت » كما لو أنها من « نيقولا ماوس » ولكنّها في الحقيقة كانت لـ « فيرمير » . وكان يودّ أن يدرس اللوحة في مكانها ليدعم اقتناعه . ولكن أن يغادر باريس في الوقت حيث تكون « أوديت » موجودة فيها ، وحتى عندما تكون غائبة ـ لأنّ في أماكن جديدة حيث العادة لا تكون قد أضعفت الشعور ، نغمس ، ونحيي مجدّداً وجعاً ـ كان هذا بالنسبة إليه شيئاً أليماً ، حيث إنّه لم يكن يستطيع التفكير به باستمرار ، إلاّ أنّه كان يدرك استحالة تحقيقه . ولكن كان يحصل أثناء نومه أنّ نيّة السَفَر كانت تستيقظ في ذاته ـ دون أن يتذكّر أنّ هذا السَفَر كان مستحيلاً ـ وكانت تتحقّق خلال رحيله في الأحلام . ذات يوم ، حلم بأنّه كان مسافراً لمدّة سنة ؛ منحنياً على باب عربة سكة الحديد باتجاه شاب ، كان يودّعه باكياً على رصيف المحطّة ، « سوان » كان يحاول إقناعه بالسَفَر معه . ارتجّ القطار ، أيقظه القلق . . . وتذكّر أنّ سَفَره كان حلماً ، وأنّه سيرى « أوديت » هذا المساء بالذات ، غداً ، وكلّ يوم تقريباً . عندئذٍ ، وحيث كان لا يزال متأثراً بحلمه ، بارك الظروف الخاصّة التي قد جعلته مستقلاً ، وحيث بسببها كان بإمكانه أن يبقى بالقرب من « أوديت » ، وأن ينجح أيضاً في جعلها تسمح له برؤيتها بعض المرّات ؛ ومراجعاً كلّ هذه الحسنات : مكانته ـ ثروته ، حيث كانت بحاجة إليها مراراً كثيرة لكي لا تتراجع أمام انقطاع (ولديها حتّى ، يقال ، نيّة مبيّتة في أن يتزوّجها) ـ ، تلك الصداقة مع السيّد

« دونشارلوس » التي في الحقيقة لم تكن قد جعلته يحصل على أية إيضاحات بالنسبة إلى « أوديت » ، ولكنّها كانت تعطيه عزاءً في أن يشعر بأنّها كانت تستمع بعض المرّات إلى كلام عنه مثير للزهو من قِبل هذا الصديق المشترك الذي تقدّره كثيراً ـ ، وحتى ذكاؤه في النهاية الذي كان يستعمله كلّياً وكلّ يوم ليدبّر حيلة جديدة ، حيث يصبح وجوده ، إذا لم يكن ممتعاً ، فعلى الأقلّ ضرورياً بالنسبة إلى « أوديت » ـ ، فكّر بما قد يصبح عليه لو كانت كلّ هذه الأشياء لا وجود لها ، وبأنّه لو كان مثل آخرين عديدين ، فقيراً ، وضيعاً ، خالياً من أيّة قيمة ، مضطراً إلى أن يرضى بأيّ عمل ، أو مرتبطاً بأهل أو بزوجة . . . كان قد اضطر إلى أن يترك « أوديت » ، وهذا الحلم ، حيث الرعب كان لا يزال يسكنه ، كان من الممكن أن يتحقّق . قال في نفسه : « لا نعرف سعادتنا . لسنا أبداً تعساء بالمقدار الذي نعتقده » . ولكنّه اعتبر أن هذه الحياة كانت مستمرّة منذ سنوات عديدة ، وكلّ ما يستطيع أن يتأمّله هو أن تستمرّ بعد ، وأنّه قد يضحّي بأعماله ، بملذّاته ، بأصدقائه ، وفي النهاية بكلّ حياته من أجل انتظارٍ يومي للقاء لن تنتج عنه أية سعادة . تساءل ، إذا لم يكن على خطأ ، وإذا كانت الظروف التي نمّت علاقته ومنعت الانفصال عن « أوديت » لم تكن قد أضرت بمصيره ، وإذا كان الشيء الذي يتمنّاه ، لم يكن هو غير الذي لم يكن قد حصل إلاّ في الحلم : سَفَره ؛ قال في نفسه إنّنا لا نعرف تعاستنا ، لسنا أبداً سعداء بالمقدار الذي نعتقده .

مرّات ، كان يتأمّل بأنّها ستموت دون عذاب ، في حادث ،

هي التي كانت في الخارج ، في الشوارع ، على الطرقات ، من الصباح إلى المساء . وعندما تعود سليمة معافاة ، كان يعجب من أن الجسد الإنساني هو طيّع وقويّ بمقدار كبير ، وبإمكانه أن يصدّ باستمرار وأن يعطّل المخاطر التي تحيطه (وحيث « سوان » كان يجدها لا تحصى منذ أن قدّرتها أمنيته الخفيّة) والذي يسمح عندئذٍ للناس بأن ينصرفوا كلّ يوم ، وتقريباً دون معاقبة ، للقيام بأعمالهم الكاذبة ، لمطاردتهم الملذّات . كان « سوان » بأنّه قريب يشعر من قلبه ، هذا المحمّر الثاني » الذي كان يحبّ صورته الزيتية لـ « بلليني » وحيث ، عندما شعر بأنّه قد أصبح عاشقاً جدّاً لإحدى زوجاته ، طعنها لكي ، يقول ببساطة كاتب سيرة حياته البندقاني ، يتمتع مجدّداً بحريّة تفكيره . ومن ثمّ كان يغضب من كونه لم يفكّر إلاّ بنفسه ، وقد بدت له العذابات التي تحمّلها أنّها لا تستحق أية شفقة ، لأنّه هو بالذات لم يكترث مطلقاً بحياة « أوديت » .

بما أنّه لم يكن بإمكانه أن يفترق عنها ، على الأقلّ ، بشكل نهائي ، لو كان قد رآها بشكل مستمرّ ، كان من الممكن أن يهدأ ألمه ، وربّما أن ينطفىء حبّه أيضاً . ولأنّها لم تكن تريد أن تغادر باريس أبداً ، كان يودّ ألاّ تتركه أبداً . ولأنّه كان عالِماً بأنّ غيابها الكبير الوحيد كان يحدث كلّ سنة خلال شهري آب وأيلول ، كان بإمكانه تقريباً ، خلال أشهر عديدة سابقة ، أن يغيّب الفكرة المُرّة على امتداد الوقت الآتي ، الذي كان يحمله مسبّقاً في ذاته وحيث ، مكوّنا من أيّام متشابهة مع الأيّام الحاليّة ، كان يتجوّل شفافاً وبارداً في ذهنه معمّقاً حزنه ، ولكن دون أن يسبّب له عذابات شديدة .

ولكن هذا المستقبل الباطني ، هذا النهر الحرّ والذي لا لون له ، هكذا كلمة واحدة من « أوديت » تجّمده في صميم « سوان » ، ومثل قطعة ثلج تثبّته وتجمد سيولته ، تجلّده كليّاً ، وقد شَعَر « سوان » فجأة بأنّه مكون بكتلة ضخمة لا تقوّض كانت تضغط على البطائن الداخلية لشخصه ، بحيث تجعله ينفجر :«كلّ هذا كان بسبب أنّ « أوديت » قالت له ، من خلال نظرة ضاحكة ومتستّرة ، كانت تراقبه : « فورشفيل » سيقوم برحلة جميلة ، خلال العنصرة . سيذهب إلى مصر » . كان « سوان » قد فهم فوراً أنّ كلامها يعني : « سأذهب إلى مصر خلال العنصرة مع « فورشفيل » » . وبالفعل ، إذا كان يقول لها بعد مرور عدّة أيّام : ماذا بخصوص هذه الرحلة التي قلتِ بأنّك ستقومين بها مع « فورشفيل » ، كانت تجيبه بطيش : « أجل ، يا صغيري ، سنذهب في اليوم التاسع عشر ، سنرسل لكَ مناظر عن الاهرام » . عندئذٍ ، كان يودّ أن يعلم إذا كانت هي عشيقة « فورشفيل » ، وأن يسألها هي بالذات . كان يعلم ، لأنّها تؤمن بالخرافات ، أنّ هنالك بعض المواضيع لا تُقسم عليها زوراً ، وأنّ الخوف أيضاً من أن تكرهه ، والذي كان قد منعه حتى الآن من أن يُغضبها بأسئلته الملّحة ، لم يعد موجوداً الآن ، حيث كان قد أضاع كلّ آماله في أن تحبّه أبداً .

ذات يوم ، تسلّم رسالة مجهولة تذكر أنَّ « أوديت » كانت عشيقة لرجال عديدين (حيث يذكرون له بعض الأسماء ومن بينهم « فورشفيل » ، السيّد « دوبريوتيه » والرسّام) ، ولنساء أيضاً ، وأنّها تردّد إلى البيوت السّريّة . انزعج « سوان » كثيراً عندما كان

يفكّر بأنّ أحد أصدقائه قد تجرّأ على أن يبعث له هذه الرسالة (لأنّها من خلال بعض التفاصيل كانت تكشف أنّ كاتبها كان مطّلعاً على حياة « سوان » الخاصّة) . بحث عمّن يكون . ولكن لم يكن لديه أبداً أدنى شكّ في الأفعال المجهولة للأشخاص ، حيث كانت دون أي ارتباط ظاهر مع الكلمات التي تعبّر عنها . وعندما أراد أن يعرف إذا كان هذا الشيء يشبه إلى حدٍّ الطبع الظاهر للسيّد « دوشارلوس » ، أو للسيّد « دولوم » ، أو للسيّد « دورسان » ، حيث كان عليه أن يحدّد المنطقة المجهولة التي كان ممكناً أن يولد منها هذا العمل الشائن ، وبما أنّ لا أحد من هؤلاء الرجال قد وافق على الرسائل المجهولة ، وكلّ شيء كانوا قد قالوه له يبرهن أنّهم يرفضون هذا النوع من الرسائل ، لم يجد أسباباً في أن يربط هذه السفالة بطبيعة هذا أو بالأحرى بطبيعة ذاك . طبيعة السيّد « دوشارلوس » كانت مختلّة قليلاً ، ولكنّها طيّبة في أساسها ، وحنونة . أمّا طبيعة السيّد « دولوم » فجافّة قليلاً ولكنّها سليمة ومستقيمة . أمّا فيما يختصّ بالسيّد « دورسان » ، فلم يكن « سوان » قد قابل شخصاً مثله ، وخاصّة خلال الظروف الأكثر كآبة ، قد حدّثه بكلمات أكثر شعوراًوأتى إليه ببوادرأكثرلطفاًوأكثرصحة . وهذاماجعله لم يعديفهم الدور ذا الإحساس الضئيل الذي كانوا ينسبونه للسيّد « دورسان » عن علاقته بامرأة غنيّة وحيث ، في كلّ مرّة يفكّر به « سوان » كان يضطّر إلى أن يرمي جانباً هذه السمعة السيّئة غير المتلائمة مع هذا المقدار من شهادات الرقّة . خلال لحظة شَعَر « سوان » بأنَّ الغموض يسوِّر ذهنه ، وأخذ يفكّر بشيء آخر ليعثر من جديد على

بعض الضوء . وتجرّأ مجدّداً وعاد إلى هواجسه . ولكن عندئذٍ ، بعد أن أوقف شكوكه بأحد ، صار يشكّ في كلّ الناس ، بعد كلّ شيء ، السيّد « دوشارلوس » كان يحبّه ، قلبه طيب . ولكنّه مريض بالأعصاب ، ربّما غداً سيبكي عندما سيعلم بأنّه مريض ، واليوم بسبب الغيرة ، بسبب الغضب ، بسبب بعض الأفكار المفاجئة التي تعبر ذهنه ، كان قد تمنّى أن يسيء إليه . في الحقيقة هذا النوع من الرجال هو أسوأ الأنواع . بالتأكيد ، الأمير « دولوم » لم يكن يحب « سوان » بمقدار ما يحبّه السيّد « دوشارلوس » . ولكن لهذا السبب بالذات ، لم يشعر معه بالحساسيّة ذاتها ، وأيضاً لديه دون شكّ طبيعة هادئة ، ولكن عاجزة عن تحقيق الأفعال الدنيئة والجيّدة في آن واحد ؛ كان « سوان » نادماً على أنّه لم يكن قد ارتبط في حياته إلاّ بهذا النوع من الناس . وصار يفكّر بأنّ الشيء الذي يمنع الناس من أن يسيئوا إلى الأقربين هو الطيبة ، وأنّه حقّاً لم يكن باستطاعته أن يضمن إلاّ الطبائع التي تتشابه مع طبيعته ، مثلما هي ، فيما يتعلّق بالقلب ، طبيعة السيّد « دوشارلوس » . بمجرّد تفكيره بأنّه يُحزن « سوان » ، كان هذا الشيء قد أثاره . ولكن ، مع رجل فاقد الشعور ، من نوع انساني آخر ، كما كان الأمير « دولوم » ، كيف يتوقّع أية أفعال كان ممكناً أن توصله أسباب من نوع آخر ؟ أن يكون أحدنا طيباً ، هذا كلّ شيء ، والسيّد « دوشارلوس » كان نبيلاً . وأيضاً السيّد « دورسان » ، وعلاقاته ، وديّة ولكن ليست حميمة ، مع « سوان » ، وُلدت من المتعة حيث ، لديهما تفكير مشترك في كلّ شيء ، كانا يحبّان أن يتبادلا الأحاديث

معاً ، وكانت مريحة أكثر من العاطفة المتحمّسة للسيّد « دوشارلوس » ، حيث باستطاعته أن يقوم بأعمال عنيفة ، جيّدة أو سيّئة . لو وُجد شخص يشعر « سوان » بأنّه مفهوم دائماً ومحبوب برهافة ، فهو يكون السيد « دورسان » . أجل ، ولكن هذه الحياة غير المشرفة التي يعيشها ؟ « سوان » كان نادماً لأنّه لم يكن يقدّرها كثيراً ، ولأنّه كان مراراً قد اعترف مازحاً بأنّه لم يكن أبداً قد أحسّ بهذا المقدار بشعور استلطاف واحترام إلاّ بمعشر حثالة الناس . « هذا ليس بدون سبب يقول في نفسه الآن ، إنّه منذ بدأ الناس يحكمون على أمثالهم من الآخرين ، فإنما يكون ذلك على أفعالهم . هذا فقط هو الذي يعني شيئاً ، وليس ما نقوله ، وما نفكّره . « شارلوس » و « دولوم » بإمكانهما أن يكون لديهما هذا أو ذاك من العيوب ، ولكنّهما شريفان . « أورسان » ربّما ليس لديه أي عيب ، ولكنّه ليس شريفاً . ويمكن أنّه قدفعل شيئاً سيئاًمرة جديدة». « سوان » شكّ أيضاً بـ « ريمي » حيث ، حقّاً ، قد تكون الرسالة بوحي منه فقط . ولكن هذا الأثر بدا له لفترة أنّه هو الصحيح . أولاً ، كانت لدى « لوريدون » أسباب تدفعه للحقد على « أوديت » . ومن ثمّ ، كيف لا يُفترض أنّ خدمنا عندما يعيشون في وضع دون وضعنا ، مضيفين إلى ثروتنا وعيوبنا غنىً ورذائل وهميّة حيث بسببها يحسدوننا ويحتقروننا ، لماذا لا يتوصّلون أن يفعلوا حتماً ، بصورة مختلفة ، عمّا يفعله أناس من وسطنا ؟ شكّ أيضاً بجدّي . كلّما كان « سوان » يطلب منه خدمة ، ألم يكن جدّي يرفض دائماً ؟ وأيضاً ، من خلال أفكاره البورجوازية ، كان ممكناً

أن يفكّر بأنـه فعل ذلـك لصالـح « سوان » . وأيضـاً شكّ بـ « بِرْغُوت » ، بالرسّام ، بـ « آل فردوران » ، معجباً مرّة أخرى بصورة عابرة بحكمة أناس المجتمع الراقي ، عندما يرفضون أن يختلطوا في الأوساط الفنيّة حيث تلك الأشياء ممكنة الحدوث ، وربّما حتى معترف بها على سبيل المزاح ؟ ؛ ولكن كان يتذكّر ملامح من النزاهة لهؤلاء البوهيميين ويقارنها بحياة الاحتيال ، والنَصْب إلى حدٍّ ما ، حيث فقدان المال ، الحاجة إلى الرفاهية ، فساد الأخلاق تسيطر غالباً الطبقة الراقية . باختصار ، هذه الرسالة المجهولة كانت تبرهن أنّه قد يعرف شخصاً قادراً على الإثم ، ولكن لم يكن يجد أسباباً كثيرة لكي تجعل هذا الإثم مُخبّأ في عمق ـ ليس مكتَشفاً من الآخرين ـ في طبيعة الإنسان الحنون وكذلك الإنسان الهادىء ، في طبيعة الفنّان وكذلك البورجوازي ، في طبيعة السيّد الكبير وكذلك الخادم . أيُّ مقياس اعتمده ليحكم على البشر ؟ في الحقيقة لا يوجد أحد من الناس الذين يعرفهم إلاّ وهو مؤهّلٌ لأن يرتكب سفالة . هل يتوقّف عن رؤيتهم كلّهم ؟ أفكاره تغشّت ؛ مرّر يديه مرّتين على جبينه ، نظّف زجاج نظّارتيه بمنديله ، فكّر في أنّ أناساً من مستواه يعاشرون أيضاً السيّد « دوشارلوس » ، الأمير دولوم » والآخرين ، رغم كلّ شيء ، وأكّد أنّ هذا يعني أنّهم إذا لم يكونوا مؤهّلين للقيام بأعمال سافلة ، فعلى الأقلّ تصير الدناءة حاجة في الحياة بالنسبة إلى كلّ شخص يعاشر أناساً مؤهّلين للقيام بهذه الأعمال . وقد استمرّ على علاقة مع كلّ أصدقائه الذين كان قد شكّ فيهم ، ولكن باسلوب متحفّظ لأنّهم ربّما كانوا يحاولون أن

يجعلوه يفقد الأمل .

أمّا بشأن صحةالرسالة، فلم يبال، لأنّه لاتوجدتهمةمن بين كلّ التهم الموجّهة ضدّ « أوديت » كانت حتى من المحتمل أن تكون صحيحة . مثل كثيرين من الناس ، كان « سوان » بليد التفكير ، كان ينقصه الابتكار . كان يعلم جيّداً ، الحقيقة عامّة ، أنّ حياة الناس مليئة بالمتناقضات ، ولكن لكلّ شخص بالذات ، كان يتخيّل كلّ جزء من حياته الذي يجهله مشابهاً للجزء الذي يعرفه . كان يتخيّل ما كانوا يصمتون عنه من خلال الشيء الذي يقولونه له . عندما كانت « أوديت » بقربه ، حيث يذكران معاً عملاً غير لطيف قام به أحد ما ، أو شعوراً سيّئاً أحسّ به شخص آخر ، كانت « أوديت » تعيبهم من خلال المبادىء ذاتها حيث « سوان » كان دائماً قد تعلّمها من أهله ، واستمرّ وفيّاً لها ؛ ومن ثمّ كانت ترتّب أزهارها ، تتناول كوباً من الشاي ، وتهتمّ بأعمال « سوان » . عندئذٍ ، « سوان » يبسط عاداته على ما تبقّى من حياة « أوديت » ، كان يُعيد الحركات ذاتها عندما يريد أن يتمثّل الأوقات التي تكون خلالها بعيدة عنه . لو كانوا قد وصفوها له كما هي أو بالأحرى كما قد كانت خلال المدّة الطويلة التي أمضتها معه ، ولكن بالقرب من رجل آخر ، كان قد تعذّب لأنّ هذه الصورة قد تبدو له قريبة من المعقول . ولكن أنّها تذهب إلى « العاطلات » ، تستسلم للعربدة مع بعض النساء ، أن تمارس حياة التهتّك مع أشخاص رذلاء ، أيّ هذيان أحمق حيث تحقيقه . . . شكراً يا إلهي . الأقحوانات المتخيّلة ، الشاي المتتابع ، نكرانها الأشياء السيّئة ، لم تكن تترك أيّ

مجال ! فقط من وقت إلى آخر ، كان يجعل « أوديت » تسمع ، أنّهم بسبب سوء النيّة كانوا يخبرونه عن كلّ ما كانت تفعله ؛ ومستعملاً ، بالمناسبة ، في حينها ، حادثة بدون أهمية ولكنّها صحيحة ، حيث كان قد اطّلع عليها بالصُدفة ، كما لو أنّها كانت الجزء البسيط الذي لا يبالي به بالرغم منه ، بين كثير من الأشياء الأخرى ، من إعادة تركيب شاملة لحياة « أوديت » ، حيث كان يحتفظ به مخبّأ في صميمه . كان يتوصّل إلى أن يجعل « أوديت » تعتقد بأنّه على اطلاّع على أشياء كثيرة ، وفي الحقيقة كان لا يعلم شيئاً عنها حتى أنّه لا يشكّ بها ، لأنّه إذا كان مراراً كثيرة يناشد « أوديت » بألاّ تشوّه الحقيقة ، فهذا فقط بسبب ، أن يدرك هذا السبب أو بالعكس ، لكي تقول له « أوديت » كلّ ما تفعله . دون شكّ ، كما كان يقول لـ « أوديت » كان يحبّ الصدق ، ولكن مثل قوّادة بإمكانها أن تجعله دائماً مطّلعاً على حياة عشيقته . حبّه للصدق أيضاً ، بما أنّه لم يكن متجّدداً ، لم يجعله أفضل . الحقيقة التي يحبّها كانت هي التي تقولها له « أوديت » ؛ ولكن هو بالذات ، ليحصل على هذه الحقيقة ، لم يخشَ أن يلتجيء إلى الكذب ، الكذب الذي لم يتوقّف عن وصفه لـ « أوديت » بأنّه سيوصل إلى انحطاط كلّ إنسان . بالاختصار ، كان متساوياً في الكذب مع « أوديت » ، كونه أتعس منها ، لم يكن أيضاً أقلّ أنانية . وهي ، مصغية إلى « سوان » يخبرها هكذا ، لها بالذات ، عن أشياء كانت قد فعلتها ، كانت تنظر إليه بحذر ، غاضبة ، من التحدّث عن كلّ مغامرة ، لكي لا تظهر أنّها ذليلة ومخجولة ممّا فعلته .

ذات يوم ،عائشاً في أطول فترة هدوء ، كان قد مرّ بها دون أن تتملّكه الغيرة من جديد ، كان قد قَبِل بأن يذهب في المساء إلى المسرح مع الأميرة « دولوم » . عندما قلّب صفحات الجريدة ليرى ماذا كان يُقدّم من أعمال مسرحية ، وقع نظره على عنوان : « فتيات من الرخام » لـ « تيودور باريير » ، أثاره بشدّة ، تراجع قليلاً إلى الوراء وأدار رأسه . مضاءة وكأنّها بواسطة ضوء مدرج ، في المكان الجديد حيث كانت موجودة ، هذه الكلمة « رخام » حيث كان قد أضاع القدرة على أن يميّزهابقدرماكان قد اعتاد على رؤيتها دائماً تحت نظره ، كانت فجأة قد توضّحت من جديد ، وذكّرته على الفور بتلك الحكاية حيث « أوديت » قد أخبرتها له من زمان ، عن زيارة كانت قد قامت بها إلى قاعة استقبال قصر الصناعة مع السيّدة « فردوران » وحيث هذه قالت لها : « خذي حِذرك ، سأدفئك جيداً ، لستِ من رخام » . « أوديت » كانت قد أكّدت له أنّ هذا لم يكن سوى مزحة ، ولم يكن يعلّق عليه أية أهميّة . ولكن كان لديه حينذاك ثقة أكبر بها ممّا هو عليه اليوم . وبالفعل ، كانت الرسالة المجهولة تتحدّث عن هوىً من هذا النوع . دون أن يستطيع رفع عينيه باتجاه الجريدة ، بسطها ، وأدار إحدى صفحاتها لئلا يقع نظره على هذه الكلمة : « فتيات من الرخام » وبدأ يقرأ ، دون تفكير ، أخبار المحافظات . كانت هنالك عاصفة في « المانش » ، كان يبلّغ عن أضرار في « دييب » ، في كابورغ » ، في « بوزيفال » . فوراً ، تراجع من جديد قليلاً إلى الوراء .

اسم « بوزيفال » كان قد جعله يفكّر باسم ناحية أخرى من المنطقة ، « بوزيفيل » ، التي تحمل بالإضافة إلى هذا الاسم ، موصولة برابطة ، اسما آخر ، الذي هو « بريوتيه » ، حيث كان يراه مراراً على الخرائط ، ولكن ، لأوّل مرّة كان قد لاحظ أنّه ذات الاسم لصديقه السيّد « دوبريوتيه » ، التي تصفه الرسالة المجهولة بـأنّه عشيق « أوديت » . عـلى كلّ حـال ، بالنسبـة للسيّـد « دوبريوتيه » ، اتهامه لم يكن بعيداً عن المعقول ؛ ولكن بما يتعلّق بالسيّدة « فردوران » ، فقد كـان هذا مستحيـلاً . أن تكون « أوديت » تكذب بعض المرّات ، لا نستطيع أن نستنتج أنّها لم تقل الحقيقة أبداً ، ومن خلال الكلمات التي تبادلتها مع السيّدة « فردوران » والتي أخبرتها هي بالذات « سوان » ، كان قد تعرّف إلى هذه المزحات غير المفيدة والخطرة ، حيث ، بعدم خبرتهن في الحياة وجهلهن للرذيلة ، تستعملنها بعض النساء حيث تكشفن البراءة وحيث ـ كما « أوديت » مثلاً ـ هنّ بعيدات أكثر من أيّة امرأة تحاول أن تشعر بحنان ملتهب تجاه امرأةأخرى . ولكن الرفض التام حيث كانت قد ردّت من خلالـه ، بنفور ، الشكوك بالعكس ، التي كانت قد ولّدت فيه بصورة غير مباشرة ، للحظة ما ، من خلال ما قد روته له ، كان يتوافق مع كل ما يعرف من أذواق ، من طبيعة عشيقته . ولكن في هذه اللحظة ، بوحي من غيرته ، متشابهة مع وحي شاعر أو عالِم ، حيث لم يبق له سوى قافية واحدة أو ملاحظة واحدة ، هذه الفكرة أو هذه القاعدة التي تفجّر فيهما كلّ قدرتهما ، كذلك تذكّر « سوان » لأوّل مرّة عبارة

كانت قد قالتها له « أوديت » منذ سنتين : « أوه ! السيّدة « فردوران » ، في هذا الوقت لا تهتمّ إلاّ بي ، إنّني رائعة ، تقبليني، تريد أن أتسوّق معها ، وأن أناديها بصيغة المفرد » . بعيداً عن أن يرى عندئذٍ في هذه العبارة أيّة صلة مع الكلمات العبثية التي قد استعملتها ، لتتصنّع الرذيلة ، والتي كانت قد روتها له « أوديت » ، كان قد تقبّلها كما لو أنّها برهان على صداقة حميمة . وها هو الآن ، تَذَكُّر حنان السيّدة « فردوران » قد جاء بصورة مفاجئة لينضمّ إلى تَذَكُّر حديثها السيّء . لم يكن يستطيع أن يفصلهما في فكره وقد رآهما متشابِكين حتى في الواقع . الحنان كان يعطي بعض الرصانة والأهميّة لهذه المزحات التي بدورها كانت تجعله يفقد الكثير من براءته . ذهب إلى « أوديت » . جلس قربها . لم يكن يجرؤ على تقبيلها ، لأنّه لم يدرك في عمق أيّ منهما ، سيستيقظ بسبب هذه القبلة . كان يصمت ، كان يشهد موت حبّهما . فجأة اتخذ قراراً :

ـ « أوديت » ، قال لها ، يا حبيبي ، أعلم جيّداً أنّني ثقيل ، ولكن يجب أن أسألك بعض الأشياء . هل تتذكّر الفكرة التي كوّنتها عنك وعن السيّدة « فردوران » ؟ قولي لي إذا كان ذاك الشيء صحيحاً ، معها أم مع غيرها .

هزّت رأسها مزوّية شفتيها ، وهذه إشارة غالباً ما تُستعمل من قِبَل الناس ليجيبوا بأنّهم لن يذهبوا أبداً ، وأنّ هناك ما يزعجهم ، تجاه شخص كان قد سأل أحدهم : « هل تأتي لتشاهد مهرجان الخيّالة ، هل تحضر الاستعراض ؟ ولكن حركة الرأس

هذه التي تتبع عادةً حادثة متوقّعة ، تمزج بسبب هذا نفي حادث قد مضى . أكثر من ذلك ، لا يورد سوى أسباب نابعة من اللياقة الشخصية أكثر ممّا هي رفض ، واستحالة ، بسبب المستوى الأخلاقي . عندما شاهد « أوديت » تشير له لتقول إنَّ ما يفعله هو خطأ ، أدرك « سوان » أنَّ هذا ربّما كان صحيحاً .

ـ قلتُ لكَ ذلك ، تعلمه جيّداً ، تابعت بغضب وتعاسة .

أجل ، أعلم ، ولكن هل أنت متأكّد ؟ لا تقولي لي : « أنتَ تعلم هذا جيّداً » ، قولي لي : « لم أفعل أبداً هذا النوع من الأشياء مع أيّة امرأة » .

تابعت ، وكأنَّ ما تقوله هو أمثولة ، بلهجة ساخرة ، وكأنّها تريد أن تتخلّص منه :

ـ لم أفعل أبداً هذا النوع من الأشياء مع أيّة امرأة .

ـ هل باستطاعتكِ أن تقسمي لي على أيقونتكِ هذه لـ « سيّدتنا دولاغيت » ؟

كان « سوان » يدرك أنَّ « أوديت » لم تكن تقسم زوراً على هذه الأيقونة .

أوه ! كم تجعلني تعيسة ، صرخت وهي تتهرّب منتفضة من كابوس سؤاله . ولكن هل انتهيت ؟ ما بكَ اليوم ؟ هل تريد أن أكرهك ، أن أمقتك ؟ هكذا ، كنت أريد أن أستعيد معك أيّام الماضي الجميلة وهكذا تشكرني ! ولكن ، دون أن يتركها ، مثل جرّاح ينتظر نهاية التشنّج الذي يوقف عمليته الجراحية ، ولكنه لا يتخلّ عن إجرائها : أنتِ على خطأ عندما تتصوّرين أنّني

سأعتب عليك حتى ولو قليلاً ، « أوديت » ، قال لها بلطف مقنع وكاذب. لاأحدّثك أبداً إلاّ عمّا أعلمه وانّني أعلم دائماًأكثرجداًممّا أقول. ولكن أنت فقط بإمكانك أن تخفّفي باعترافكِ لي ما يجعلني أكرهكِ ، طالما لم أعلم هذا الشيء إلاّ عن طريق الآخرين. غضبي عليك لا يأتي من أفعالك ، إنني أسامحكِ في كلّ شيء لأنني أحبّك ، ولكن من كذبك العبثي الذي يجعلك تستمرّين في إنكار أشياء أعرفها. ولكن كيف تريدين أن أستمرّ في حبّي لكِ ، عندما أراك تحيين حديثك بقسَم أعرفه كاذباً ؟ يا « أوديت » ، لا تطيلي هذه اللحظة التي تشكّل عذاباً لنا معاً. إذا أردتِ ، هذا الشيء ينتهي بعد ثانية ، وتكونين قد تخلّصت من كلّ شيء ، نهائياً. اقسمي لي على أيقونتك إذا كنت قد فعلت أو لم تفعلي هذه الأشياء.

ـ ولكنّني لا أعلم شيئاً ، صرخت بغضب ، ربّما منذ زمن بعيد ، دون أن أدرك ماذا كنتُ أفعل ، ربّما مرّتان أو ثلاث مرّات.

كان « سوان » قد واجه كلّ الاحتمالات. الواقعية هي إذاً شيء ليس له أية علاقة مع الإمكانيات ، ليس أكثر من طعنة سكّين حيث نتلقّاها خلال تجوّل الغيوم فوق رؤوسنا ، حيث إنّ هذه الكلمات « مرّتان أو ثلاث مرّات » قد حفرت بشدّة نوعاً من الصليب في قلبه. شيء غريب هي هذه الكلمات « مرّتان أو ثلاث مرّات » ، فقط هي كلمات ، كلمات في الهواء ، بإمكانها هكذا عن بُعد أن تمزّق القلب كما لو كانت تمسّه حقّاً ، أن تمرضه

كما لو كنّا تناولنا السُمّ . دون إرادته ، تذكّر « سوان » هذه العبارة التي كان قد استمعها عند السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » : « هذا أقوى شي شاهدته منذ الطاولات الدوّارة » هذا الوجع الذي يشعره لا يشبه أبداً أيّ شيء كان يتهيّأ له . ليس فقط لأنّه في أوقاته الحذرة كليّاً كان قد تصور السوء نادراً بهذا المقدار ، ولكن لأنَّه ، حتى عندما كان يتصور هذا الشيء ، كان يستمر غامضاً ، غير أكيد ، مجرداً من هذه الشناعة الخاصّة التي قد استخلصت من كلمات « ربّما مرّتان أو ثلاث مرّات » ، مجرداً من هذه القساوة المعيّنة المختلفة جداً عن كلّ ما قد عرفه وكأنّه مرض نُصاب به لأوّل مرّة . ورغم ذلك ، هذه «الأوديت» التي هي سبب وَجَعه ، لم يتضاءل شعوره تجاهها ؛ بل بالعكس ، صارت عزيزة أكثر ، كما عندما يكبر وجعه شيئاً فشيئاً ، يكبر في الوقت ذاته ثمن المهدّىء ، الترياق ، الذي تملك هذه المرأة فقط . أراد أن يعتني أكثر في وجعه مثل مرض ما حيث نكتشف فجأة أنّه خطر جداً .
كان يريد ألّا تعود إلى تكرار هذا الشيء الفظيع حيث قالت له إنّها قد فعلته « مرّتان أو ثلاث مرّات » . لهذا السبب ، كان لا بدّ من أن يسهر على « أوديت » . يقال مراراً إنّنا عندما نكشف لصديق سيّئات عشيقته ، لا ننجح إلّا بتقريبه منها لأنّه لا يصدّقنا ، وكم يتقرّب منها أكثر إذا كان يصدّقنا ! « ولكن ، تساءل « سوان » كيف العمل للحفاظ عليها ؟ » كان يستطيع ربّما أن يحفظها من امرأة ما ولكن توجد غيرها مئات أخرى ، وقد أدرك أيّ جنون قد عبره عندما كان ، ذاك المساء حيث لم يجد « أوديت » عند « آل

فردوران » ، قد بدأ يرغب في امتلاكٍ ، مستحيل أبداً ، لشخص آخر . لحسن حظّ « سوان » ، تحت تأثير العذابات الجديدة التي جاءت تعبر روحه مثل قبائل مجتاحة ، كان يوجد عمق من الطبيعة أقدم كثيراً ، أدقّ كثيراً ومثابر بصمت ، مثل خلايا عضو مجروح حيث ينهض حالاً خلال استعادة الأنسجة المضرّرة لعافيتها ، كما عضلات طرف مشلول حيث تستعيد حركاتها أيضاً . هذه الأشياء « الأقدم كثيراً » : السكّان الأصليون لروحه ، قد استعملوا لحظة كلّ قدرات « سوان » لهذا العمل المرقّم بغموض حيث يعطي وهماً من الراحة لمتماثل للشفاء ، لمن أجريت له عملية جراحية . هذه المرّة صار الاسترخاء ، بانحطاط ، ليس كالعادة في عقل « سوان » ، بل بالأحرى في قلبه . ولكن كلّ أشياء الحياة التي وُجدت مرّة من الممكن أن تخلق من جديد ، وكما حيوان ينازع حيث تحرّكه مجدّداً انتفاضة تشنّج ، كانت قد تراءت لنا أنها انتهت ، على قلب « سوان » ، المعفن بعض الوقت ، هو بالذات الوجع ذاته ، يرسم مجدّداً الصليب ذاته . تذكّر تلك الأمسيات تحت ضوء القمرحيث،ممدّداًفي عربته«الفيكتوريا»التي كانت توصله إلى شارع « لابيروز » ، كان ينمي في نفسه بشهوة انفعالات الرجل العاشق ، دون أن يعلم بالثمرة السامّة التي تنتجها بالضرورة تلك الانفعالات . ولكن كلّ أفكاره لم تستمرّ إلّا مسافة ثانية ، وهو الوقت الذي وضع يده خلاله على قلبه ، عاود تنفّسه وتوصّل إلى أن يضحك ليخفي عذابه . وقد بدأ منذ هذا الوقت بطرح أسئلته . لأنّ غيرته التي قامت بجهد ، حتى العدو لم

يكن قد قام به ليتوصّل إلى أن يوجه إليه هذه الضربة ، أن يعرّفه بأقسى وجع لم يكن قد عرفه أبداً ، لم تكن غيرته ترى أنّه قد تعذّب بما فيه الكفاية ، كانت تحاول أن تصيبه بجرح أكثر عمقاً أيضاً . هكذا ، مثل إلهة شرّيرة ، كانت غيرته تلهمه وتوصله إلى ضياعه . لم يكن هذا خطأه ، ولكن خطأ « أوديت » فقط ، بحيث إنَّ عذابه لم يتطوّر في البداية .

ـ يا عزيزتي ، قال لها ، هذه هي النهاية ، هل كان هذا مع شخص أعرفه ؟

ـ كلاّ ، أقسم لك ، على كلّ حال أعتقد بأنّني قد بالغت ، بأنّني لم أكن قد توصّلت إلى هذه الحدود .

ابتسم وتابع :

ـ ماذا تريدين ؟ هذا لا شيء ، ولكن هذا مؤسف أنّك لا تستطيعين أن تذكري لي الأسماء . أن أستطيع تصوّر الشخص ، هذا سيساعدني على ألاّ أفكّر به أبداً . أقول ذلك من أجلكِ ، لأنّني لن أزعجك بعد الآن . هذامهدىءجداً أن يتصوّر أحدنا الأشياء ! ما هو فظيع ، هو الشيء الذي لا نستطيع أن نتصوّره . ولكن قد كنتِ معي لطيفة جداً ، ولا أريد أن أتعبكِ . أشكرك من كلّ قلبي على كلّ ما قد فعلته لي . هذه هي النهاية فقط هذه الكلمة : « منذ كم من الوقت ؟ »

ـ أوه ! يا « شارل » ، ألا ترى أنّك تزعجني ! هذا شيء قديم جدّاً . لم أكن قد فكّرت به من جديد أبداً ، سيقال إنّك حتماً تريد أن تعيد إليّ هذه الأفكار . ستكون مغتبطاً ، قالت ، ببلاهة

غير مباشرة وبخبث مباشر .

ـ أوه ! كنت أريد أن أعرف فقط إذا قد حصل هذا الشي منذ بداية معرفتي بكِ . إنّه طبيعي جداً ، هل كان يمارس هنا ؟ أليس بإمكانك أن تقولي لي في أية ليلة ، لأتصوّر ماذا كنت أفعل ذاك المساء ؛ تدركين جيّداً أنَّ من المستحيل ألاّ تتذكرين مع مَن ، « أوديت » ، يا حبيبتي .

ـ ولكن لا أعرف ، أنا أظنّ أنَّ هذا كان في الغابة ذات مساء حيث جئت لمقابلتنا في الجزيرة . كنتَ قد تناولتَ العشاء عند الأميرة « دولوم » ، قالت ، مسرورة في أن تعطي تفصيلاً دقيقاً يبرهن عن صدقها . إلى طاولة مجاورة كانت هنالك امرأة لم أكن قد رأيتها منذ مدّة طويلة جدّاً . قالت لي : « تعالي إذاً وراء الصخرة الصغيرة تشاهدي تأثير ضوء القمر على المياه » . في البداية تثاءبت وأجبت : « كلاّ ، إنّني متعبة وإنّني مرتاحة هنا » . أكّدت لي أنَّه لم يكن أبداً قد وُجد ضوء قمر مثل هذا . قلت لها : « أيّة مزحة هذه ! » ؛ « كنت أدرك جيّداً ماذا تعني » .

« أوديت » كانت تخبر ذلك وهي تضحك قليلاً أو بسبب أنّ هذا الشيء كان يبدو لها طبيعياً ، أو بسبب اعتقادها بأنّها ستخفّف هكذا أهمية الشيء ، أو لكي لا تظهر أنّها ذليلة . عندما رأت وجه « سوان » غيّرت لهجتها :

ـ إنك حقير ، تتلذّذ بعذابي ، تجبرني على ممارسة الكذب حتى تدعني وشأني .

هذه الضربة الثانية التي أعطتها لـ « سوان » من جديد ،

كانت أفظع أيضاً من الأولى . لم يكن قد ظنَّ أنّها قد فعلت هذا الشيء منذ مدّة قصيرة ، كان مخبّأ أمام عينيه حيث لم يعرف أن يكتشفه ، ولكن خلال أمسيات حيث كان يتذكّر جداً ، وحيث كان قد أمضاها مع « أوديت » ، معتقداً بأنّه كان مطلّعاً عليها بشكلٍ كامل ، وحيث الآن كانت تأخذ بالرجوع إلى الماضي شيئاً خبيثاً وفظيعاً ، بينهما ، فجأة ، تنحفر هذه الفسحة الواسعة ، هذه اللحظة في « جزيرة الغابة » . « أوديت » ، دون أن تكون ذكيّة ، كانت تتمتّع بجاذبية طبيعية . كانت قد أخبرت ، كانت قد قلّدت هذا المشهد بتلك البساطة حيث « سوان » ، متعباً ، كان يتصوّر كلّ شيء : تثاؤب « أوديت » ، الصخرة الصغيرة . كان يسمعها تجيب ـ بفرح ، مع الأسف ! ـ : « هذه المزحة ! » كان شَعَر بأنّها لن تضيف أيّ شيء آخر هذا المساء ، وبأنّه لن يصل إلى أيّ اعتراف جديد في هذه اللحظة ، قال لها :

ـ أيتّها الصغيرة المسكينة ، سامحيني ، أشعر بأنّني أعذّبك ، هذه هي النهاية ، لن أفكّر أبداً بهذا الشيء .

ولكن رأت أن عينيه بقيتا مركّزتين على الأشياء التي لم يعلمها وعلى ماضي حبّهما ، الرتيب والعذب في ذاكرته ، لأنّه كان غامضاً وحيث تمزّقه الآن وكأنّها جرح ، تلك اللحظة في « جزيرة الغابة » ، في ضوء القمر ، بعد العشاء عند الأميرة « دولوم » . ولكن كان قد تعوّد أن يجد الحياة ممتعة ـ أن يتأمّل الاكتشافات المدهشة التي بإمكاننا أن نحقّقها ـ وحتى وهو يتعذّب لدرجة يظنّ معها أنّه لن يستطيع التحمّل طويلاً وجعاً مماثلاً ، كان يقول في

نفسه : « إنّ الحياة شيء رائع حقّاً ، تهيّء لنا مفاجآت جميلة ؛ على كلّ حال الرذيلة هي شيء منتشر أكثر ممّا نعتقد . ها هي امرأة كنت أؤمن بها ، تبدو بسيطة جداً ، شريفة جداً ، وحتى لو كانت طائشة بعض الشيء ، كانت تبدو طبيعية جداً : عن شيء لا يمكن تصديقه ، أسألها ، والقليل الذي تعترف به لي يكشف أكثر بكثير ممّا كنّا نستطيع أن نتصوّره » . ولكن لم يكن باستطاعته أن يتوقّف عند هذه الملاحظات المتجرّدة . كان يبحث عن أن يكتشف بدقة قيمة ما قد أخبرته عنه ، لكي يعلم إذا كان مضطراً إلى الاستنتاج أنّ هذه الأشياء قد فعلتها مراراً ، وأنّها ستتكرر . كان يعيد هذه الكلمات التي قالتها : « كنتُ أدرك جيّداً ماذا تعني » ،«مرّتان أو ثلاث مرّات » ، « أيّة مزحة هذه ! » ، ولكنّها لم تظهر مجرّدة في ذاكرة « سوان » ، كلّ واحدة منها كانت تحمل سكّينها لتطعنه من جديد . خلال فترة طويلة ، كما مريض لا يمكنه أن يمنع نفسه عن محاولته في كلّ لحظة القيام بالحركة التي تؤلمه ، كان يكرّر هذه الكلمات في نفسه : « إنّني مرتاحة هنا » ، «أيّة مزحة هذه ! » ،ولكن الألم كان شديداً لدرجة أنّه اضطر إلى التوقّف . كان يندهش من أن تكون هنالك أفعال ، حيث كان دائماً يعتقد بأنّ لا أهمية لها ، وينظر إليها . بخفّة ، قد أصبحت الآن بالنسبة إليه بأهمية مرض باستطاعته أن يوصلنا إلى الموت . كان يعرف الكثير من النساء بإمكانه أن يطلب منهنّ مراقبة « أوديت » . ولكن كيف له أن يتأمّل بأنهنّ سيتمسّكن بوجهة نظره هو بالذات ولا يتوقفن عند وجهة النظر التي كانت ، لمدّة طويلة ،

تخصّه ، موجِّهة حياته الممتعة ، وبأنهنّ لن يقلن له ضاحكات : « أيّها الغيور الخبيث الذي يريد أن يحرم الآخرين من الملذّات » ؟ أيّ فخّ هذا الذي (هو الذي لم يكن ينال من حبّه لـ « أوديت » إلاّ الملذّات العابرة) سيقع فيه فجأة في هذه الحلقة الجهنمية الجديدة ، حيث لم يكن يعرف كيف سيخرج أبداً منها . مسكينة « أوديت » ! لم يكن حاقداً عليها . لم تكن مذنبة كليّاً . ألم يقولوا إنّ أمّها بالذات التي قد سلّمتها ، وهي لا تزال طفلة تقريباً ، في « نيس » ، لثري انكليزي ؟ ولكن أيّة حقيقة موجعة تُظهرها له هذه الأسطر من « يوميّات شاعر » لـ « ألفردوفيني » حيث كان قد قرأها من زمان بلا مبالاة : « عندما نشعر أنّنا نعشق امرأة ما ، يجب أن نسأل أنفسنا : كيف هي محاطة ؟ كيف كانت حياتها ؟ كلّ سعادة الحياة مركّزة على هذه الأشياء » . كان « سوان » يستغرب أنَّ عبارات بسيطة مهجّاة في فكره ، مثل « أيّة مزحة هذه ! » ، « كنت أدرك جيّداً ماذا تعني » باستطاعتها أن تؤلمه بهذه الشّدة . ولكن كان يدرك أن ما كان يعتقده عبارات بسيطة لم تكن إلاّ أجزاء من « هيكل » ، حيث بينها يوجد ، وباستطاعته أن يردّوه له ، العذاب الذي كان قد شعَر به أثناء حديث « أوديت » . لأنّه كان بالذات ، الألم الذي شعَر به من جديد . بمقدار ما كان يعرف الآن ـ وحتى لو قد نسي بعض القليل مع الوقت ، أو لو قد سامح ـ ، في الفترة حيث كان يردّد هذه الكلمات ، كان يخدعه الألم القديم بالشكل الذي كان عليه قبل أن تتكلّم « أوديت » : جاهل ، واثق ؛ غيرته القاسية كانت

تضعه ، لتجعل اعتراف « أوديت » يطعنه ، في حالة شخص ، بعد مرور عدّة أشهر ، لا يعلم شيئاً : هذه القصّة القديمة كانت لا تزال تهزّه باستمرار وكأنّها اكتشاف جديد . كان يُعجب بالقدرة الخلّاقة لذاكرته على ابتكار الأشياء من جديد . وليس إلّا بسبب ضعف هذه « المولِّدة » حيث خصوبتها تخفّ مع تقدّم الزمن ، إنّه كان باستطاعته التأمُّل بتخفيف عذابه . ولكن عندما كانت تظهر ، منهكةً بعض الشيء ، قدرة كلمة ما من « أوديت » تعذّبه ، عندئذٍ إحدى الكلمات ، حيث فكر « سوان » كان قد توقّف قليلاً إلى هنا ، كانت تأتي كلمة جديدة إلى حدٍّ ما لتحلّ محلّ الكلمات الأخرى وتصفعه بحيوية عنيفة . ذكرى هذا المساء حيث كان قد تناول العشاء عند الأميرة « دولوم » ، كانت بالنسبة إليه مؤلمة ، ولكن لم تكن إلّا محوروَجعه . هذا الألم كان يوهج بغموض حول كلّ الأيّام القريبة . وفي أيّ مكان منها ، كان يريد أن يلمسه من خلال ذكرياته ، كان هو الفصل كلّه ، حيث « آل فردوران » قد تناولوا العشاء مراراً في « جزيرة الغابة » ، وحيث كان يؤلمه . ما أوجعه بهذا المقدار ، هو أنّ حبّ الاستطلاع المتتابع ، حيث قد حرّضته من أجله غيرته ، قد تعرقل خوفاً من العذابات الجديدة التي سيتحمّلها عندما يقبل به . كان قد اكتشف أنّ المرحلة الشاملة في حياة « أوديت » التي مضت قبل أن يعرفها ، هي مرحلة ، لم يكن أبداً قد حاول أن يتصوّرها ، ولم تكن المسافة المجدّدة حيث كان يراها بغموض ، ولكن كانت قد تكوّنت من سنوات خاصّة ، مليئة بالأحداث الملموسة . ولكن عندما

سيعلمها ،كان يخشى من أنّ هذا الماضي الذي لا لون له ، المبهم والذي يمكن احتماله ، قد يتحوّل إلى جسدٍ ملموسٍ وقذر ، يصير وجهاً خاصّاً وشيطانياً . وكان يستمرّ في ألّا يبحث من خلال تصوّره ، ليس بسبب بلادة في التفكير ، ولكن خوفاً من أن يتعذّب . كان يتأمّل في أنّه سيتوصّل إلى يوم يسمع فيه باسم « جزيرة الغابة » ، من الأميرة « دولوم » ، دون أن يشعر بالتمزّق الماضي ، ويرى أنّه من عدم التبصر أن يستحث « أوديت » على أن تمدّه بكلمات جديدة ، بأسماء بعض الأماكن ، بظروف مختلفة حيث وجعه الذي لا يزال هادئاً بعض الشيء ، ستوقظه بشكل آخر .

ولكن غالباً الأشياء التي لم يكن يعرفها أبداً ، ويشكّ الآن في معرفتها ، هي « أوديت » بالذات التي كشفتها له بشكل عفوي ، وبدون أن تحسب لها أيّ حساب ؛ وبالفعل ، المدى ، حيث الرذيلة تضع بين حياة « أوديت » الحقيقية وحياة أخرى بريئة نسبياً حيث « سوان » اعتقد ، ومراراً كان يعتقد بعد ، أنّ عشيقته كانت تعيشها ، هذا المدى كانت تجهل « أوديت » نتائجه : إنسان رذيل يتظاهر دائماً بالفضيلة ذاتها أمام أشخاص حيث لا يريد أن يكتشفوا رذيلته ، لم تكن لديه رَقابة على نفسه ليكتشف كم هؤلاء ، حيث النموّ المستمرّ الذي لا يشعر به ، يجذبونه رويداً رويداً بعيداً عن أسلوب الحياة الطبيعية . بسكناها ، في عقل « أوديت » ، مع تذكّر الأفعال التي كانت تخبّئها عن « سوان » ، غيرها كانت تتلقى الانعكاس بالتدريج ، كانت معداة منها ، دون

استطاعتها أن تجد فيها شيئاً غريباً ، دون أن تكون نشازاً في الوَسَط الخاص حيث كانت تحبيها في ذاتها ، ولكن إذا كانت تخبرها لـ « سوان » ، كان يرتعب من انكشاف الجوّ الذي كانت تخلقه . ذات يوم كان يحاول ، دون أن يسيء إلى « أوديت » ، أن يسألها إذا لم تكن قد ذهبت أبداً إلى قوّادات . في الحقيقة ، كان قد اقتنع بأنّها لم تذهب ، قراءة الرسالة المجهولة كانت قد أدخلت هذا الافتراض في عقله ، ولكن بصورة آلية ، لم تكن قد صادفت أيّ تصديق ، ولكن في الواقع ، كانت قد استمرّت في ذهنه ، وحتى يتخلّص « سوان » من الوجود المادّي فقط ، ولكن رغم ذلك المزعج للشكّ ، كان يتمنّى على « أوديت » أن تقتلعه منه . « أوه ! كلاّ ! هذا لا يعني أنّني لا أكون معذّبة ، أضافت ، وهي توحي بابتسامتها شيئاً من الغرور ، حيث لم تكن تلاحظ أنّها لا تبدو وشرعيّة لـ « سوان » . واحدة منهنّ استمرّت أكثر من ساعتين البارحة تنتظرني . كانت تعرض عليّ أي ثمن . يبدو أنّ سفيراً ما قال لها : « سأنتحر إذا لن تأتي بها إليّ » . قالوا لها إنّني قد خرجت ، في النهاية ذهبت إليها أنا بالذات لأتحدّث معها لتقبل أن ترحل . كنت أتمنّى أن تراني كيف استقبلتها ، وصيفتي التي كانت تسمعني من الغرفة المجاورة قالت لي إنّني كنت أصرخ بكل قواي : « ولكن بما أنّني أقول لك إنّني لا أريد ! هذه هي فكرتي هكذا ، لا يعجبني . أظنّ أنّني حرّة في أن أفعل ما أشاء بعد كل شيء ! لو كنت بحاجة إلى نقود ، لكنت قد فهمت . . . » أمرت حارس البناية بألاّ يسمح لها بالدخول أبداً ، سيقول إنّني في

الريف . آه ! كنت أود أن تكون مختبئاً في أيّ مكان . أظنّ أنّك كنت قد سُررت يا عزيزي . لديها بعض الحسنات ، رغم كلّ شيء ، هل ترى هذه « الأوديت » الصغيرة ، بالرغم من أنّك تجدها مكروهة جداً » .

على كلّ حال ، حتى اعترافاتها ، عندما كانت تدلي بها إليه ، بأخطائها التي كانت تظنّ أنّه قد اكتشفها ، كانت تقدّم لـ « سوان » بالأحرى نقطة انطلاق لشكوك جديدة أكثر ممّا كانت تشكّل نهاية للشكوك القديمة . لأنّها لم تكن أبداً بالضبط متناسبة مع هذه الشكوك . مع كلّ قدرتها على أن تحذف من اعترافها كلّ ما هو أساسي ، كان يبقى داخل المتمِّمات بعض الأشياء حيث « سوان » لم يكن أبداً قد تصوّرها ، وحيث ترهقه بجديدها ، وكانت ستسمح له أن يغيّر تعابير موضوع غيرته . وهذه الاعترافات ، لم يكن باستطاعته أن ينساها . روحه تسخر منها ، ترفضها ، تهدهدها كما لو أنّها جثث . وكانت هي منزعجة جداً من هذا الشيء .

ذات مرّة ، حدّثته عن زيارة قام بها « فورشفيل » إليها يوم عيد « باريس ـ ميرسي » . « كيف ، كنت تعرفينه من قبل ؟ آه ! أجل ، هذا صحيح » ، قال متراجعاً عن كلامه لكي لا يظهر أنّه لم يكن يعرفه . وفجأة ، بدأ يرتجف عندما كان يفكّر في أنّه بهذا اليوم ، لهذه الحفلة « باريس ـ ميرسي » ، حيث كان قد تلقّى منها هذه الرسالة التي قد احتفظ بها بشكل دقيق ، كانت ربّما تتناول طعام الغداء في « البيت المذهَّب » . أقسمت له أنّها لم تفعل

ذلك . « ولكن « البيت المذهّب » يذكّرني بما لا أدري ماذا ، حيث قد عرفته أنّه غير صحيح » ، قال لها ليخيفها . « أجل ، إنّني ما كنت قد ذهبت هذا المساء حيث قلتُ لكَ إنّني كنت خارجة منه على الفور عندما كنت تبحث عني عند « بريفو » ، أجابته (معتقدة بأنّها من خلال منظره قد يعلم بهذا) ، بحزم ملّون بالخَفَر أكثر ممّا كان يحمل قلّة حياء ، وربّما بشيء من الخوف ، من أن تغيظ « سوان » ، وحيث كانت تريد أن تخفي هذا الشيء بسبب كرامتها ، وأيضاً رغبتها في أن تبرهن له أنّها بإمكانها قول الصراحة . هكذا صفعته بوضوح وشدّة الجلّاد ، ولكنّهما كانا خاليين من القساوة ، لأنّ « أوديت » لم تكن تدرك الإساءة التي كانت تفعله لـ « سوان » ؛ وحتى أنّها بدأت تضحك ، ربّما ، في الحقيقة ، خصوصاً لكي لا تبدو ذليلة وخجولة . هذا صحيح أنّني لم أكن أذهب إلى « البيت المذهّب » ، وأنّني كنت خارجة من عند « فورشفيل » . كنت قد ذهبت فعلاً عند « بريفو » ، هذا لم يكن مزحة ، كان قد قابلني هناك وطلب منّي أن أذهب إلى منزله لأشاهد محفوراته . ولكن شخصاً ما قد أتى ليراه . قلت لك إنّني كنت آتية من « البيت المذهّب » لأنّني كنت أخشى من أن يزعجك هذا الشيء . هل ترى ، هذا شيئاً لطيفاً منّي . لنفترض أنّني كنت على خطأ ، على الأقلّ أقول لك هذا بصراحة. « وما الفائدة لي أن أقول لك أيضاً إنّني قد تناولت الطعام معه في يوم عيد « باريس ـ ميرسي » ، لوكان هذا صحيحاً . وبالأخصّ أنّ في هذا الوقت ، لم نكن قد تعرّفنا على بعضنا جيّداً ، قل لي يا

عزيزي » . ابتسم لها بنوع من الجُبن المفاجىء لإنسانٍ منهار القوى ، حيث جعلته على هذه الصورة هذه الكلمات المرهقة . هكذا ، حتى في الأشهر حيث لم يكن أبداً قد تجرّا أن يتذكّرها من جديد ، لأنها كانت سعيدة جداً خلالها ، حيث أحبّته ، كانت تكذب عليه أيضاً ! كما في هذه المرّة (الليلة الأولى حيث كانا قد « فعلا كاتْلِيا ») حيث قالت له إنّها كانت خارجة من « البيت المذهَّب » ، كم من الكذبات قد فعلت غيرها ، كم من المرّات الأخرى كانت قد كذبت عليه مثل هذه المرّة ، وحيث « سوان » لم يكن حتى قد شكّ فيها . تذكّر أنها قالت له ذات يوم : « ليس لي إلاّ أن أقول لسيّدة « فردوران » إنّ ثوبي لم يكن جاهزاً ، وعربتي قد وصلت متأخّرة . توجد دائماً وسيلة لتدبّر الأمر » . له أيضاً دون شكّ ، مرّات كثيرة حيث دسّت من هذه الكلمات التي تشرح تأخيراً ما ، تبّرر تبديلاً في زمنِ موعدٍ ما ، ربّما أنّها أيضاً كانت تخبّىء ، دون أن يشكّ حينئذٍ بذلك ، شيئاً عليها أن تفعله مع شخص آخر حيث قالت له أيضاً : « ليس لي إلاّ أن أقول لـ « سوان » إنّ ثوبي لم يكن جاهزاً ، وعربتي قد وصلت متأخّرة ، توجد دائماً وسيلة لتدبّر الأمر » . ومن وراء كلّ الذكريات السعيدة لـ « سوان » ، وراء أبسط الكلمات التي كانت قد قالتها له « أوديت » في السابق ، وحيث آمن بها وكأنّها كلمات إنجيل ، وراء كل أعمالها اليومية حيث كانت قد أخبرتها له ، وراء الأماكن المألوفة كثيراً : منزل خيّاطتها ، « جادّة الغابة » ، ميدان سباق الخيل ، كان يشعر ، مخّبئةً بفضل هذا الوقت الإضافي ، حيث في

الأيّام الأكثر تفصيلاً يترك مجالاً ، مكاناً ، بإمكانه أن يخبّىء بعض الأعمال ، كان يشعره بتسلّل : الحضور الممكن والمبطّن بالأكاذيب ، حيث قد جعلت مخجلاً كلّ الذي كان أغلى شيء في نظره (أمسياته الجميلة ، شارع « لابيروز » هو بالذات ، حيث كان بإمكان « أوديت » أن تغادره في أوقات أخرى غير تلك التي كانت تخبره بها) جاعلاً في كلّ مكان ، يتجوّل بعض شيء من الرعب الغامض ، حيث كان قد شعر به عندما قد استمع إلى الاعتراف المتعلّق بـ « البيت المذهّب » ، وكما الحيوانات الدنسة في «دمارنينوى»، تزعزع حجراً محجراًكل ماضيها. إذاكان يلتفت الآن ، كلّما ذاكرته كانت تردّد له اسم « البيت المذهّب » القاسي ، لم يكن ، مثلما من قبل في سهرة السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » ، لأنّه كان يذكّر بسعادة قد أضاعها منذ زمان ، ولكن بتعاسة حيث قد علمها منذ وقت قليل جداً . وأيضاً ، بخصوص اسم « البيت المذهّب » كما اسم « جزيرة الغابة » ، توقّف رويداً فرويداً عن تعذيب « سوان » . لأن ما نعتقده حبّنا ، غيرتنا ، لم يكن وَلَع واحد مستمرّ ، لا يتجزّأ . يتكوّن من حكايات حبّ متتالية ولا حدود له ، من غِيرَ مختلفة وعابرة ، ولكن بسبب كثرتها المتواصلة تعطي لنا انطباع الاستمرارية ووهم الوحدة . قصّة غرام « سوان » ، وفاء غيرته ، كانا مكوّنين من الموت ، من قلّة الوفاء لتمنّيات عديدة ، من شكوك عديدة ، حيث كلّها هدفها « أوديت » . لو كان يبقى طويلاً دون أن يراها ، هؤلاء الذين يموتون لن يستطيع آخرون أن يحلّوا محلّهم . ولكن وجود

« أوديت » كان مستمرّاً في أن يزرع بقلب « سوان » حناناً وشكوكاً متعاقبة .

في بعض الأمسيات ، كانت تعود ، فجأة ، إلى لطفها من جديد وكانت تعلمه بقساوة بأنّه يجب أن يستفيد على الفور ، خوفاً من الا يرى هذا الشيء يتكرّر قبل سنوات ؛ كان يجب أن يدخل منزلها على الفور ، « أن يفعلا كاتْليا » ، وهذه الرغبة التي تشعرها تجاهه ، كانت تبدو مفاجئة إلى حدٍّ كبير ، غير قابلة للتفسير ، وملحة ، وكانت المداعبات التي تفعلها معه من ثمّ ، مقنعة وغير عاديّة لدرجة أنّ هذا الحنان المفاجىء وغير المبرَّر كان يحزن « سوان » أكثر من كذبة أو أذيّة . ذات مساء عندما كان على هذا الشكل ، دخل معها ، بأمر منها ، وكانت تمزج قبلاتها بكلمات ملتهبة تتناقض مع جفافها العادي . تهيّأ له فجأة أنّه كان سمع ضجيجاً ؛ نهض وبحث في كلّ مكان ، لم يجد أحداً ، ولكن لم تكن لديه الجرأة بعد ذلك على أن يتخذ مكانه من جديد بقربها حيث كانت عندئذٍ في ذروة غضبها ، حطمت إناء وقالت لـ « سوان » : « مستحيل على أحد أن يفعل أبداً شيئاً معك ! » واستمرّ غير أكيد من أنّها لم تكن قد خبّأت شخصاً ما ، حيث كان بودّها أن توجع غيرته أو أن تلهب شهواته .

بعض المرّات كان يذهب إلى البيوت السريّة متأمّلاً أن يكتشف شيئاً عنها ، ولكن دون أن يجرؤ على تسميتها . « لديّ فتاة صغيرة » « ستعجبك » ، قالت القوّادة . وكان يمضي ساعة وهو يتحدّث بحزن مع إحدى « الفتيات » ، مستغربةً أنّه لم يكن

بفعل أكثر من ذلك . إحداهنّ فتيّة جداً ورائعة قالت له ذات يوم : « ما أتمنّاه هو أن أجد صديقاً ، حينئذٍ سيكون واثقاً بي ، لن أذهب أبداً مع شخص آخر . ـ حقّاً ، هل تظنّين أنّه ممكنٌ أنّ امرأة تكون متأثرة إذا أحبّها أحد ولن تخونه أبداً ؟ سألها « سوان » بقلق . ـ بالتأكيد ! هذا يعود للطباع ! » لم يكن يقدر أن يمنع نفسه عن أن يقول لهؤلاء « الفتيات » الأشياء ذاتها التي كانت قد أعجبت الأميرة « دولوم » . إلى التي تبحث عن صديق ، قال بابتسامة : « هذا لطيف ، عيناك الزرقاوان بلون حزامكِ . ـ أنتَ أيضاً ، تلبس زندي قميص أزرقين . ـ كم أنّ حديثنا جميل ، لمكان كهذا ! ألا أزعجكِ ؟ لديكِ ربّما عمل ؟ ـ كلا ، لديّ وقت متّسع . لو كنت قد أضجرتني ، كنت أقول لـك ذلك . بالعكس ، أحبّ كثيراً أن أسمعك تتحدّث . ـ إنّني مسرور جداً . هل ترين كيف نتحدّث بلطف ؟ قال للقوّادة عندما دخلت عليهما . ـ ولكن أجل ، هذا بالضبط ما قلته لنفسي . كم هما عاقلان ! هكذا ! الآن أصبح الناس يأتون إليّ ليتحدّثوا الأمير كان يقول ذلك ذات يوم ، هنا أفضل كثيراً من أن يكون مع زوجته . يظهر أنّه الآن في المجتمع الراقي لديهنّ كلهنّ نوع خاص ، هذه هي فضيحة حقّاً ! أتركُكما ، إنّني كتومة » . وتركت « سوان » مع « الفتاة » ذات العينين الزرقاوين . ولكن حالاً ، قام وودّعها ، كان غير مكترث بها ، لم تكن تعرف « أوديت » .

مرض الرسّام ، الدكتور « كوتار » نصحه برحلة بحرية ؛ بعض المؤمنين أظهروا رغبتهم في الذهاب معه ؛ « آل فردوران »

لم يستطيعوا أن يصّمموا على البقاء وحدهم ، استأجروا يختاً ، ثم أصبحوا يملكونه ، وهكذا قامت « أوديت » بعدّة رحلات سياحية . كلّ مرّة ، خلال اللحظة الأولى لذهابها ، كان « سوان » يشعر بأنّه بدأ يتخلّص منها ، ولكن كما أنّ هذه المسافة الروحية كانت متناسبة مع المسافة الماديّة ، لحظة كان يعلم بعودة « أوديت » ، لم يكن باستطاعته أن يبقى دون أن يراها . ذات مرّة ، كانوا قد فكّروا بأنّهم ذاهبون لمدّة شهر فقط ، أو أنّ فكرة ما كانت قد استهوتهم في الطريق ، أو أنّ السيّد « فردوران » كان قد رتّب الأشياء من قبل بشكل متستّر ليفاجىء زوجته ، وأنّه لم يكن قد أعلم المؤمنين دفعة واحدة ، من الجزائر ذهبوا إلى تونس ، وإلى إيطاليا ، ومن ثمّ إلى اليونان ، وإلى القسطنطينية ، ثمّ إلى آسيا الصغرى . الرحلة كانت مستمرّة منذ أكثر من سنة ، « سوان » كان يشعر بهدوء تام ، وسعيداً كان إلى حدٍّ ما . بالرغم من أنّ السيّدة « فردوران » ، حاولت أن تقنع عازف البيانو والدكتور « كوتار » بأنّ عمّة الأوّل ومرض الثاني لم يكونوا بحاجة إليهما ، وأنّه ، على كلّ حال ، كان من المجازفة أن يتركوا السيّدة « كوتار » تعود إلى باريس حيث السيّد « فردوران » كان يدّعي أنّها في حالة ثورة ، فاضطرت أن تتركهم في القسطنطينية . الرسّام ذهب معهم . ذات يوم ،قليلاً بعد عودة هؤلاء المسافرين الثلاثة ، « سوان » ، مشاهداً قطاراً متجهاً إلى اللوكسمبورغ حيث كان لديه عمل هناك ، صعد إليه ، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع السيّدة « كوتار » التي كانت تقوم بجولة الزيارات « اليومية » في

لباسها الرسمي : ريشة في القبّعة ، ثوب من حرير ، فروة اليدين جزدان صغير للسفر ، عُلبة بطاقات ، قفّازان أبيضان نظيفان مرتدية هذه الشارات ، عندما يكون الطقس صاحياً ، كانت تذهب على قدميها من منزل إلى آخر ، في الحيّ ذاته ، ولكن لكي تذهب إلى حيّ مختلف ، كانت تستعمل القطار ومن ثمَّ أيّة وسيلة نقل أخرى مطلوبة . في اللحظات الأولى ، قبل أن يتمكّن لطف المرأة الطبيعي من اختراق تصنع البورجوازية الصغيرة ، لم تكن تعرف على كلّ حال إذا كان ضرورياً أن تحدّث « سوان » عن « آل فردوران » . بدأت تتحدّث بشكل طبيعي ، بصوتها البطيء الأخرق والرقيق ، حيث كان القطار أحياناً يطغي عليه بصوته الراعد ، بكلمات كانت تسمعها وتكرّرها في المنازل الخمسة والعشرين التي كانت تصعد سلالمها خلال يوم واحد :

ـ لا أسألكَ ، يا سيّدي ، إذا كان رجل مطّلع مثلك قد شاهد ، في « ميريليتون » الصورة الزيتية لـ « ماشار » التي تذهل باريس كلّها . هيّا ، ما رأيك ؟ هل أنت في فريق الذين يؤيدون أو الذين يرفضون ؟ في كلّ الصالونات لا يتكلّمون إلاّ عن هذه الصورة الزيتية لـ « ماشار » ، لسنا لطفاء ، لسنا أنقياء ، لسنا في « الحركة » إذا لم نعطِ رأينا بصورة « ماشار » .

عندما أجاب « سوان » بأنّه لم يكن قد شاهد هذه الصورة ، خشيت السيّدة « كوتار » من أن تكون قد أساءت إليه عندما جعلته يفطر إلى الاعتراف بهذا الشيء .

ـ آه ! هذا جيد جداً ، على الأقل أنت تعترف بذلك صراحة ،

لا تشعر بأنّه قد حُطَّ من قدْرك لأنّك لم تشاهد صورة « ماشار » . أرى ذلك رائعاً من قبلك . والآن ، أنا شاهدتها ، الآراء منقسمة ، هنالك من يجد أنها متقنة إلى حدٍّ ما ، قليلاً مثل الزبدة المخفوقة ، أنا أراها مثالية . بالتأكيد لاتشبه النساء الزرقاوات والصفراوات لصاحبنا « بيش » . ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة ، لن تجدني « في قلب العصر » ، ولكن أقول هذا الشيء كما أفكّر به ، لا أفهم . يا إلهي ، أعرف الصفات التي توجد في صورة زوجي ، إنّها أقلّ غرابة من الشي الذي يفعله دائماً ، ولكنّه اضطر إلى أن يضيف عليها شاربين ازرقين . ولكنّ « ماشار » ! انتبه ، بالضبط ، زوج الصديقة التي أذهب إلى منزلها الآن (ويسعدني جداً أن أتابع طريقي معك) وعدها ، إذا تمَّ انتخابه للأكاديمية (هو أحد زملاء الدكتور) ، أن يكلّف « ماشار » برسم صورة زيتية له . طبعاً ، هذا حلم جميل ! لديّ صديقة ثانية حيث تزعم أنها تفضل « لولوار » . إنّني لست سوى تعيسة ، غريبة عن الفنّ وربّما « لولوار » هو أهمّ أيضاً في العِلم . ولكن أرى أنّ الصفة الأولى للصورة ، خصوصاً إذا كان ثمنها عشرة آلاف فرنك ، هي أن تكون شبيهة بصاحبها ، وبشكل محبَّب .

عندما قالت هذه الكلمات التي كانت تستوحيها من ارتفاع ريشة قبّعتها ، من رقم علبة البطاقات ، الرقم الصغير حيث الصباغ قد سجّله بالحبر على قفّازيها ، ومن الارتباك في أن تحدّث « سوان » عن « آل فردوران » ، وبما أنّها لاحظت أنّهما كانا لا يزالان بعيدين عن زاوية شارع « بونابرت » حيث السائق

ليوقفها ، أصغت إلى قلبها الذي كان يشير لها بكلمات أخرى !

ـ لا بدّ أنّ أذنيكَ كانتا قد طنّتا بسببنا ، يا سيّدي ، قالت له ، أثناء الرحلة التي قمنا بها مع السيّدة « فردوران » . لم نكن نتحدّث إلاّ عنك .

« سوان » ، استغرب جداً ، كان يظنّ أن اسمه لم يكن يُلفظ أمام « فردوران » .

ـ على كلّ حال ، تابعت السيّدة « كوتـار » ، السيّدة « دوكريسي » كانت معنا هناك ، وهذا يعني الكثير . عندما تكون « أوديت » في مكان ما ، لا تستطيع أن تستمرّ طويـلاً دون التحدّث عنك . وأكيداً ، ليس لتقول أشياء سيّئة . كيف ! هل تشكّ ؟ قالت ، عندما لاحظت حركة من « سوان » تشير إلى الارتياب .

ـ ومأخوذة بصحة اقتناعها ، حيث لم تكن تعني في تلك الكلمة أية سوء نية ، كانت تستعملها فقط كما نستعملها نحن نتكلّم من خلال العاطفة التي تجمع الأصدقاء :

ـ ولكنّها تعبدكَ ! آه ! أظنّ أنه لا يجب أن نعلن أمامها هذا الشيء ! سيطالنا العتب ! في كلّ الأشياء ، لو كنّا نشاهد لوحة مثلاً كانت تقول : « آه ! لو كان هو هنا سيعرف أن يقول لكِ إذا كان هذا حقيقياً أم بالعكس . لا أحد يشبهه في هذا المجال » . وفي كلّ لحظة كانت تسأل : « ماذا يفعل الآن يا ترى ؟ لو كان يعمل فقط قليلاً ! هذا مؤسف ، أن يكون رجل موهوب جداً كسولاً جداً . (إنّكَ تسامحني ، أليس كذلك ؟) في هذه اللحظة

أراه يفكّر فينا ، يتساءل أين نحن » . وحتى أنّها لفظت كلمة أحسستها رائعة جداً : سألها السيّد « فردوران » : «وكيف بإمكانك أن تري ماذا يفعل في هذه اللحظة وهو الآن على بعد ثمانمائة فرسخ منّا ؟» عندئذٍ أجابته أوديت : « لا شيء مستحيلاً في نظر صديقة » . كلاّ أقسم لكَ ، لا أقول ذلك لأسايرك ، لديك هنا صديقة حقيقية نادراً أن يجد مثلها أحد . أقول لك أيضاً إنّك إذا لا تعلم ذلك ، فستكون الوحيد . السيّدة « فردوران » قالت لي في آخر نهار من الرحلة(تعلم، في ليالي الوداع يتكلّم الناس أكثر) : « لا أقول إنّ « أوديت » لا تحبّنا ، ولكن كلّ ما كنّا نقوله لها لا قيمة له بالنسبة لما يقوله لها السيّد « سوان » » . أوه ! يا إلهي ، ها هو السائق يوقفني ، كنت سأتجاوز شارع « بونابرت » وأنا أتحدّث معك . . . هل تؤدّي لي خدمة وتقول لي إذا كانت ريشة قبّعتي منتظمة ؟

وأخرجت السيّدة « كوتار » يدها من « الفروة » لتمدّها إلى « سوان » ، وهي مغطّاة بكفّ أبيض ، حيث انبعثت منها مع العربة التي استقلّتها صورة عن الحياة الراقية ، ملأت القطار ، ممزوجة أيضاً برائحة المصبغة ! « سوان » ، شعر نفسه مليئاً بالحنان تجاهها ، وكذلك تجاه السيّدة « فردوران » (وتقريباً بالمقدار ذاته الذي يشعره تجاه « أوديت » ، لأنّ هذا الشعور ، مجرّداً من الألم ، لا يعود عندئذٍ شعور حبّ بينما كان يتابعها من المحطّة بعينيه المؤثّرتين ، وهي تسلك بجرأة شارع « بونابرت » : ريشة مرتفعة ، بيد ترفع تنّورتها ، وبالأخرى تمسك جزداناً صغيراً

للسفر ، بالإضافة إلى عُلبة البطاقات ، بحيث تجعل رقمها يظهر ، وتُرقِص أمامها فروة يديها) !

لتنافس الشعور المَرَضيّ حيث كان « سوان » يحسّه تجاه « أوديت » ، السيّدة « كوتار » ، أفضل خبيرة بالمداواة ، حيث لم يكن زوجها كذلك في هذه الظروف ، كانت قد زرعت بقربه شعوراً آخر طبيعياً : شعور إخلاص ، صداقة ، سيجعل « أوديت » بفكر « سوان » أكثر إنسانية (تتشابه أكثر مع بقية النساء ، لأنَّ نساء أخريات أيضاً بإمكانهنّ أن يولّدن هذا الشعور فيه) ، وكان بإمكان هذا الشعور أن يعجّل في تطوره النهائي عندما سيحبّ « أوديت » بعاطفة هادئة ، حيث كانت قد عادت به ذات مساء ، بعد حفلة عند الرسّام ، ليشرب كوباً من عصير البرتقال مع « فورشفيل » ، حيث بقربها كان « سوان » قد اكتشف أنّ بإمكانه العيش سعيداً .

في الماضي ، عندما كان يفكّر ، برعب ، بأنَّ يوماً ما سيتوقّف عن حبه لـ « أوديت » ، كان وعد نفسه بأن يكون يقظاً : يتمسّك بحبّه عندما يحسّ بأنه بدأ يفلت منه ، يحتفظ به . ولكن ، هكذا ، بنسبة ما كان قد تضاءل حبّه ، في الوقت ذاته كانت تتضاءل رغبته في أن يستمرّ عاشقاً . لأن أحداً لم يكن باستطاعته أن يتغيّر ، يعني أن يصبح شخصاً آخر ، مستمراً في إطاعة شعور الشخص الأوّل الذي لم يعد موجوداً . مرّات ، كان يقرأ في جريدة اسم رجلٍ ما يظنّ أنّه كان أحد عشّاق « أوديت » ، كان يولّد فيه الغيرة من جديد . ولكنّها كانت خفيفة ، ولأنّها كانت

تبرهن له أنّه لم يكن قدخرج كلياًمن الوقت حيث كان قدتألّم خلاله كثيراً ـ ولكن أيضاً حيث كان قد اكتشف أسلوباً للشعور ممتعاً جدّاً وأنّ مصادفات الطريق ستسمح له ربّما بأن يشاهد أيضاً بصورة عابرة الجمال من بعيد ، هذه الغيرة ستولّد فيه أكثر انفعالاً ممتعاً كما لباريسي حزين يغادر البندقية ليجد فرنسا من جديد ، برعشة أخيرة تبرهن له أنّ أيطاليا والصيف لم يكونا بعد بعيدين كثيراً ! ولكن غالباً جداً ، الزمن الحميم من حياته حيث كان خارجاً منه ، عندما يبذل جهده ، إذا لم يكن ليستمرّ هناك ، فعلى الأقلّ لتكون لديه رؤ يا واضحة عن الوقت الذي بإمكانه أن يحتفظ به . كان يكتشف أنّها كانت قد اختفت في هذه اللحظة قبل أن يحتفظ بها ؛ كان بودّه أن يرى ، كما لو أنّه منظر سيختفي ، هذا الحبّ الذي قد غادره ؛ ولكن ، من الصعب جداً أن يكون أحد مزدوجاً ، يوجد لنفسه المشهد الحقيقي لشعور قد توقّف عن امتلاكه ، وحيث قريباً ، عندما سيلف الغموض عقله لم يكن يرى أيّ شيء ، كان قد تخلّى عن النظر إليه ، كان ينزع نظّارتيه ، يمسح زجاجتيهما قائلاً في نفسه إنّه من الأفضل له أن يستريح بعض الشيء ، وإنّه سيكون لديه كلّ الوقت الكافي بعد قليل ، ثمّ ينزوي باستسلام ، بفتور همّة المسافر النعسان الذي يثني أطراف قبّعته على عينيه لينام في عربة القطار ، حيث يشعرها تجذبه بسرعة أكثر ، بعيداً عن هذه البلاد التي قد عاش فيها مدّة طويلة ، وحيث كان موعوداً بألاّ يتركها تهرب دون أن يودّعها الوداع الأخير . مثل هذا المسافر أيضاً ، إذ يستيقظ فقط في

فرنسا ، عندما التقط « سوان » من جانبه ، بالصُدفة ، البرهان على أنَّ « فورشفيل » كان عشيقاً لـ « أوديت » ، واكتشف أنّه لم يكن يشعر بايّ الم ، وانّ الحبّ كان بعيداً الآن ، وندم على أنّ أحداً لم يكن قد حذّره من اللحظة حيث يتخلّ عنه نهائياً . وكما ، قبل أن يقبّل « اوديت » للمرّة الأولى ، كان قد أراد أن يطبع في ذاكرته وجهاً كانت تمثّله له مدّة طويلة ، وحيث ذكرى هذه القبلة كانت ستحوّله كليّاً ، كان بودّه أيضاً ، بفكره على الأقلّ أن يودّع ، عندما كانت هذه الذكرى لا تزال موجودة ، هذه «الأوديت» متيقظاً عندها الحبّ والغيرة ، هذه «الأوديت» التي يسبّب لها الآلام وحيث الآن لم يكن يراها أبداً .

كان على خطأ . رآها مرّة أخرى ، بعد عدّة أسابيع . حدث هذا خلال غَسَق الأحلام . كان يتنزّه مع السيّدة « فردوران » ، الدكتور « كوتار » ، شاب كان يعتمر طربوشاً مغربياً لم يكن باستطاعته أن يحدّد من يكون ، الرسّام ، « أوديت » ، « نابوليون الثالث » وجدّي ، على طريق يتبع البحر ، مائل وشديد الانحدار ، أحياناً مرتفع جداً وأخرى بعض الأمتار فقط عن البحر ، بحيث إنّنا كنّا نصعد ونهبط بصورة مستمرّة ؛ لحظة نزول المتنزّهين ، لا يستطيع أن يلمحهم أحد من الصاعدين . القليل ممّا تبقّى من ذلك اليوم ، كان يتضاءل ، عندئذٍ تبيّن لنا وكأنّ ليلة سوداء ستمدّد على الفور . بعض الأوقات ، كانت الأمواج تقفز حتى الشّط ، وكان « سوان » يشعر برشاشات من المياه الباردة على خدّه . كانت « أوديت » تقول له

أن يمسحها ، لم يكن باستطاعته ، كان خجولاً تجاهها ، لأنّه أيضاً كان يرتدي ثياب النوم . كان يتأمّل أنّ الظلمة لن تدع أحداً يلاحظه ، غير أنّ السيّدة « فردوران » ركّزت عليه نظرة مستغربة طويلة ، حيث رأى وجهها ، خلال هذا الوقت ، يتشوّه ، أنفها يستطيل وأنّ لها شاربين غليظين استدار ونظر إلى « أوديت » خدّاها كانا شاحبين ، عليهما بقع حمراء ، ملامح وجهها متعبة ، مزرقّة ، ولكنّها نظرت إليه بعينين مليئتين بالحنان كما لو أنّهما كانتا ستنفصلان عن وجهها لتسيلا مثل الدموع وتقعان عليه ، كان يشعر تجاهها بحبّ كبير ، كان يريد أن يرحل بها حالاً . فجأة ، أدارت « أوديت » معصمها ، نظرت في ساعة صغيرة ، قالت : « يجب أن أرحل » كانت تودّع الجميع بالطريقة ذاتها ، دون أن تنفرد بـ « سوان » ، دون أن تقول له أين ستراه في المساء أو في أيّ يوم آخر . لم يجرؤ على سؤالها ، كان بودّه أن يتبعها وكان مضطراً ، دون أن يلتفت نحوها ، أن يجيب بابتسامة على سؤال طرحته عليه السيّدة « فردوران » ، ولكن قلبه كان يطرق بشكل مرعب ، كان يشعر بكره شديد تجاه « أوديت » ، كان يريد أن يفقأ عينيها اللتين كان يعشقها قبل قليل ، أن يسحق خدّيها الشاحبين . كان يصعد بصورة مستمرّة مع السيّدة « فردوران » حيث كلّ خطوة كانت تبعده عن « أوديت » التي كانت تنزل عكس اتجاهه . خلال لحظة ، كأنّ ساعات كثيرة قد مرّت على ذهابها . لفت الرسّام انتباه « سوان » إلى « نابوليون الثالث » الذي كان قد اختفى بعد لحظة . « كانا بالتأكيد

متفقين ، تابع الرسّام ، لا بدّ أنّهما تقابلا عند أسفل الشّط ، ولم يردا توديعنا معاً خوفاً من الانتقادات . هي عشيقته » . الشاب المجهول أخذ يبكي . حاول « سوان » أن يخفّف حزنه . « بعد كلّ شيء ، إنّها على حقّ ، قال ، وهو يمسح له عينيه وينزع له طربوشه المغربي لكي يشعر بارتياح أكثر . إنّني قد نصحته عشر مرّات بخصوص هذا الشيء . لماذا هو حزين ؟ كان هو الرجل باستطاعته أن يفهمها » . هكذا كان « سوان » يتحدّث مع نفسه ، لأنّ الشاب الذي لم يكن باستطاعته أن يحدّده في البداية كان هو بالذات . كما بعض الروائيين ، كان قد وزّع شخصيته على شخصين : هو الذي كان يحلم ، وآخر يراه أمامه معتمراً طربوشاً مغربياً .

« نابوليون الثالث » ، كان « فورشفيل » بالذات ، حيث بعض ترابط المعاني المبهمة ، بالإضافة ألى نوعٍ من التحوّل في مظهر البارون العادي ، وكذلك وشاح جوقة الشّرف الكبير يضعه على صدره بشكل قلادة ، كلّها ، كانت قد سبّبت إعطاء الاسم ، ولكن في الحقيقة ، وبسبب كلّ الأشياء حيث هذا الشخص الموجود في الحلم الذي كان يمثّلها له ويذكّره بها : كان هو فورشفيل » فعلاً . لأنّه ، من خلال صور ناقصة ومتغيّرة ، كان « سوان » خلال نومه ، يستخلص منها استنتاجات خاطئة ، ولديها ، على كلّ حال ، موقتا ، هذه القدرة الخلاّقة ، لدرجة أنّها كانت تتكاثر من خلال التجزئة كما بعض الأجسام السفليّة ؛ مع حرارة راحة يده بالذات التي أحسّها ، كان يرسم باطن يدٍ غريبة حيث كان يتهيّأ له أنّه كان يصافحها ، وعبر شعور وتخيّلات لم

يكن يوضحها بعد ، كانت تخلق نوعاً من الأحداث حيث ، بارتباطها المنطقي ، كانت تأتي في الوقت المناسب خلال نومه ، بالشخص الضروري ليتلقى حبّه أو ليسبّب يقظته . ليلة سوداء قد هبطت فجأة ، دقّ ناقوس الخطر ، سكّان مرّوا مسرعين ، هاربين من المنازل المشتعلة ؛ كان « سوان » يستمع إلى صوت الأمواج وهي تقفز وقلبه حيث ، بالعنف ذاته ، يطرق بقلق في صدره . فجأة ، ازدادت خفقات قلبه سرعة ، شَعَر بألم ، بغثيان لا مبرّر له . قروي مغطّى بالحروق يصرخ له أثناء مروره : « تعال واسأل « شارلوس » أين ذهبت « أوديت » لتنهي سهرتها مع رفيقها ، كان معها في الماضي وتقول له كلّ شيء . هما اللذان قد أشعلا النار » . كان هذا خادمه الخاصّ حيث كان يوقظه من نومه قائلاً له :

ـ سيّدي ، الساعة الآن الثامنة والمزيّن هنا ، قلت له أن يعود من جديد بعد ساعة .

ولكن هذه الكلمات ، عندما كانت تعبر أمواج رقاده ، حيث كان « سوان » مستغرقاً فيه ، لم تكن تصل حتى حدود إدراكه إلاّ وهي تعكس عليها هذا الانحراف ، كما في قعر المياه : شعاع ما يبدو وكأنّه شمس ، وكما أيضاً قبل قليل صوت الجرس ، حيث يتخذ في عمق هذه الهوى رنين ناقوس الخطر ، كان قد ولّد أسباب الحريق . ولكن الإطار الذي كان أمام عينيه تطاير كالغبار ، فتح عينيه ، سمع لآخر مرّة صوت إحدى موجات البحر حيث كانت تبتعد . لمس خدّه ، كان جافاً ، رغم أنّه كان يتذكّر إحساس

المياه الباردة وطعْم الملح . نهض ، ارتدى ملابسه . كان قد أتى بالمزيّن باكراً لأنّه كان قد كتب قبل ليلة لجدّي أنه كان سيأتي بعد الظهر إلى « كومبراي » ، عندما علم بأنّ السيّدة « دوكوبريمور » ـ الآنسة لوغروندان ـ كانت ستمضي هناك بعض الأيّام . جامعاً في ذاكرته ، بالإضافة إلى جاذبية هذا الوجه الفتيّ مثيلتها عن القرية ، حيث لم يكن يذهب إليها منذ مدّة طويلة جدّاً ، كانا يقدّمان له معاً إغراء ، كان قد دفعه في النهاية إلى مغادرة باريس لبضعة أيّام . كما الصُدف المختلفة ، التي تضعنا أمام بعض الأشخاص لا تتناسب مع الوقت حيث نحبّهم خلاله ، ولكن ، مجتازة الوقت ، بإمكانها أن تحدث قبل أن يبدأ وتكرّر بعد أن ينتهي ، الزيارات الخاطفة الأولى ، حيث يفعلها في حياتنا شخص ، قدره أن يعجبنا في ما بعد ، يأخذ بالرجوع إلى الماضي في نظرنا قيمة تحذير ، ودلالة على المستقبل . بهذا الشكل ، كان « سوان » مراراً يعود بالذاكرة إلى صورة « أوديت » ، خلال أوّل مساء قابلها في المسرح ، حيث لم يكن يفكّر في أن يراها أبداً من جديد ـ وحيث أيضاً كان يتذكّر الآن سهرة السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » والتي قدّم خلالها الجنرال « دوفروبرفيل » إلى السيّدة « دوكومبريمور » . مصالح حياتنا كثيرة لدرجة أنّه ليس نادراً ، وفي الظرف ذاته ، أن تكون رموز سعادتنا غير الموجودة بعد ، موضوعة إلى جانب حزن كبير يعذّبنا . ودون شكّ ، هذا كان ممكناً أن يحدث لـ « سوان » في مكان آخر مختلف عن منزل السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » . ومن يدري حتّى ، فيما لو ، في هذا

المساء ، كان قد وُجد في مكان آخر ، إذا أفراح أخرى ، أحزان أخرى لن تكون قد حصلت له ، وحيث فيما بعد كانت تبينّ له أنّها كانت ضرورية ؟ ولكن ما قد تراءى له أنّه قد حصل ، كان هو الذي قد حدث ، ولم يكن بعيداً عن تصوُّر بعض الشيء من العناية الإلهية في هذا الحادث ، أنّه قد قرّر الذهاب إلى سهرة السيّدة « دوسانت ـ أوفرت » لأنّ ذهنه متشوّق إلى أن يشاهد غنى ابتكار الحياة ، وليس بإمكانه أن يسأل نفسه لمدّة طويلة سؤالاً صعباً ، كأن يعلم مثلاً ماذا كان الأكثر احتمالاً أن يتمنّاه . كان يتأمّل آلاماً عاشها ذاك المساء ، وملذّات غير متوقّعة بعد ، حيث قد تنبت في ذلك الوقت ـ وحيث بينها ، كان من الصعب أن ينتصب الميزان ـ نوعاً من الترابط الضروري .

ولكن عندما مرّت ساعة على استيقاظه ، حيث كان يعطي توجيهات للمزيّن لكي لا يتغيّر شكل شَعره في عربة القطار ، تذكّر حلمه من جديد ، رأى من جديد ، كما كان قد شعرها قريبة جداً منه ، وجه « أوديت » الشاحب ، خدّيها النحيلين جدّاً ، ملامح وجهها المتعبة ، عينيها الذابلتين ، كلّ الذي ـ خلال فصول الحنان المتتالية التي كانت قد جعلته ، من خلال حبّه الثابت لـ « أوديت » ، أن ينسى طويلاً الصورة الأولى التي كان قد أخذها منها ـ كان قد توقّف أن يلاحظ ، منذ الأوقات الأولى لعلاقتهما ، حيث خلالها دون شكّ ، عَبْر نومه ، كانت ذاكرته قد تحوّلت لتأتي بالشعور الصحيح . وبهذه الفظاظة المتقطعة التي كانت تظهر لديه ، في الوقت الذي لا يكون خلاله تعيساً ، وفي آن واحد

كان يتضاءل مستواه الأخلاقي ، صرخ في نفسه قائلاً : « من يصدق أنّني قد أضعت سنوات من حياتي وأردت أن أموت ، أنّني قد شعرت بأكبر حبّ ، تجاه امرأة لم تكن تعجبني ، ولم تكن من « نوعي » ؟ ليست لي ! » .

« صديقي بروست » !

هل تشكّل الترجمة ، عبر نَقْل الإبداع ، فكراً ، أدباً ، شِعراً كان ، أم شيئاً آخر ، ذَنْباً أم فضيلة ؟

شخصياً ، أرى أنّها الإثنان معاً . ولكنّها توهج مع ذاك أو مع تلك ، بقدر ما « نترجم » أنفسنا ، إبداعنا ، نحن بالذات ، نزرع هذه « الترجمة الثانية » داخل الأولى ، في عمقها ، جوهرها ، ولونها الخاص أوّلاً ، حتى تصير الأصول ، عودةً إلى الينابيع الأولى ، في مصادرها الأولى ، في تخيّلها ، تصوراتها الأولى عن الله والناس والأشياء .

الترجمة هنا ليست النقل ، إنها الأمانة الابداعية ، للأثر المترجَم أولاً ، وللتخطّي ، انها ثانياً ، أو هكذا يجب أن تكون .

نقلاً حرفياً تقريرياً ، إذا كانت ، مسوّرة بالشّح واليباس وهواجس التصنع والمكابرة ، تكون ، آنذاك ، سَحْقاً ، وليس تشويهاً ، للأثر . ولكنّها تبقى ، أولاً ، وثانياً وأخيراً ، مغامرة .

ومغامرة المغامرات ، إن شئنا !

هنا ، بالذات ، عند « مرسيل بروست » ، إقدامٌ على المغامرة ، أو فلنقل : مغامرة كبرى ، تهيّبتها ، أتهيّبها ، أولاً ، لكونها مغامرة ، كما ذكرتُ ، وثانياً لأنَّ « بروست » ، « صديقي »

الكبير هو الكتاب والمدى والتحدّي .

« ياصديقي بروست » : نترجمكَ ، إذاً نغامر . كتابك « غرام سوان » ، « الكلُّ شيء » ، ليس هو رواية ، ليس قصّة ، ليس أقصوصة ، ليس فكراً ، فلسفة ، شعراً ، نقداً لمجتمع أو عشقاً لحبيبة حتى العظم ، وليس كتاباً ، إنّه كتابك هذا الذي من صميمك ، التراثي ، إنّه النبع ، المصدر ، وهو النبوءة !

أنت الشاعر ، الروائي ، « الباحث أبداً عن زمنٍ ضائع » ، غبتَ ولم تجده ، وربّما ، لو وجدته ، لكنت انتهيت !

قرأناك ، من زمان ، « شفهياً » ، واليوم ، استعدناك « كتابياً » ، وبين القراءتين مسافاتك الروحية التي تشع بالاستمرارية والتحوّلات .

لستَ « فلوبير » ، لستَ « بلزاك » ، لست « هوغو » . . . ولست « الآنْ روب ـ غرييه » ، روائياً . وفي الشعر ، لست : « راسين » ، ولا « رامبو » ، ولست « فرلين » أو « إيلوار » ، حتى أنّك لست « بريتون » أو « سان ـ جون برس » ، وكذلك لست « إيفٍ بونغوا » ، إنّك « مرسيل بروست » ، نمط خاص ، « وكلٌ » خاص ، وهذا يكفي !

إنّك الفجاءة والاندهاش المضيء كشمس حنينك ، ويا ما ذاك الحنين يلينّ مفردتك رغم عبثيتها أحياناً ، ومن هنا ، أنتَ الصعب العبثي ، ولكنّك الرائع أبداً .

الترجمة ، ها هنا ، ليست مغامرة ، إنّها المخاطرة الكبرى . فإذا كانت اللغة إناءً ، فلنقل إطاراً للفكر ، يعني للإبداع ، فهل

هدف الترجمة أن تنقل اللغة فقط ؟ كلاّ ، أهميّتها أن تنقل الفكر ـ المُناخ ـ التفوّق ـ السَفَر ـ الذي يصهل في أعصاب الكلمات ، وهنا الصعوبة .

شخصياً ، أقف حذِراً أمام رائعة تترجَم . أقف ضدّ نفسي أيضاً . فأنا ، لعمل مَتبكَرٍ بلغته أتوجَّع . ولكنّني ، رغم هذا ، لست ضدّ « المحاولاَت » !

أتذكّر ، ها هنا ، لماذا تردّدت ، ولماذا تهيّبت . لأنّني حَذِرٌ ، حريص على الكبار ، فهم عالمي الخاص والأشمل !

وحريص أيضاً ، وبشكل حاسم ، على « الأصول » . والعالم إذا لم يكن أصولاً ، يتحوّل إلى شراذم من الاجتياح . « صديقي بروست » : الشعراء موجوعون . مسامهم مسافات لعبور العالم الآتي ، الأشياء الآتية ، والسماء . الشعراء هم ، نقاء العالم ، لولاهم ، لاستعمرتنا المستنقعات .

أنتَ ، الروائي النبع ، أحدهم . أنت الشاعر حتى الوَجَع ، حتى أعماق الجُزْر الشعرية التي لم يتبارك بسطوعها إلاّ الذين مثلك .

أنت ، انوجعتَ من زمان ، واليوم ، عدتَ فأوجعتنا .

ولكنّك عدتَ أيضاً فاستيقظت معنا على وَجَع الحلم ، في هذا الزمن العبثي الذي لا تنقذه سوى الأحلام .

لأنّها الشعر ، النبوءاتُ هي ، وغيرها ، كلّه ساقط !

لأنّها سَفَرٌ إلى الله !

ترجمناك ، « نقلناك » ، « صديقي بروست » ، زوجتي

وأنا ، أنت الآن بيننا ، عبر لغة لم تكتب فيها .
فهل ذنبُنا سيكون كبيراً ، أم هي الفضيلة ؟
بانتظار جوابكَ ، فلنقرأ كتابك الشهيّ ، ولنصلِّ !

Marcel Proust

مارسيل بروست

عويدات للنشر والطباعة ٢٠٠٨/١١١٢

PROUST

UN AMOUR DE SWANN

Traduction arabe

Robert Ghanem



EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth-Liban

غرام سوان

... جسديًا، كانت «أوديت» تجتاز مرحلة سيّئة؛ كانت تسمن. جاذبيتها المعبِّرة والمنهكة، نظراتها المستغربة المليئة بالأحلام، والتي كانت لديها من قبل، تبدو وكأنّها قد زالت مع صباها الأوّل. «سوان»، صار يحبّها أكثر، بالضبط، خلال الوقت الذي يراها أقلّ جمالاً. كان ينظر إليها مليًّا محاولاً العثور مجدّداً، على الجاذبية التي كان يألفها لديها. لكنّ أمله كان يخيب.

رغم كلّ شيء، كان يعرف أنَّ تحت هذا «المولود الجديد»، موجودة «أوديت» بالذات، التي تعيش دائماً ذات الإرادة العابرة التي لا تمسك، والمتستِّرة، والتي كانت تكفي لـ «سوان»، لكي يستمرّ أن يعيش الانفعال ذاته، ليبحث في ما بعد، عن كيفية التقاطه. ومن ثمَّ، كان ينظر إلى صور لـ «أودي... سنتين مضت، تذكّره كم كانت جميلة...


ISBN 978-9953-28-105-6



